دراسات أرترية

أدولفو روسي

أرتريا اليوم

- ١٨٩٤ م -

ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأرترية

أنريكو فوكيرا

روما (١٨٩٤)

ادولفو روسي

أرتريا اليوم (١٨٩٤ م)

ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الارترية

انريكو فوكيرا
روما (١٨٩٤)

ADOLFO ROSSI

L'ERITREA
COM'EOGGI

VOGHERA ERRICO
TIPOGRAFO DELLE L I. Mm. IIRE e la REGINA
ROMA /1894/

استريا اليوم (١٨٩٤)

ililom@yahoo.com

كتب للمؤلف

رجل ايطالي في أمريكا ، ميلانو ، تريفيز . . . . . ٣٫٥٠ لير

طبعة اولى وثانية ، المكتبة الاقتصادية . . . . . — ١ لير

من نابولي الى همبورج (رحلة صحفي) . . . . . — ٢ لير

في بلد الدولارات ، ميلانو ، كونتوروفيكس . . . . . ٢٫٥٠ لير

في مملكة التيبوتي ، رومـا ، بيرينـو . . . . . ٥٠ لير

الاضطرابات في صقلية ، ميلانو ، كونتوروفيكس . . — ١ لير

ادولفو روسي

ارتريـــا اليـــوم (١٨٩٤)

« مذكرات »

رحلـــة بعـد معركة اغردات

المكتبة الارترية

تمهيد

بين « ارتيريا اليوم » وارتيريا اليوم فارق زمني مداه حوالي الثمانين عاما . فالمؤلف ـ ادولفو روسي ـ الصحفي الايطالي ـ قد زار ارتيريا في عام (١٨٩٤) ـ اي بعد ان اعلن ملك ايطاليا اسم « المستعمرة ارتيريا » باربعة اعوام ، وفي فترة كانت منطقة شمال شرقي افريقيا تعيش في حالة اضطراب وحروب ـ حروب الطليان والانكليز والحبشة ضد الحكومة المهدية في السودان ، وحرب المقاومة الوطنية الارتيرية المتفرقة ضد الاحتلال الايطالي ، وحرب المهديين ضد الاتيريين ، وحرب الحبشة ضد المصريين . وانعكست حالة الاضطراب هذه على اوضاع السكان الاقتصادية والحياتية بشكل عام ، فكانت المجاعات وكانت الهجرات الجماعية من منطقة الى اخرى بحثا عن مأمن وطلبا للرزق . وكان سكان ارتيريا بصفة عامة يميلون في هذه الفترة الى مسايرة الطليان لمواجهة أعداء آخرين أكثر توحشا ، وبالاخص الاحتلال الاثيوبي الذي مثله رأس الولا في المرتفعات الارتيرية وامتدت اصابع بطشه الى مناطق السهول الغربية والشرقية غزوا ونهبا ، الى جانب غزوات المهديين السودانيين الذين اعملوا السيف في رقاب الناس بلا شفقة ، فكانت المجازر في وادي بركة وسهول القدين .

وكما قلنا ، هناك فارق زمني قدره ثمانون عاما أو يزيد بين ارتيريا اليوم وارتيريا عندما سجل المؤلف الايطالي ملاحظاته . فارتيريا اليوم مختلفة كلية عما كانت عليه آنذاك ـ سكانها يزيدون على ثلاثة ملايين نسمة بينما لم يتجاوز عددهم آنذاك نصف مليون نسمة . والارض التي يسميها المؤلف « بورا قليلة الامطار لا تصلح الا للرعي وللمرور » وهي المنطقة الغربية : (اراضي بركة والقاش) عامرة بزراعة الموز والقطن ومختلف أنواع الحبوب تسقيها مياه النهرين الموسميين والنهر الدائم الجريان ـ سيتيت (عطرة) الذي يشكل احد روافد النيل الاساسية . والطرق العصرية تربط معظم المدن والقرى الارتيرية . وتحسنت الاوضاع التعليمية والصحية والاجتماعية تحسنا ملحوظا مواكبة ركب الحضارة العصرية المنتشرة في ارجاء الدنيا .

وباختصار ، فان ما ورد في الكتاب عن ارتيريا وسكانها لا يمثل ارتيريا اليوم . لكننا قصدنا من ترجمته من الايطالية الى العربية ونشره تقديم معلومات تاريخية عن تلك الفترة بهدف اغناء المكتبة العربية بالمعرفة اللازمة لخلفية الصراع الارتيري الاثيوبي الذي يدور اليوم في الارض الارتيرية وصولا الى الاستقلال الوطني الكامل .

والكتاب لا يخلو من هفوات بعضها متعمد ، فهو اولا لا يعدو كونه تحقيقا كتبه صحفي على عجل ، ولا يتوقع منه والحالة هذه ان يلم بكل أحوال الشعب الارتيري في زيارة قصيرة دامت سبعة اسابيع سيرا على الاقدام في مساحة واسعة قدرها (١١٩) الف كيلو متر مربع . وبعض ملاحظاته عن سكان ارتيريا وطباعهم واحوالهم المعيشية ــ يصفهم احيانا بالكسل واحيانا بالتعصب واللصوصية والهمجية ــ لا تزيد عن كونها تعبيرا عن شعور مستعمر اوروبي متعال ومتغطرس في وقت كان الاستعمار الغربي في عنفوانه محتقرا حضارات الشرق وقيمه .

وعلاوة على ذلك فالمؤلف من المعارضة الايطالية التي كانت تطالب الحكومة الايطالية بالتخلي عن سياسة احراز مستعمرات في افريقيا وبخاصة (مستعمرة ارتيريا) التي كانت موضع نزاع بين مختلف القوى المهدية السودانية واثيوبيا وتركيا ممثلة بالخديوية المصرية وانجلترا وفرنسا لاحراز موطىء قدم في حوض البحر الاحمر وباب المندب بعد أن اكتسب هذا البحر أهمية دولية كممر مائي للتجارة بين الشرق والغرب اثر فتح قناة السويس في عام ١٨٦٩ . وهو العام الذي بدأ فيه الاحتلال الايطالي لارتيريا بشراء قطعة صغيرة من الارض في عصب من السلطان ابراهيم ، لتكون محطة تزويد وقود للسفن الايطالية . هذا فضلا عن المقاومة الوطنية التي كانت تستفيد من ملاءمة الطبيعة الجغرافية لحرب العصابات . وكانت حجة المعارضة أن ايطاليا التي كانت تعاني أزمات اقتصادية متلاحقة لا تستطيع معها ان تدخل ساحة المغامرات الاستعمارية بكل ما تتطلبه من جيوش واستثمارات . ولهذا يحاول المؤلف ان يظهر ارتيريا كالبلد الفقير الذي لا يستحق كل هذا العناء وخاصة بالنسبة لمرامي ايطاليا الاستيطانية . بينما يناقش تقرير بعثة مجلس الشيوخ الايطالي التي ترأسها فردناند دي مارتيني هذا التصور ويعطي صورة متفائلة للامكانيات الزراعية الارتيرية .

وقد استمر الاستعمار الايطالي وانتزع المستوطنون الطليان مساحات

المكتبة الارترية

شاسعة من الاراضي الزراعية من ايدي اهاليها بالقوة . مما ادى الى قيام الثورات الوطنية ، وابرزها ثورة (دجياش حقوس بهتا) الذي يذكره المؤلف هنا كصديق للطليان آنذاك .

وقد قتل بهتا بايدي القوات الايطالية بعد ثلاثة أعوام من المقاومة الباسلة .

ويذكر المؤلف ان الايطاليين نشروا الامن في ارجاء البلاد وقضوا على قطاع الطرق وحكم على بعض منهم بالسجن في (نخرة) . وقد يكون ذلك صحيحا في بعض الاحوال فالبلاد لم تكن تتمتع بحالة امنية جيدة بسبب الغزوات الاجنبية . لكن لا ريب في ان سجن جزيرة (نخرة) الموبوءة بامراض الملاريا انما اقيم ليكون معتقلا للوطنيين الاحرار الذين قاوموا الاستعمار الايطالي وقضى معظمهم نحبه هناك .

ويفضح المؤلف سياسة القهر الايطالية عندما يتحدث عن اساليب الطليان في معاملة الجنود الارتيريين حيث يبرر بوقاحة على لسان احد الضباط الايطاليين « بان النظام والتربية تكون ضربا من المستحيل بدون استعمال الكرباج » ، ويتبجح اكثر عندما يقول بان « الجندي يحيي الضابط بعد العقوبة ويذهب طليقا راضيا اكثر مما لو سيق الى السجن » . انه هنا يتجاهل ابسط المشاعر الانسانية . فرد الفعل الغريزي ، حتى لدى الحيوان فضلا عن الانسان ، للضرب والاهانة ليس الرضى وانما هو الغضب والاستياء . ومع ذلك فهو يؤكد ان ايطاليا انما جاءت هنا حاملة رسالة التمدن ومشعل الحضارة . وما أبشع الحضارات التي تبنى قيمتها على امتهان كرامة الانسان واستغلاله .

ويتجاوز المؤلف حدود المنطق عندما يقول ان الشعوب هنا تحب القتال فهو سلواها . فالشعوب أينما كانت لا تقاتل الا مكرهة اما دفاعاً عن النفس أو بفعل الطبقات الحاكمة المستغلة التي تدفعها مصالحها الانانية الى اشعال نار الحروب التي تكون وقودها عادة الجماهير البريئة . وهذا بالطبع يختلف عن الخصائل الحميدة التي يعزوها المؤلف للشعب الارتيري من شجاعة وصبر وتحمل الشدائد فتلك صفات أصيلة في نفوس أبناء ارتيريا الذين تثبت تجربتهم الراهنة في مقاومة الاحتلال الاثيوبي هذه الحقيقة .

والكتاب مع كل ذلك يتضمن معلومات هامة عن الصراع الذي دار

بين المهدية والطليان في منطقة أغردات ، ما يتضمن سرداً مفيداً للحالة التي كانت تسود ارتيريا آنـذاك .

ومن الطبيعي أن نؤكد أن ما ورد في هذا الكتاب يمثل وجهة نظر كاتبه . وقد حرصت البعثة الخارجية على ترجمته حرفياً بدون حذف أو زيادة على أمل أن يفيد قراء العربية الذين يفتقدون المعلومات الضرورية عن هذا القطر الذي يناضل أبناؤه منذ خمسة عشر عاماً بالمهج والارواح للخلاص من براثن الاحتلال الاثيوبي بعد أن عانوا من الاحتلال الاجنبي ، منذ أن وطأت أقدام المستعمرين البرتغاليين في عام /١٥٢٠/ الشواطىء الارتيرية ، مروراً بالاحتلال العثماني التركي ثم الايطالي والبريطاني .

عثمان صالح سبي

الناطق الرسمي باسم البعثة الخارجية لجبهة التحرير الارتيرية

دمشق في ١٩٧٦/٣/١٢

المقدمة

ما أن وصلت الى روما البرقية الاولى حول موقعة اغرادات حتى خطر لي أن أسافر الى شواطىء بركه ، لا لتجميع التفاصيل الدقيقة عن تلك المعركة ورؤيتي للميدان الذي دارت عليه فحسب ، وانما أيضاً لزيارة المستعمرة ارتيريا في هذه المناسبة ومعرفة ما حصل هناك خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، أي بعد أن توقفت الصحافة اليومية تقريبا عن نشر شيء عن ذلك ، ولألاحظ حالة الامن والاستقرار فيها ، ولاشعر بمتطورات المستقبل وآماله .

ودون أن أضيع وقتاً انطلقت مساء يوم ٢٣ (ديسمبر) كانون الاول الماضي(*) من روما .

وعندما وصلت الى مدية برنديسي (Brindise) في مساء اليوم التالي /٢٤/ (ديسمبر) كانون الاول قابلت صاحب السمو حاكم ارتيريا . وهو الجنرال باراتيري (Baratieri) الذي كان يتهيأ مثلي لركوب الباخرة المسماة بلاّرات (Ballarat) التي هي من كبريات سفن شبه الجزيرة ، التي تنتقل ما بين انكلترا والهند وبالعكس ، حاملة البريد والمراسلات .

بدأ سعادة الجنرال باراتيري يحدثني عن الدراويش . فقال انه لا يعتقد أن هؤلاء سيعودون قريباً للهجوم لاسباب عديدة هي :

أولا ــ اختلاف آرائهم وتنوع طباعهم المتعصبة التي جعلتهم يعتقدون أن الاندحار والهزيمة هما من حكم الله .

ثانيا ــ لم تعرف سابقة عودة لهم الى الثورة والعصيان حتى عندما كان مصيرهم أقل ألماً وشجوناً ، كما هي الحال في كوفيت (Cufit) نفسها بعد المعارك ضد الرأس الولا (أحد قادة جيش الحبشة (Ras Alula)

(*) سنة ١٨٩٣ .

عام /١٨٨٥/ ، وكما هو الحال في متما حيث قتل يوحنا (يوهنس) امبراطور اثيوبيا .

ثالثاً ــ من غير المحتمل أن يستعيد الدراويش قواهم بهذه السرعة. لان المهدي كان مهدداً بالعصيان في كردفان (Cardafan) من ناحية ، كما كان على قسم من المهديين مواجهة القوات الانكليزية ــ المصرية والحبشية من ناحية أخرى .

ثم أخذ الجنرال باراتييري يعرض النتائج الطيبة والمشجعة لمعركة أغردات والمتعلقة بأرتيريا قائلا :

« ستزدد بدون شك ثقة جميع الارتيريين (الذين تعودوا أن يعانوا منذ سنوات عديدة ، من كل نوع من أنواع الاضطهاد) بالحكومة الايطالية التي حررتهم ودحرت للمرة الثالثة الدراويش في معركة ضارية . كما سيزداد وعي الارتيريين لقواهم الذاتية وللنظام العسكري الايطالي ، وهذا في صالح المحافظة على المستعمرة وسوف يسمح بنقل القوات سريعاً من مكان الى آخر ، وفي الوقت المناسب ، لمحاربة العدو .

كما سترتفع مكانة الايطاليين لدى الاحباش (الذين يتحملون منذ سنوات عسف الدراويش ويدفعون الضرائب لهم) . ولدى الانكليز والمصريين ، الذين تكبدوا الخسائر الفادحة في حربهم مع الدراويش ، في ضواحي سواكن بالشوا رغم القوات الاوروبية التي تقف الى جانبهم .

وبينما أحرز الايطاليون النصر على بعد ثلاثمائة كيلو متر من البحر الاحمر تقريباً ظل الانكليز والمصريين على شواطىء سواكن (Suachin) . وكان عليهم أن يفعلوا الكثير حتى يفتحوا من سواكن طرق التجارة مع السودان ويشلوا حركة العدوان اللدودة لعثمان دقنه (Osman Dicna) .

وتابع الحاكم حديثه :

« يضاف الى ما جنيناه من فوائد الانتصار في اغردات أن القوات المحلية الوطنية قد قوي وعيها بقوتها الذاتية وثقتها بالضباط ، وبالنظام والتربية الاوروبية، وبخلق تقاليد عسكرية بدأن بمناوشات بسيطة وتجلت في معركة اشترك فيها ما يزيد على نصف القوات المحلية في المقاطعة ذاتها.

ومن ناحية أخرى ليس ثمة أفضل من الدم لتوثيق عرى الوحدة ما بين السودانيين والاحباش الذين يكونون القوات النظامية المحلية لارتيريا.

ويمكن القول تماماً بأن معركة اغردات هي تجربة لقوات النظام العسكري الحالي لمقاطعتنا . وقد برهنت تلك المعركة كيف أن شبكتي المخابرات والاستطلاع منظمتان تماماً ، وكيف تحشد القوات بسرعة باتجاه النقاط التي عينت محوراً للدفاع عن حدودنا . وأخيراً كيف أن كل شيء يتوافق مع هدف تواجد قوات مرجحة في الوقت المفيد وفي المكان المناسب . وختم حديثه قائلا :

وانني شديد الثقة ، بامكان حشد قوات كبيرة اذا ما أردنا ذلك . ويحدث نفس الشيء فيما لو أن الاحباش قاموا بمهاجمتنا بأعداد كبيرة أو من جهة مأرب (النهر الفاصل بين ارتيريا واثيوبيا) (Mareb) أو من جهة عقامى باقليم تجراي الاثيوبي اذ سيصطدمون في هذه الحالة بـ (عدى وقرى)(١) حيث يمكن تجميع قوى كبيرة وعلى الفور أيضاً .

وحين الحديث عن هذه القوات النظامية المحلية التي صنعت الكثير من المجد في أغردات ، شرح الحاكم لي كيف أن القوات المذكورة تضم أربع كتائب من المشاة ، مجموعها ست عشرة سرية ، تتألف كل منها من مئتي رجل يقودها نقيب وملازمان أوروبيون وعنصر ايطالي للمحاسبة .

وتضم أيضاً فرقتين من الفرسان احداهما في مدينة أسمرة والاخرى في بلدة كرن . وفي كل منهما أربعة ضباط ايطاليين ، وبطاريتا مدفعية جبلية تنقلها البغال وأربعة ملازمين أوروبيين . أي أن مجموع القوات حوالي أربعة آلاف رجل .

ان العقيدة العسكرية لهذه القوات اوروبية محضة . وتدريبها العسكري مبني على اساس نظام الجيوش الايطالية . والقيادة والاوامر باللغة الايطالية . وهي تقف في صفوف وتناور كالقوات الاوروبية .

وقد تم التغلب على المحذور القائل بان الانضباط الاوروبي يقلل من اندفاع القوات المحلية وبسالتها . وقد اظهرت النجاحات في اغردات نفسها مدى انتظام التحركات وكيف انها تساعد القوات على أن تتعود وتتدرب على البقاء في امرةالضباط .

وأخذ الجنود المحليون الذين انتقوا انتقاء ، والذين يعتدون بأنفسهم لانهم عرفوا كيف يجتازون المصاعب والحواجز ، يشعرون انهم اشد قوة واكثر قدرة على المناورة كجنود اوروبيين .

---

(١) محافظة سراسي بارتيريا .

وفي كل سريـــة أو فرقة أو بطارية من سرايا وفرق وبطاريات القوات المسلحة مدرسة لتعليم اللغة الايطالية . واصبح من غير الممكن أن يترقى الجندي المحلي الى مرتبة جندي ممتاز دون ان يعرف هذه اللغة .

وهكذا فان الجنود يتعلمون هذه اللغة اما بدافع من الحب ، أو للحاجة الى تعلم لغة عامة من بين العديد من اللغات واللهجات الموجودة في مستعمرة ارتيريا ، وأما لانهم يستطيعون ان يلفظوا هذه اللغة بسهولة كبيرة .

والى جانب القوات النظامية المحلية أي الوطنية ، هنالك الوحدات غير النظامية ، المجندة في الحبشة ولا يزال قسم منها الآن مجندا بينما سرح القسم الآخر ويتم استدعاؤه واستخدامه عند الحاجة .

أما الوحدات المؤلفة من العناصر العاطلة فقد تم الغاؤها .

ان الفرق غير النظامية مدعوة محليا للدفاع عن حدود المقاطعة ، وعن عائلاتها وحقولها وممتلكاتها الحيوانية ، ويرئس هذه الفـــرق رؤساء محليون وهم أحيانا مدنيون أو عسكريون يشرف عليهم ضابط ايطـــالي مقيم يمثل الحاكم .

وهذه القوات جميعها تقريبا من المسلمين ، ولكنها رغم ذلك عدوة للدراويش لاختلاف المذاهب وبسبب الثارات القديمة بين الطرفين .

وأوضح الجنرال براتييري حين الحديث عن الدفاع عن أي من حدودنا ، ان القوات المدافعة تتكون من ميليشيا سرية منضبطة قوية ومحلية ، وعلى مسافة قصيرة من أي معقل او حصن هناك القوات الامامية المؤلفة من سرايا غير نظامية منتشرة الى الامام بشكل مروحة وهي ايضا على شكل قواتنا الاستطلاعية وفي الحدود الغربية لدى الرؤساء جمال سريعة الجري تستخدم لنقل المعلومات الى الحصن سريعا أما الحصون الاخرى مثل حصن اغردات ففيها مركز اتصال لاسلكي يعلـــم القيادة بكل شيء .

وقال الجنرال أخيرا : اذا قام العدو بأية تحركات يكون من السهل حشد القوات نحو النقاط المتقدمة فتستطيع بتفوقها صد أي نوع من أنواع الهجوم .

وتبلغ مساحة القسم الذي نحتله من افريقيا ، والـــذي يشكل

مستعمرة ارتيريا ، نحو ٨٦ الف كيلو مترا مربعا ، أي ما يعادل مساحة بييمونتي ولومبارديا وفينيتو وترنتينو Piemonte, Lombardia, Veneto, Diguria, Trintino في ايطاليا .

ولنا منطقة نفوذ تتجاوز حدود القسم الذي نحتله . وعلى ذلك تصبح لدينا مساحة واسعة تعادل مساحة ايطاليا . وعلى ظهر السفينة ، كنا نتابع الحديث ، الذي كان يدور باستمرار تقريبا حول ارتيريا . وكان الجنرال باراتييري يوجز الانباء التي لديه حول الدراويش قبل المعركة ، فقال :

كان الدراويش ، أو المهديون ، مقسمين مؤخرا الى أربع جماعات كبيرة يقودها أربعة امراء . ويتابع الجنرال قائلا بان احدى هذه الجماعات مؤلفة من اثني عشر الف محارب مسلحين بأكثر من ثمانية آلاف بندقية ، وتحتل منطقة Ghedaref والغلابات Gallabat ، وتمتد منطقته من قرب حدود الحبشة الوسطى حتى بحيرة تسانا (Tsana) وباتجاه حدود ارتيريا من ناحية اخرى .

وكانت منطقتا (غضارف والغلابات) خصبتين . أما الآن فهما صحراء بلقع ، بعد الدمار الذي ألحقه بهما المهديون ، والجوع الذي عمهما طوال ثلاث سنوات متتاليات : وتمتد هاتان المنطقتان على طول نهر عطبرة (Atbara) ، احد الروافد الرئيسية لنهر النيل . ويمكن القول بأن هاتين المحافظتين تابعتان تقريبا للالب الارتيري الغربي . وكان قائد هذه الجماعة، حتى فترة قريبة ماضية ، هو الامير الشهير المسمى (تومل الذكي) El Zachi Tumel . وهو نفسه الذي دحر أولا في معركة متما (Metemma) ثم حالفه الحظ بقتل الامبراطور يوحنا وفاز بالتالي على الاحباش .

كان تومل الذكي رجلا مدركا عاقلا ، فخورا وفظا مع القبائل . بيد انه كان انضباطيا قاسيا ونظاميا عجيبا بين الجنود . ويحكى عنه ، مثلا ، انه قام بقتل ثلاثة جنود لانهم اطلقوا النار على نمر بدون أوامر .

الا ان (الذكي) أثار ريبة الخليفة عبد الله (Abdulhou) الكثير الشكوك وخليفة المهدي في أم درمان . فلقي حتفه خيانة بعد أن دعاه الخليفة الى الخرطوم بحجة ان يوكل اليه قيادة جماعة ضد العصاة في كردفان غربي السودان .

ويواجه هؤلاء العصـــاة في الوقت الحاضر جماعتان من المهديين المتواجدين والمنتشرين على الشاطىء الايمن للنيل الابيض . ويستحيل على المرء ، في ضوء الاخبار المتضاربة والمبالغات الكثيرة التي تحكى في افريقيا ، ان يعرف معرفة دقيقة القوة التي يتمتـع بها هؤلاء العصـاة وأهدافهم واحتمالات نجاحهم على المهديين . فرئيسهم يطلق على نفسه صفة الرسول . حتى انه يريد ان يدعي مباشرة باسم المسيح المنقذ الذي ينتظره الناس . وهو يعظ بالسلام والوفاق مابين المسلمين وضد اسالة الدماء الاخوية وسفكها . ويستند في جميع مواعظه على مبادىء القرآن والانجيل ، ويجمع حول نفسه قبائل كردفان Cardafan ودارفور Darfur والبلدان المتاخمة ، التي اتعبتها تخريبات المهديين ، واغضبتها فظاظـة ووحشية اتباع الخليفة عبد الله التعايشي (Abdula Hou) .

وقد انفض العديد من المهديين من حول الخليفة عبد الله ليلتحقوا (بالرسول) الجديد الذي يدعـوه بعضهم بالمسكين (Meskin) ، بسبب الحياة الزاهدة التي يعيشها . وقد حذا حذوه ابو قرجه (Abu Ghirgia) الشهير الذي كان اميرا لبلدة كسلا في عهد الكولونيل باراتييري عندما كان يحكم منطقة كرن .

وانهكت ابو قرجه الحروب . فأخذ يبدي ، بعد معركة اغردات الاولى رغبته في أن يرى طريق التجارة وقد فتحت مابين بلدة كسلا وبلدة مصوع . وقد دعي هو الآخر الى الخرطوم . ولكنه بدلا من ان يدخل المدينة ، تابع سيره مع أتباعه في نهر النيل حتى وصل الى ميدان الرسول الجديد ، حيث اكتسب خبرة عامة ، وعـرف بانتصاراته على القـوات الانكليزية ــ المصرية ، وتجمع حوله العديد من الاتباع .

وقد قام الخليفة عبد الله ، مؤخرا ، بتحصين مدينة ام درمان بالقرب من الخرطوم ، على الشاطىء اليساري للنيل الابيض لتقاوم هؤلاء العصاة ، وجمع فيها كميات كبيرة من المواد الغذائية والذخيرة .

أما الجماعة الرابعة من المهديين او الدراويش ، فيقفون الآن لحماية منطقتي النوبة (Nubia) وسواكن خاصة من الانكليز والمصريين . ويقود قسما من هذه الجماعة قرب سواكن القائد عثمان دقنه الذي يقوم منذ زمن طويل بقطع الطريق مابين سواكن وكسلا ، ويدفع بقواته احيانا حتى مشارف طوكر (Tocor) وسواكن .

وقد خلف السيد احمد علي (الذكي) بعد اغتياله ، واحمد هـذا أمير معروف جدا بذكائه وتطلعاته نحو القبائل المسلمة على حدود الحبشة، وبأنه جندي باسل وشجاع . وقد قتل أحمد هذا لتوه في اغردات في المعركة مع قواتنا المحلية .

وفي أوائل شهر نوفمبر (تشرين الثاني) المنصرم عام ١٨٩٣ نقل مخبرو الحكومة الارتيرية ان القوات المهدية تتقدم شيئا فشيئا من الغلابات والحدود البعيدة لجوجام (Goggiam) نحو غضـارف وبالتالي باتجـاه الاراضي القريبة من مقاطعة ارتيريا .

وبما ان غضارف تقع على مشارف الخرطوم ، فان الخليفة عبد الله قد استدعى في البداية جماعة (أحمد) لمواجهة الرسول الجديد (المسكين) عبد الله .

الا ان الجنرال باراتييري قال انه عرف بان حشود الدراويش ، في كسلا أو في مشارفها . وهذا ما أثار الاعتقاد بان هذه التحشدات ستقوم بعمل ضد ارتيريا بغية السلب وغزو القبائل التي هـي تحت الحمايـة الايطالية ، لا بهدف مهاجمة الايطاليين أنفسهم .

وكان معروفا ان حصن اغردات تحرسه سرية محلية واحدة مؤلفة من مئة وخمسين رجلا . وان الوحدات القليلة في (بركة) لا تخيف آلاف الدراويش الشجعان الباسلين بطبيعتهم وعاداتهم . لكن هذا الحساب قد تم دون اعارة اهتمام كاف لسرعة تحشدات القوات الايطالية وقدرتها . اذ أنها تتواجد في مكان تتوفر فيه ظروف سهلة جدا ، وتسيطر على كل خطوط المواصلات . وهي مزودة بكثرة المياه والعتاد وتحث القبائـل لتجميعها حولها . وبسبب هذه الشروط لقي الدراويش الهزيمة في اغردات .

كان الحاكم يميل الى الاعتقاد بان معركة ٢١ ديسمبر (كانون الاول) سنة (١٨٩٣) سيكون لها نتائج كبيرة وهامة جدا . لان هذا النصر الاخير في اغردات هو النصر الثالث والاكبر من سابقيه للايطاليين على الدراويش.

فقد كان النصر الاول في نهاية شهر يونيه (حزيران) من عـام (١٨٩٠) عندما وصل الدراويش ، بقيادة فرج الله (Faragia Alla) الشهير ، الى مسافة قريبة جدا من بلدة كرن . وهاجموا مضارب قبائل بني عامر (Beni-Amer) وأماكن اقاماتهم وذبحوا الرعاة البائسين ، ثم

انسحبوا باتجاه بلدة كسلا ، حيث فاجأتهم سريتان محليتان بقيادة النقيب بارا (Bara) بالقرب من اغردات أثناء توجههم لاحتلال منطقة (بيشا Biscia). وقد هاجمت قواتنا القراصنة ببسالة وأجبرتهم على الفرار ، فأخذت منهم الغنائم واعادتها الى بني عامر .

أما النصر الثاني فقد حدث في (١٧) يونيه (حزيران) من عام (١٨٩٢) حين تقدمت اعداد كبيرة من الدراويش لغزو قبائل الباريا (Baria). ووصلت فعلا حتى سهل ساروبتي (Sarobeti) ، فما كان من النقيب هيدالغو (Hidalgo) ، الذي حذره في الوقت المناسب المخبرون التابعون لنا ووحدات الدفاع ، الا أنه قام ، مع قيادة أغردات ، بتجميع ثلاثة ارباع السرية وفاجأ الدراويش أثناء انسحابهم وهاجمهم بمعونة وحدات (الباريا) و (عد عمر) واعمل فيهم القتل .

في مساء (٢٧) ديسمبر (كانون الاول) وصلت الباخرة بلارات الى ميناء بورسعيد فغادرناها وصعدنا على ظهر الباخرة البو (Po) ،التابعة الملاحة العامة ، لنتابع فيها السفر الى بلدة مصوع . وكان على ظهر هذه الباخرة أربعة من أقدم الضباط وأكثرهم خبرة ومعرفة بأرتيريا . فباتت الاحاديث من ثم على ظهر السفينة المذكورة حول ارتيريا اكثر ترددا . وراح الضباط والحاكم يتذكرون الظروف التي انشىء فيها حصن اغردات.

لقد وصل لفظ اغردات الى اسماع الايطاليين للمرة الاولى في نهاية شهر يونيه (حزيران) من سنة (١٨٩٠) ، عندما قامت سريتان من القوات الايطالية النظامية بمفاجأة رتل الدراويش والتصدي له بالسلاح ، مما خلق انطباعا حسنا في ايطاليا .

وبعد أيام قلائل قام باراتييري ، وكان برتبة عقيد وكلف بقيادة مناطق كرن ، بتنظيم الدفاع عن حدود ارتيريا مع السودان على اساس متين . وظهر في هذه الآونة ، وفي عهد رئيس الوزارة السيد كريسبي (Crispi) بأن توسعنا سوف يمتد حتى نهر القاش (Gasc) ، وان على وحداتنا أن تحتل كسلا . والواقع ان جميع القبائل في تلك المنطقة ، التي عانت الامرين من غزو وسلب وطرد المهديين ، كانت تتوق الى أن تقوم الوحدات الايطالية باعادة احتلال اراضيها لتصبح تحت الحماية الايطالية .

ان قبيلة (الهدندوة) Hadendoa هي احدى القبائل الشجاعة والاكثر معرفة بالحروب في السودان ، وكان رئيسها عثمان دقنه . وقد

قاتلت الدراويش قتالا ضاريا ، كما قاومت القوات الانكليزية ـ المصرية ، وطلبت أن تكون تحت حماية الحكومة الايطالية ، فقبلت ايطاليا طلبها .

وتمتد اراضي منطقة الهدندوة مابين نهر بركة من ناحية ، ومن كسلا نحو طوكو باتجاه سواكن من ناحية اخرى ، واحد اعمال سكانها تأجير الجمال لتجار السودان .

لقد تم التعرف ، تحت قيادة العقيد باراتييري وأمرته ، على حدود أرتيريا الغربية . كما تم تجنيد قسم من وحدات البركة ، ووحدة من وحدات الهدندوة ، ووحدة اخرى قوية من الاحباش ، بقيادة حدقو أمبسا (Adgu Ambessa) واكثر من كتيبة وفرقة من الجنود المحليين النظاميين ، كي تشكل هذه القوى اساس القوة العسكرية .

وكان الضباط يرون ان كل شيء بات جاهزا لاحتلال بلدة كسلا . الا ان القائد الذي ترك العدد الاكبر من جنوده في مشارف اغردات ، تقدم مع (الهدندوة) والباريا ومع الفرسان المحليين حتى (بيشا) . وبعد ان زار كوفيت Cufit ومقلو Magalo وعمديب Amideb عاد الى اغردات حيث قام بانشاء حصن في النقطة الاكثر اهمية لدفاعاتنا الغربية .

ويقع هذا الحصن في مكان هو عقدة مواصلات تلتقي فيها الطريقان القادمتان من بلدة كسلا من الغرب ، والطريق القادمة من أسفل بركة من الشمال ، وطريق القلابات من الناحية الجنوبية الغربية والطريق الاخرى القادمة من الحبشة جنوبا . وهو يتوسط منطقة تحتمي فيها قبائل (بني عامر) و (باريا) و (القدين) و (الهدندوة) . وتتصل به ثلاث طرق مختلفة بين الجبال المرتفعة . ويتقدم عن حصن كرن بحوالي ٨٠ كيلو مترا. الا انه ليس قريبا جدا من الحدود لانه يبعد عنها بحوالي ١٥٠ كيلو مترا .

ولا بد ان يؤخذ بعين الاعتبار ان الطرقات في قارة افريقيا ليست معبدة أو مفروشة بالمواد المستعملة في طرقاتنا . الا ان الآبار تسير اليها ، اذ تعتمد عليها الاقطار في مواصلاتها وخاصة في افريقيا ومن بينها ارتيريا . وغالبا ماتتواجد الآبار على طول الشواطىء أو في مهود الوديان .

ومهما يكن من أمر فان اية حركة ذات شأن ضد الحدود الغربية لا بد وان تأتي من اغردات التي هي افضل مكان لانتظار العدو. اذ ان عليه ، أن التف حولها ، ان يترك المياه والآبار ويغامر بحياته بسبب العطش الذي

سيصيبه ، ومعرضا جانبه لمن يكون في المنطقة الوسطى ، اي للمدافع عن اغردات .

لقد وضع العقيد باراتييري ، حجر الاساس في حصن اغردات في ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٩٠ . ويذكر الضباط حتى الآن التقرير الطويل الذي تقدم به العقيد من على التل حيث يقع الآن الحصن الذي يشرف اشرافا كليا على البلدة ، ويكشف المواصلات والطرق الآتية من مختلف نقاط الافق فوق كروم الدوم التي ترافق مسار نهر بركة اذ يقوم على يسار هذا النهر . وقد شرح حاكم ارتيريا في التقرير المشار اليه قبل قليل ، كيف كان من الطبيعي ايجاد موقع استراتيجي هام مع الاخذ بعين الاعتبار التحركات المحتملة للعدو باعداده الكبيرة ، الفوضوية والمتوحشة ، التي قد ترغب في مهاجمة او حصار ذلك المكان . ويبين أيضا كيف يمكن الاستفادة من الطبيعة في الدفاع والهجوم ، اذ كان يتنبأ تقريبا بوقوع المعركة في يوم ٢١ ديسمبر (كانون الاول) من سنة ١٨٩٣ .

ويتكون الحصن من سور ذي زاوية حادة للدفاع امام قوات العدو ، أقيمت داخله مستودعات للذخيرة والمواد الغذائية ، ومساكن الضباط ، والقيادة ، ومكتب الاتصال اللاسلكي وغير ذلك .

واقيمت حول الحصن اكواخ الجنود المحليين . وهو يتسع لمئتين أو ثلاثمائة رجل . وخلف الحصن حفرت في مجرى النهر بركة ، وفي احد روافده ، الآبار التي تقع على مرمى نيران المدافع ، واقيمت امامه ، وباتجاه بلدة كرن ، اكواخ ومخيمات قبيلتي القدين (Al-Gheden) وسبدرات (Sabderat) اللتين كانتا تقطنان الجبال بالقرب من بلدة كسلا ، وتجمعتا حاليا بالقرب من اغردات تحت الحماية الايطالية .

وترتفع اكواخ اخرى هنا وهناك على المرتفعات التي تشرف على مجرى (بركة) فوق غابة النخيل الطويلة . وتقيم ايضا قبائل نصف بدوية ، هي قبائل (بني عامر) التي باتت تستطيع الآن مع السبدرات أن تقوم بالاعمال الزراعية ورعاية الماشية .

ان الاماكن التي كانت مسرحا للحروب والغزوات ، ثم نزح سكانها عنها كلية ، قد اصبحت الآن مركزا مأهولا بالسكان لا بأس به ، كما أصبحت مركزا للتجارة والزراعة . ولقد ذكر من قبل ان قبيلتي سبدرات والقدين بقيادة رؤسائهما شكلتا وحدتين مسلحتين هما خارج الخدمة عادة . الا

ان قائد الحصن يستطيع عند الضرورة اعادة تسليحهما واستخدامهما في عمليات استطلاع البلاد التي تعرفانها تماما . ويقود هاتين الوحدتين رجال برهنوا عن اخلاصهم واهتمامهم بان يبقوا في ظل الحماية الايطالية التي تمنحهم الامان وحسن الحال .

ويقام حاليا بالقرب من اغردات في كل اسبوع سوق تؤمه القبائل المحيطة فتجلب معها مواشيها وسمنها ومنتجات اراضيها ، كما تؤمه ايضا قبائل البازا والكوناما المتوحشة .

لقد وصلت باخرة البو الى السويس صباح يوم ٢٩ ديسمبر (كانون الاول) ومكثت فيها حوالي الساعتين . وخلال هذه الوقفة القصيرة ، صعد اليها القنصل الايطالي وبعض التجار ، فنقلوا الينا الانطباع العجيب الذي خلفته على مصر بسالة الجيش في موقعة اغردات .

وكان طبيعيا أن يحدثني الحاكم موجزا عن تلك الانطباعات . فانتصار السلاح الايطالي على المهديين في اغردات قد ولد في مصر صدى اكبر من الصدى الذي حدث في ايطاليا . اذ لم تستطع الجيوش المصرية والانكليزية البيضاء منها والسوداء ، ن تحرز نصرا ذا شأن على المهديين منذ سنين كثيرة .

لقد انفق جنرالات الانكليز الاموال الطائلة . وأفادوا من قواتهم المتماسكة القوية ومن وسائل مواصلاتهم الجبارة . واستخدموا جهازا حربيا متسلقين وادي النيل . واجتازوا ، من كرسكو (Corosco) الى ابو حمد (Abu Hamed) ، الصحاري في النوبة . وقادوا قواتهم بخبرتهم التي اكتسبوها على مسارح الحروب البرية . ونقلوا مشاتهم على الخيول ومدفعيتهم على الجمال ، بعد ان شكلوا وحدات جمال سريعة . اي أنهم استخدموا كل طاقتهم الانكلو ساكسونية . ولكنهم لم يستطيعوا ان ينجدوا الجنرال غوردون باشا (Gordon Pascia) في الخرطوم ، لا من وادي النيل ولا من سواكن ، ولا حتى ان يتيحوا الفرصة له لينسحب من بربر (Berber) .

واضطر المصريون ، بعد أن دحر الدراويش وحداتهم في كل معركة للجلاء عن السودان كله تاركين قوات أمين بك (Emin Beg) والنقيب كاساتي (Casati) تائهة في المناطق الاستوائية . وانتهى مشروع حركة كردفان ضد المهديين بكارثة النيل الابيض حيث قتل اكثر من عشرة آلاف جندي مصري بقيادة الجنرال هيكس باشا (Hiks) .

وعلى مشارف سواكن كانت القيادات الانكليزية والمصرية ، بيضا

وسودا ، طوال سنوات وسنوات تناوش الوطنيين بقيادة ابو قرجة تارة وعثمان دقنه تارة اخرى . وقلما وصلوا برا باتجاه بربر أو كسلا . وفي الفترة القصيرة التي سبقت تدخل المهديين كانت بلدة كسلا على اتصال تجاري تام مع بلدة كرن في الوقت الذي كانت فيه سواكن مقطوعة تماما عن وادي النيل منذ اكثر من عام .

ولقد اضطرت القوات الانكليزية المصرية المتقدمة في جبل اسوان ان تقاتل متراجعة . ولم تتمكن ابدا ، رغم رغبتها العارمة في القضاء على المهديين ، من حشد قوات كبيرة الى الداخل حتى تتمكن من معاقبة المهديين بايقاع هزيمة تذكر بهم .

بينما كان الايطاليون على عكس ذلك. فعندما تواجدوامع الدراويش، وعلى بعد كبير من البحر بالقرب من معاقلهم في السودان ، كانوا يهزمونهم دائما بقوات قليلة .

ولا بد هنا من ذكر حقيقة هي ان الاحتفالات في القاهرة وفي الاسكندرية بانتصارات الايطاليين على المهديين لم تكن تقوم بها فقط الجالية الايطالية الكبيرة الموجودة هناك وانما المصريون انفسهم والانكليز . فقد كان جل اهتمامهم القضاء على المهدية .

ان الانتصار الكبير الذي احرزته ، في اغردات ، هذه المرة قوات قليلة نسبيا قياسا الى الوحدات القليلة التي تعسكر في المقاطعة والى المساحة الكبيرة لها ، أثار بالفعل اعجاب العسكريين الانكليز والمصريين وحسدهم في نفس الوقت . كما سببت غبطة الآخرين وفرحهم .

فقد كان المصريون يرون ان تلك الهزيمة هي الدمار الاخير للمهدية . وكان الناس جميعهم يتذكرون الخراب والخسائر العديدة التي الحقها المهديون بالبلاد على مدى اثنتي عشرة سنة من الحروب والمذابح ، مما سبب ضياع الارباح التجارية جميعها ودمار التجارة التي كانت قد ازدهرت وامتدت نحو منابع النيل باتجاه كردفان ودارفور ، وتلاشي المنافع التي كان من الممكن الحصول عليها على امتداد وادي النيل في مصر بسبب مجاري المياه والطرقات والسكك الحديدية التي كانت في طور الانشاء أو مشاريع قيد الدراسة .

ويكفي التفكير بالدمار والخراب والموت المزروع على امتداد المناطق الخصبة المنتجة التي أصبحت قفرا يباباً من جراء الحروب . وكم أغبط انتصار الايطاليين مصر بحكومتها وشعبها ، اذا ما فكرت بالمدن التي تخربت عن بكرة أبيها ، والوحدات العسكرية التي تقطعت أوصالها ، والاخطار

الدائمة المحدقة ، والنفقات الباهظة التي كانت تصرف ووجوب تواجد قوات معسكرة على الدوام لحراسة الحدود .

على أن من المؤكد ، على أية حال ، ان المهديين لا يستطيعون في الظروف الحاضرة تجميع وحدات عديدة من المقاتلين كالتي حشدوها في معركة اغردات التي اضطروا فيها ، ولا شك ، الى بذل كل ما في وسعهم لتجميع تلك الحشود ، ثم تكبدوا أفدح الخسائر .

وفي السويس أخذ أحد الرجال يكيل المديح للقوات المحلية التي نظمها الانكليز في سواكن والقوات المحلية التي جندها الايطاليون في ارتيريا ، ويوازن بينهما قائلا :

يتضح للوهلة الاولى ، ان القوات التي تعمل بامرة الانكليز اكثر ترتيبا واكثر ميلا للقيام بالمناورات وتشبه الى حدكبير القوات النظامية الاوروبية . فأفرادها يلبسون لباسا جيدا ويحملون حقائبهم الصغيرة ، ويناورون بتنسيق وهدوء تامين حين يلقي عليهم الضباط الاوامر ، وأغلبهم من الضباط المحليين ، لان الضابط الانكليزي يأبى ان يختلط كثيرا مع الرجال الملونين ، ويعتقد أو انه يدعو الى الاعتقاد ، بان ذلك يلحق الضرر بالانضباط وعزة السلطة ومكانتها .

وعلى عكس ذلك القوات الارتيرية . فهي تتمتع بلياقة اكثر ، وربما كان في السابق لا ينظر الى نظامية مناوراتها اما الآن فقد تغير ذلك .

ويأخذ الضباط الايطاليون ، بعين الاعتبار ، حين يدربون الجنود ، الطباع المرحة للاحباش والارتريين الذين يفقدون هذه الصفات حين يعاملون بغطرسة وكبرياء . ليس هذا وحسب ، بل ان الضباط الايطاليين يتعايشون باستمرار مع جنودهم المحليين . وهم ذاتهم يقومون بتثقيف جنودهم في أصغر الامور ، ويهتمون بجميع تفاصيل حياتهم ، ويساعدون كل واحد منهم ، وينصبون من أنفسهم قضاة للفصل في المنازعات العائلية التي تحدث فيما بينهم . أي باختصار ، انهم يعرفون تماما كيف يستفيدون من كل جندي بتقديره وحبه واحترامه .

واثناء متابعتنا للرحلة ، كانت درجات الحرارة تصبح يوما بعد يوم اكثر رقة ، ففي البحر الاحمر كانت درجة الحرارة ٢٣ في الظل ، وكنا نلبس اللباس الصيفي . وفي بلدة (مصوع) ، لاتزيد درجات الحرارة من الثلاثين خلال شهري ديسمبر (كانون الاول) ويناير (كانون الثاني) . لقد كان الفصل شتاء في الشواطىء الارتيرية .

الفصل الأول

الوصول الى مصوع
لقاء المشتركين في اغردات

وصلنا الى مصوع صباح يوم ٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٤ في تمام الساعة السادسة والنصف . وقد ظهرت لنا المدينة مزدانة وغنية بالعمارات من الطراز الاصلي ، وبدت جذابة وتزيد على كل ما كان يتوقعه اي زائر لها لاول مرة .

وكان في مينائها الرائع ، بالاضافة الى باخرة للملاحة العامة ، الباخرتان الملكيتان فولتورنو Volturno وكاريدي Careddi ، وكان على ظهر هذه الاخيرة ذوق مقاطعة الابروتي (Abruzzi) في ايطاليا .

وما ان القت السفينة بو (Po) بمراسيها ، حتى صعد اليها العديد من الضباط الذين يمثلون السلطات الارتيرية وبدؤا يعلمون الحاكم ان معركة اغردات كانت اكثر أهمية مما كان يبدو ويصل الى ايطاليا عن طريق البرقيات الاولى ، واخذوا يروون كثيرا من التفاصيل التي كنا نجهلها .

كان العقيد اريموندي (Arimondi) في الايام الاولى من شهر ديسمبر (كانون الاول) وكيلا للحاكم في بلدة مصوع . وقد علم ان الخليفة قرر أن يحارب الايطاليين ، اذ امر ابن أخيه (أحمد علي) بحشد جيش لمقاتلتهم .

فأخذ العقيد اريموندي يجمع القوات في اغردات وأمر العقيد كورتيسي (Cortese) ، وهو قائد منطقة كرن ، ان يندفع باتجاه الحدود . بيد ان هذه المناورة احبطها التقدم السريع للدراويش الذين كانوا قد اجتازوها .

وفي صباح يوم ١٨ ديسمبر (كانون الاول) اشارت فرقة الفرسان في كرن ووحدات بركة الى وجود العدو على مسافة اربع ساعات تقريبا من كوفيت التي وصلت اليها طلائع الدراويش المؤلفة من خمسمائة فارس وباتت فيها .

وفي اليوم التالي وصلت هذه الطلائع نفسها الى عشايت (El Asciait) وكانت قوى الجيش الكبرى للدراويش تزحف على مسافة قريبة في ليل يوم ٢٠ . وعسكرت هي ايضا في عشايت . وكانت مقسمة الى أربعة أقسام يقودها عبد الله ابراهيم وعبد الله احمد وعبد الرسول وموسعيد غيدان وتضم عشرة آلاف رجل ، منهم ستة آلاف عنصر مسلحون ببنادق رمنغتون (Remington) .

وكان لدى كل من عبدالله ابراهيم وعبدالله احمد عدد كبير من العناصر المسلحة بالبنادق ولدى هذا الاخير مدفع واحد . أما الدراويش الفرسان فكان عددهم من ستة الى سبعة آلاف موزعين على الاقسام الاربعة .

أما الكولونيل اريموندي ، الذي وصل من بلدة مصوع الى اغردات يوم ١٨ ، فقد جمع في الحصن الفين من الرجال (مؤلفين من ثماني فرق محلية » ست من وحدات بركة ووحدتين من فرسان كرن وأسمرة وبطاريتين . وقد احتلوا الاماكن الاستراتيجية التي رأوها مناسبة بانتظار العدو .

وفي ليلة ٢٠ الى ٢١ أشارت نيران الحرس الامامي الى وصول الدراويش لسفح مرتفعات اغردات . والحقيقة أنهم عند الصباح ، ومن جهة شقلت (Sciagalet) ، كانوا يزحفون بطابور ضخم يحمي الفرسان جناحه الأيمن .

وكانت الساعة تشير الى الحادية عشرة قبل الظهر ، عندما قرر الكولونيل اريموندي التخلي عن مواقعه ليهاجم العدو بمعركة مفتوحة . فتمت الاستفادة من الفوضى التي لحقت بالدراويش بسبب نيران مدفعيتنا التي انهالت عليهم بينما كانوا يقطعون النهر الذي جفت مياهه . اذ انفصلت أربع سرايا محلية وبطارية كرن التي يقودها الكابتن شيكودي كولا (Sciccodi Cola) ووضعها تحت قيادة المقدم كورتيس وتمركزت على الجانب الايسر للدراويش . بينما راحت بطارية أسمرة توجه قذائفها نحو الوسط من حصن اغردات بامرة الكابتن بيانيشي (Bianchini)

بينما تحركت سريتان ، بقيادة القائد فادا الى المقدمة .

وقد حصل التصادم واللقاء عن ضفاف وادي انكييراي (Dimtai Inchierai) ، وهو أحد روافد بركة وقريب جداً من حصن أغردات .

وتقدمت السرايا الاربع مع البطارية الى أقل من كيلو متر واحد من الطابور الكبير للدراويش . وهناك اتخذت البطارية مواقعها ، وبدأت بفتح النيران ، بينما تقدمت الفرق الاربع وبدأت هي الاخرى باطلاق نيرانها .

كانت النيران موجهة مباشرة الى الدراويش ، فأخذت تجمعاتهم تتفرق ، الا انهم ازدادوا شراسة وضراوة وما لبثوا أن أغاروا على البطارية. وكانت حصيلة ذلك أن سقطت أعداد كبيرة من القتلى والجرحى غطت الارض، وتغلبت الاعداد الكبيرة من الدراويش على البطارية وتركتها قواتنا.

وهكذا بدا للدراويش أن البطارية قد هلكت ، وراحوا يطلقون صيحاتهم الوحشية بالنصر والفرح ، وبينما هم كذلك برزت فجأة من حصن اغردات قوة احتياطية صغيرة كان الكولونيل اريموندي قد وضعها فيه .

وبدأت سريتان مدعمتان بالفرسان ، الذين ترجلوا ، تهاجمان الجانب الايمن للدراويش بسرعة هائلة . وعندما حصل ذلك وظهرت هذه القوة ارتفعت الروح المعنوية لقواتنا ، فراحت تنتظم تحت نيران العدو وتسدد نيرانها نحوه بكل ما لديها من قوة وجهد .

الا أن الدراويش كانوا يقاتلون بضراوة دون أن يلتفتوا الى الفراغات التي كانت تحدث في صفوفهم أو يتخلوا عن مواقعهم تاركين البطارية الايطالية . على أن قوة اندفاع قواتنا والطلقات التي كانت تنهمر من اغردات أجبرت الدراويش أخيراً على التراجع ، وتم استرجاع البطارية بينما الدراويش في حالة انسحاب تامة . لقد بدأت المعركة في الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر ، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كانت قد انتهت تماماً .

وطاردت قواتنا الهاربين مسافة قصيرة ، ثم عادت وجمعت جثث الضباط الثلاثة والقائد الذين سقطوا في المعركة وتم نقلها الى اغردات مع سبعين بيرقا (اي اشارة عسكرية) ومدفعية انكليزية الصنع بالاضافة الى ١٥٠٠ بندقية كان العدو قد خلفها وراءه .

أما في بلدة مصوع فقد حدثني المحامي أركنتي (Archinti) ، وهو مدير مجلة (افريقيا الايطالية Africa Italiana) قائلا : ان الانتظار الحزين كان على أحر من الجمر ، لا سيما بعد أن علم أن الفرق كبير جداً في عدد القوات . وكانت البرقية الاخيرة للكولونيل اريموندي تشير الى ان موقع اغردات قد تم احتلاله وأخذت قواتنا تنتصر .

وبعد ذلك وصلت بعض البرقيات الاقل أهمية . ولكن منذ صباح الحادي والعشرين انقطعت الانباء . وكان الدراويش قد قاموا بقطع التلغراف وبالتالي انقطع كل اتصال . وكان الناس جميعهم قلقين في مصوع، لكن في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٢ ديسمبر (كانون الاول) وصلت من بلدة كرن برقية الكولونيل اريموندي ، مؤرخة في اغردات في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ٢١ ، وقد تضمنت الاخبار الاولى للانتصار، فاجتاحت الغبطة والافراح والحماسة بلدة مصوع . وفي لحظة واحدة كانت جميع المنازل قد رفعت الاعلام ، كما رفعت الشعارات الوطنية كل من السفن الملكية : كاريدي (Cariddi) وسحيتي (Saati) وحتى السنابيك الشراعية (Samboc) .

دعا الجنرال بارايري في يوم وصوله الى بلدة مصوع جميع الضباط والموظفين في المقاطعة الى قاعة القصر الحكومي . وبعد أن شكر لهم ، كممثل للملك في البلد الام ، تمنياتهم بالسنة الجديدة ، تحدث عن النصر في اغردات «الذي من شأنه أن يرفع من مكانتنا لدى السودانيين والاحباش، ويزيد من تماسك المقاطعة مما يسمح لنا أن نتقدم بالسلام ونحن صافي السرائر » ، وقال :

« في ايطاليا التي تمر بها الازمات الاقتصادية والمالية لا بد وأن يرفع هذا النصر من المعنويات ، وينعش الآمال بأيام أحسن قادمة .

« أنتم تعرفون أنني سافرت الى ايطاليا للمشاركة في انجاز المشروعات التي درست هنا بالمستعمرة بالاشتراك مع العديد منكم ، وهذه المشروعات تهدف الى تتويج النظام في المقاطعة وتجميله .

« أنني أتكلم عن النظام القضائي ، والنظام الجمركي ، والنظام الاداري . ومنذ لقائي الاول بكم حدثتكم عن ضرورة اختصار وخفض النفقات حتى الحدود الدنيا لها ، حتى لا نرهق كاهل المالية في الوطن الام من ناحية ، ولنبدد الاحتجاجات بان التضحيات التي يقدمها الوطن

الام لا تتناسب مع الفوائد المعنوية والمادية للمقاطعة ، مما يسيء الى الرأي العام . واننا اقتصدنا في كل شي » .

ثم تابع باراتييري حديثه معددا المجالات التي شملها الاقتصاد في النفقات فقال :

« ان الضائقة المالية تجتاح ايطاليا في هذه الايام ، لذلك ينبغي أن تكون النفقات والمصروفات اقل عن ذي قبل في المستعمرة . ونحن نرى ان تواجه المتطلبات باختصار الانفاق في الموازنة الموحدة ، والذي يشمل النفقات الادارية والمدنية والعسكرية . فلنختصر الانفاق على النواحي العسكرية بفضل الامن والاطمئنان التام اللذين يسودان البلاد ، ونحاول أن نزيد من حجم الواردات .

اننا ، وقد وصلنا الى بداية عام ١٨٩٤ ، نستطيع ان نلقي نظرة جريئة صافية على الطريق الذي قطعناه في سنة ١٨٩٣ : لقد كان الامن مستقرا تماما ولا يزال ، باستثناء عدد قليل من القراصنة وقطاع الطرق الذين هم من مخلفات الحروب والغزوات طوال السنوات الماضية ، وقد تم التعرف عليهم ، فشتت بعضهم ، وحكم على البعض الآخر ولا زال منهم من يقضي أيام سجنه المتبقية في جزيرة نخرة (Nocra) .

وطوال أيام السنة كانت القوافل الصغيرة تروح وتجيء من قلب الحبشة والسودان دون ان تتعرض الى أي أذى . وكانت الحقول تزرع في كل مكان ، حتى أن بعض القبائل البدوية بدأت تستقر . وصدرت الاحكام والانظمة التي هدفت الى القضاء على الرق والعبودية التي توارثتها المقاطعة منذ آلاف السنين ، بحيث اتجهت البلاد نحو الحضارة بتطبيق معاهدة بروكسل . ويمكنني أن أقول ان عهد المتاجرة بالرقيق قد ولى وانقضى في ارتيريا رغم اتساع البلاد ، وعلى رغم طول الشواطىء الارتيرية وقربها من الشواطىء العربية .

ثم تحدث الحاكم عن اشغال الطرق التي تمت او التي هي قيد الانجاز ، وعن بلدية مصوع واقامة مكتب السجل العقاري ، والمستشفى المدني . واختتم حديثة بقوله :

واخيرا ، لقد اختفت ظاهرة الجوع ، وتحسنت احوال السكان المحليين ، ومما يشير الى ذلك الغاء رسم استيراد الماشية التي تدر الكثير من الموارد على المقاطعة . وسوف استمر في عملي الذي بدأته ، والطريق

الذي سرت عليه ، مستمدا شجاعتي من صاحب الجلالة الملك ، الذي يقال عنه بحق ، انه مؤسس المستعمرة . وهو لم يدخر وسعا ، في العديد من المناسبات ، في أن يشعرني برضاه التام ومباركته لي فيما أقوم به ، ومعتمدا على الثقة التي منحني اياها رئيس مجلس الوزراء الذي له الفضل في نمو المقاطعة وازدهارها .

وانني قوي بفضل مشاركتكم لي ، ولي وطيد الامل بل والثقة الكاملة بان نرد الى وطننا الام بقدر ما اعطانا .

حتى اليوم الثاني من شهر يناير (كانون الثاني) ، لم يكن قد وصل الى مدينة مصوع أي من الضباط الذين اشتركوا في القتال . ولكن كان منتظرا أن يصل العديد منهم ، وبينهم العقيد اريموندي ، في اليوم التالي على حين كانت الاستقبالات الكبيرة تهيأ لهم .

وقد وصلوا ، فعلا ، في اليوم الثالث ، فكان يوما لا ينسى ابدا من أيام مصوع ، لا بالنسبة للضباط وللقوات المحلية المنتصرة في اغردات فحسب ، وانما بالنسبة لجميع الآخرين الذين حضروا الاستقبال المهيب .

وفي الساعة الثامنة والنصف ، وبدعوة من الحاكم وصل الى قصر القيادة الضباط غير العاملين واعيان المستعمرة والمسؤولون فيها مع العديد من السيدات ، وصعدوا الى الصالونات والشرفات التي تحيط بالقصر والمفروشة باجمل أنواع السجاد .

وكان الاعيان المحليون وبعض الزعماء بلباسهم المزركش ، يشكلون مجموعة متنوعة من الرسوم شيقة جدا .

وفي غضون ذلك تجمع في الساحة السفلى العديد من المواطنين من مختلف الاجناس والذين يسكنون في مدينة مصوع . بينما ذهب قسم آخر ليستقبل العقيد اريموندي مع القوات المقيمة في البلدة وشبان المدارس ، مما يشكل مجموعة من الشباب السمر الذين يرتدون الالبسة البيضاء .

وفي الساعة التاسعة وصل الى القصر صاحب السمو وهو دوق منطقة ابرفيتزي (Abrvzzi) في ايطاليا مع ضباط فولتورنو (Voltvrno) ثم بدأت المدفعية تشير الى اقتراب الذين اشتركوا في صنع النصر .

وكان الناس جميعهم ، من خلال الشرفات وساحة القصر ينظرون

نحو طريق حطملو حيث ينطلق الضجيج والمرح والالحان . ومن هنـاك ، وعلى مسافة دقائق معدودة لاح تقدم مجموعة كبيرة من الناس كانت اشبه بشريط ناصع متحرك .

وقد تقدم الموكب القوات المقيمة في بلدة مصوع التي خرجت لتلتقي بمن بقي على قيد الحياة من الظافرين . وهي قوات الشرطة والقناصة في افريقيا وجنود البحرية والمدفعية والفرسان والشؤون الادارية واطقمة البواخر . وتلاها الضباط وكتيبة محلية من القوات القادمة من اغردات .

أما الضباط فكانوا العقيد اريموندي والنقيبين : فردللي (Verdelli) وسبريافيكو (Spreafico) والملازمين : دي ماركي (De Marchi) وبافوني (Pavoni) .

وكان يسير في الكتيبة اثنا عشر جنديا يقرعون تسعة طبول كبيرة وثلاثـة صغيرة اخـذت من الدراويش ، ينبعث منهـا صوت تـام تام (Tam - Tam) .

ويتبع هؤلاء اثنان وسبعون جنديا وطنيا يحملون البيارق الكبيرة المأخوذة أيضا من الدراويش والتي هـي علامات النصر في المعركـة . وتلتصق العلامات والبيارق المذكورة على عدد من قضبان الخيزران التي ينتهي أحد طرفيها بحربة ، بينما ينتهي الطرف الآخر ببوصلة كبيرة ، من معدن التنك ، تحتوي على حصى صغيرة تطلق الاصوات لدى كل حركة . وهي على الغالب من القماش مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية . وقد كان أحد الاعلام ذا لون بنفسجي مصنوعا من الحرير المطرز بالذهب ، لانه علم أحد القادة المهديين الهامين . وعلم آخر ، هو الاهم ، من الحرير الاخضر وكان مع رئيس الدراويش الذي قاتل في بلدة المتا ، حين قتل الملك يوحنس (يوحنا) .

وكان جنودنا المحليون البواسل يسيرون ، فخورين معتزين ، وراء الرايات الطويلة وقد حف بالموكب جمع من المواطنين ، لا من سكان بلدة مصوع فحسب ، وانما من سكان المدن المجاورة لها ايضا .
وعندما وصلت قوات الحرس الى قصر الحاكم اصطفت في الجانب المطل على البحر ، وترجل العقيد اريموندي من فوق حصانه على الدرج ، فقوبل وهو يصعده بتصفيق منقطع النظير .

وعلى اعلى الدرج وقف صاحب السعادة الحاكم وصاحب السمو

دوق ابريتسي ، واحاط بهما مجموعة الضباط والمدعوون الذين اخذوا يتدافعون كي يستطيعوا رؤية المشهد بصورة أفضل .

وهبط صاحب المعالي باراتييري ليستقبل العقيد الباسل ، وليأخذه بين ذراعيه ، وعانقه وسط جو عام ومهيب ، وقد شحب لونه لشدة اضطرابه وتأثره .

وعزفت الموسيقى النشيد الملكي ، واخذ جميع الحاضرين يرددون بصوت عال : يعيش اريموندي ، يعيش الجيش .

وبعد ان حيا العقيد اريموندي الدوق . رافقه الحضور الى ساحة القصر مع ضباطه الذين اشتركوا في معركة اغردات . وحول جدران الساحة اصطف حاملوا اعلام الدراويش والحراب والطبول .

وبصوت مرتفع جليل راح باراتييري يهنىء المنتصرين باسم جلالة الملك .. فقال :

هذا شرف للعقيد اريموندي الذي عرف كيف يتصرف في الوقت المناسب فاعطى توجيهاته واتخذ مبادراته الجريئة في الهجوم باسم ايطاليا المقدس على الشفاه في القلوب . كما هو فخر وكرامة وشرف للذين سقطوا دفاعا عن القبائل ، التي هاجمها اسوأ اعداء الله والناس ، وهو فخر وشرف ايضا للضباط الايطاليين الذين عرفوا كيف يدربون الجنود الوطنيين ويبعثون في نفوسهم الثقة بالنصر وربح المعركة . وهو فخر وشرف ايضا للقوات الارتيرية المقاطعة .

لقد كانت التحضيرات للمعركة كاملة ، والنجاح مستحقا . وقد وجد أول من كان على خط النار ان المستعمرة باسلة ودفاعاتها جديرة بالثقة . ان موقعة اغردات فرضت احتراما على الاصدقاء والاعداء معا ، سواء في داخل المستعمرة أو خارجها ، وما كان الاستقبال لينجح ويكون مهيبا واصيلا لولا هذا النصر .

وانتهى الاحتفال الرسمي . وأخذ الحاكم يتحدث الى زعماء البلاد ، بينما كان الناس الملونون من كلا الجنسين في خارج القصر يعبرون عن حماستهم واعجابهم في صورة رائعة الالوان وكأنها لوحة زيتية . فالنساء ترقصن والجميع يمرحون ويهزجون على اصوات قرع الطبول ، بينما كنا نحن نحيط بالضباط الذين قاتلوا في المعركة وهم يقصون علينا مئات الانباء والاخبار عن سير القتال .

العقيد اركان حرب اريموندي رجل قد لوحت لونه الشمس ، ذو لحية سوداء ، أكمل السابعة والاربعين من عمره ، قوي ، جدي ومتواضع.

أما الضباط الآخرون ، فقد أتيح لي أن أتعرف على العديد منهم ، ولا سيما النقيب سالسا (Salsa) والنقيب سبريافيكو والملازم يافوني .

وكان النقيب سالسا ، وهو اركان حرب ايضا ، ذا طبيعة متواضعة كالرجال ذوي الشأن الحقيقي . وقد شرح مجريات المعركة فقال :

كنا حليمين في البداية ، مقدامين فيما بعد . وبعد خروج القوة الاحتياطية الصغيرة ، لم يبق في حصن اغردات سوى اربعة جنود للحراسة. لقد تساءلنا ، هل نترك الحصن فارغا ؟

وقلنا : نعم يجب ان نقوم بهذا الجهد العظيم . ولو كان القدر سيحمل الينا غير هذه النتيجة لما كان علينا ايضا الا ان نتقدم أيضا ونلقى حتفنا .

لقد كان الدراويش أكثر عددا من قواتنا ، وكان يمكن أن تغني هذه القوات لولا انه تقرر فورا شن الهجوم . بينما كان القسم الاعظم من الدراويش يعاني من العطش فلم يستطيعوا مهاجمة اغردات هجوما خاطفا.

وكانت مناورة الدراويش هي الطواف حول حصن اغردات من اجل قطع خطوط اتصالاته ، كما فعلوا من ناحية بلدة كرن حين اتلفوا خطوط التليفراف طوال بضعة كيلو مترات . وكان الدراويش يجهلون ان الحامية العادية للحصن قد تعززت في الايام الثلاثة الاخيرة ، فكانوا يعتقدون انهم لن يواجهوا غير مائتي مقاتل تقريبا ، لذا اندفعوا كالسيل يتقدمهم رؤسائهم . لكن الواقع كان غير ذلك . اذ ما لبثوا أن شاهدوا أنفسهم وقد هاجمهم الفان لا مئتا مقاتل . ورؤسائهم يسقطون قتلى في الهجوم الكاسح الذي شن عليهم . فقد كانوا يحملون الاعلام في المقدمة كما ذكر ، وهذا ما فرق صفوفهم القوية . وحين استأنفت المدفعية قصفها فروا هاربين .

ولو كان لدى الدراويش معلومات صحيحة لاختلفت مناوراتهم ، ولحاصروا الحصن بشكل مروحة مزدوجة ، وعندها ماكان ليسلم من قواتنا احد .

وزاد من تشويش الدراويش واضطرابهم حدث آخر لم يكن بالحسبان : فقواتنا لم تقاتل بشكل مربع كما يفعل الانكليز والمصريون عادة . وقد شرح ذلك احد الاسرى من جنود الدراويش قائلا :

أنتم الايطاليين لستم كالانكليز الذين يأتون وقد ارتدوا الالبسة الفاخرة جميعها ، ويطلقون جميعهم النار دفعة واحدة ، ثم لايتحركون ولا يركضون وراءنا . بينما انتم كالاقباط : تأتون وأنتم وسخون ، وتطلقون النار وأنتم تجرون وراءنا ، ولهذا فنحن نخاف الآن من الايطاليين .

والحقيقة ان جنودنا كانوا يندفعون على العدو ، يقودهم ضباطنا الشجعان القادرون . فيتقدمون حين احتدام القتال بسرعة خاطفة ، وهم يحملون البنادق المسددة الى الامام وهدفهم الاوحد هو خيول الدراويش. وكانوا يطلقون النيران وهم يركضون ، ويضربون الفرسان ثم يقفزون فوق الخيول ويركبونها عائدين بها الى السرايا .

كان الدراويش مزودين بالبنادق من طراز ريمنغتون الممتازة ، وكان جنودنا ، حين سقط جندي عدو ، يسرعون اليه ويأخذون بندقيته ثم يستعملونها بدلا منه . وحدث أن جرح احد جنودنا المحليين في صدره جرحا بالغا ، الا انه راح ينتزع البندقية من يد احد جنود الدراويش ، بشراسة ، وكان هذا سليما معافى .

لقد كان عدد بيارق جيش الدراويش ، وعدده حوالي عشرة آلاف ، نحو مئة وعشرة بيارق . ولا ريب ان استيلاء قواتنا على اثنين وسبعين بيرقا منها دليل كبير وواضح على أهمية النصر الذي احرزته . وهنالك ، اضافة الى هذه البيارق ، أشياء اخرى استولت عليها قواتنا هي الطبول وبعض النواقيس الخشبية ، وكمية من الحراب من اشكال مختلفة ، وكان لبعضها رؤوس معقوفة ، اذا اخترقت جسم الانسان احدثت تمزقا هائلا فيه . واستولت ايضا على بوقين من النحاس ، كتب على أحدهما ، وهذا شيء غريب فعلا ــ علامة بيليتي ميلانو (Pelitti - Milano) . وعلى مدفع واحد من صنع انكليزي لم يكن لدى الدراويش متسع من الوقت لاستعماله، وكانوا قد استولوا عليه من قوات هيكس باشا (Hiks Pascia) .

دام الصدام الضاري بين قوات الطرفين حوالي نصف الساعة ، وقعت خلالها الخسائر في قواتنا . وكان الضابط الاول الذي جرح هو الملازم مانجيا جالي (Mangia Galli) . فقد أصيب برصاصة خرجت من كتفه ، لكنه لم يشعر بها لشدة وطيس المعركة ، ثم أحس بها حين نبهه أحد ضباط الصف قائلا : « سيدي الملازم ، انظر لقد جرحت » . وعندما التفت شاهد كتفه ملطخة بالدماء ، فقال غاضبا : « يا له من جرح انه كبير حقا » .

لقد اطلقت قواتنا ثمانين الف طلقة ، بينما أطلق من الحصن مئتان وعشر طلقات . نشبت المعركة على بعد كيلو متر واحد من اغردات ، فجرحت من ثمة امراة واحدة كما قتل شاب واحد ، وقتلت ثلاث نساء اخريات بينما كن يحملن الماء بشجاعة فائقة الى جنودنا اثناء القتال . وكان بعض الدراويش يرتدون الدروع كالصليبيين في العصور الوسطى ، ولكن سقط العديدون منهم قتلى رغم ذلك . وكانت البطارية التابعة لقواتنا ، التي استولى عليها العدو اولا ثم استرجعناها ، تبعد عن الحصن نحو تسعمائة متر .

وبلغ متوسط ما اطلقه كل جندي من قواتنا نحو اربعين رصاصة . وقد وورى المائة مقاتل من قواتنا ، الذين سقطوا في المعركة ، في مكانها نفسه باحتفال مهيب كبير . على حين دفن الضباط الثلاثة والمساعد في اسفل الحصن ، وتركت اكثر من الف جثة لقتلى الدراويش تتفسخ فوق سطح الارض . ولم يحرق منها سوى جزء ضئيل وترك الباقي غنيمة للضباع والطيور .

وبعيد المعركة سلبت جثث القتلى ، وجردت مما عليها . فقد سرقت جزمات الضباط الايطاليين الثلاثة قبل ان تجمع جثثهم ، ونقل الافراد الآخرون الذين كانت جروحهم طفيفة الى مدينة كرن بيما ترك الآخرون في مدينة اغردات . كما ترك معهم طبيبان عسكريان للعناية بهم وهما : موزوتي (Mozzotti) وبوشينو (Buccino) ، ولم تجر عمليات بتر للجرحى وبلغ عدد الجرحى من قواتنا بالسلاح الابيض ثلاثة أو اربعة ، بينما كان الجرحى الآخرون بسبب اطلاق النيران .

وكان من بين المقاتلين في صفوف الدراويش عدد من الاحباش اسر في بلدة المتما . وتجري في دماء افراد هذه الشعوب غريزة حب الحروب، فهم يقاتلون مع أي كان ، اذ يكفي ان يكون هناك مجال قتال امامهم ، وهم يعتبرون المعارك وسيلة للتسلية (١) .

ولا تحب النساء ، اللواتي يرافقن المقاتلين ، الا الشجعان ، وقد حدث بعد الموقعة في اغردات أن أخذت نساء جنودنا يسألن الضباط هل أبلى أزواجهن بلاء حسنا اثناء القتال .

---

(١) تصور استعماري خاطىء . فالشعوب لا تقاتل حبا في القتال ولكن تدفع الى ساحات القتال بفعل القوى الطاغية المهيمنة على مصائرها او دفعا للاذى او دفاعا عن النفس .
(المترجم)

لقد كان النقيب مارتينيلي (Martinelli) قائد سرية محليـة ، ومجازا أثناء معركة اغردات ، وعاد الى افريقيا على ظهر السفينة البو (Po) معنا . وحين شاهده الضابط الذي حل محله سأله جادا : لماذا لم تعد من قبل ؟

وكانت البرقية الاولى ، التي أرسلها العقيد اريموندي من اغردات تحمل نبأ النصر ، قد وصلت الى كرن على نسختين بواسطة فارسين بسبب قطع خطوط الاتصالات .

وقد انطلق الفارس الاول من اغردات في الساعة الخامسة بعد ظهر الحادي والعشرين فوصل الى بلدة كرن في الساعة الواحدة والنصف قبل ظهر اليوم الثاني والعشرين . أي انه قطع ثمانين كيلو مترا في ست ساعات ونصف الساعة .

الفصل الثاني

رحلة الى أغردات

من مصوع الى سحاتي (Saati) وقندع (Chinda) واسمرة وكرن

بعد أن شهدت وصول العقيد اريموندي الى بلدة مصوع ومعه ضباطه البواسل ، بدأت سفري على طريق (بركة) وانا تواق جدا للوصول الى ميدان المعركة لاتمكن من رؤية بقاياها وآثارها .

وبغية توضيح القصة انقل فيما يلي مذكراتي مع تواريخ الامكنه التي مررت بها :

قندع : ٤ يناير (كانون الثاني)

انطلقت من بلدة مصوع قبل الساعة السادسة من هذا الصباح من محطة سكة الحديد الصغيرة التي تصل الى سحاتي المنطقة الشهيرة التي يبلغ طولها سبعة وعشرين كيلو مترا ، وهي الآن منطقة عسكرية ، ذات هضاب من الصخور البركانية .

وفي محطة حطملو ، وهي قرية من بضعة اكواخ ، وجدت الملازم دي ماركي (De Marchi) وهو أحد الضباط الذين اشتركوا في موقعة اغردات وكان متوجها الى حيث يقيم في بلدة سحاتي ، يقود وحدة الجنود الاولى المحلية التابعة للكتيبة الرابعة التي اشتهرت كثيرا أثناء القتال . فقد سقط منها سبعة قتلى وثلاثة عشر جريحا ، ومن بينهم ذلك الجندي الذي هب ليختطف من يد احد الدراويش بندقيته عندما نشب القتال . ان هذا الجندي الذي تحدى الموت في اغردات لا يزال على قيد الحياة واسمه سليمان سقى (Souleiman Seghé).

صعد جنود السرية الاولى ، وعددهم مئة وخمسون الى بلدة حططوا مستقلين بعض العربات المكشوفة من الدرجة الثالثة في القطار ، وكانوا

جميعهم مرحين ينشدون الاناشيد الارتجالية التي تتغنى بالنصر . وقد ألفوا انشودة تقول : « اتى اسود الصحراء ليقابلوا اسود الجبال » مستمدين معناها هذا من قول الخليفة لرئيس جيش الدراويش المهزومين: « تذكروا يا اسودي انني انتظر دائما ماء البحر » .

وقال الملازم دي ماركي ، وهو يحدثني عن بسالة جنودنا واخلاصهم ، أن مساعدي الضباط الذين قتلوا أثناء المعركة في اغردات ، قد وجدت جثثهم وهي فوق جثث رؤسائهم .

وقد انتابني شعور غريب عندما رأيت في محطة أم كلو (Mon Cullo) بعض السكان المحليين يرتدون ألبستهم التقليدية المؤلفة من وزرات يلفونها حول اوساطهم ويحملون التذاكر ليسافروا في القطار .

وقال دي ماركي ان هؤلاء المواطنين لم يتعودوا قط على استخدام السكك الحديدية ، بل أصبحوا يرسلون البرقيات . فبعد معركة اغردات كان العديد من سكان البلاد يرسلون برقيات الى بلدة كرن يسألون فيها عن أخبار الجنود .

وعلى مقربة من محطة دوقلي (Dogali) تظهر المرتفعات التي سقط فوقها خمسمائة قتيل من قواتنا بعد أن حاصرتهم وحدات الراس الولا . وينتصب هناك في مكان مرتفع عمود من المرمر الابيض وصليبان لتحديد المكان الذي سقط فيه الكولونيل دي كريستو فوريس (Decristo Foris) مع رجاله .

وصلنا الى بلدة سحاتي في الساعة السابعة والنصف ، وكان أمام المحطة بعض المواطنين يشترون ويبيعون الذرة والدجاج .

وفي سحاتي يوجد جنود المدفعية والتموين ، بالاضافة الى جنود الكتيبة الرابعة ، وذلك لاهمية هذه البلدة كمحطة رئيسية للسكك الحديدية . كما ان فيها حصنين انشئا قبل احتلال اسمرة وكرن عندما كانت هذه البلدة النقطة الامامية الاكثر تقدما لقواتنا .

وقد قمت برفقة بريني (Perini) ، أحد ضباطنا المثقفين ، بزيارة مكان تجمع وحدة جنودنا المحليين حيث يعيش كل جندي وعائلته في كوخ مخروطي الشكل مبني من القش . وتنتظم هذه الاكواخ في صفين يسكن أحدهما الجنود المسيحيون ويسكن الآخر الجنود المسلمون . ويمكن

القول ان هذا المكان قرية حقيقية يقف الحرس على مدخلها ، وهي دائما نظيفة جدا .

ويتلقى الجندي ليرة ونصف الليرة يوميا ، وهو مسؤول عن نفقته على غذائه وكسائه ، وتشكل كل سرية مجموعة يكون رئيسها نقيب ايطالي . ويتكلم جميع الجنود تقريبا اللغة الايطالية . لذلك فالضباط الايطاليون ليسوا في حاجة الى بذل الجهود المضنية لتعلم اللغات المحلية. اذ تنتشر لغتنا من ثمة في ارتيريا بسرعة فائقة ، حتى ان سكان البلاد أصبحوا يتكلمون اللغة الايطالية فيما بينهم أو حين يجتمعون بغيرهم .

ان مساعدي الضباط لا يتكلمون الايطالية وحسب ، بل أصبحوا يتكلمون هذه اللغة بلهجات رؤسائهم الذين تختلف لهجاتهم لانتمائهم الى مناطق مختلفة في ايطاليا . وقال المقدم فيولانتي (Violanti) ، قائد الكتيبة الرابعة المقيمة في سحاتي ضاحكا : ان أحد الجنود الذين حضروا مذبحة الدراويش في اغردات صرخ بلهجة نابولية محضة : لقد أصبح هؤلاء لحوما لصنع النقانق . كان خادمي ، ادريس ، جنديا سابقا في الخامسة والعشرين من عمره ذا شعر أجعد ينتمي لقبيلة بغوص (Bogos) ويبدو انه كان حاجبا لضابط من روما لانه كان يردد دائما كلمة « عارض » (Accidenri) . وهناك جندي آخر في سحاتي ذو ذكاء عجيب فقد تعلم بمفرده (دون معلم) قراءة اللغة الايطالية وكتابتها ، وقد اراني دفترا مليئا بكتاباته ذات الخط الواضح .

وهناك جندي آخر كبير السن يعمل في صياغة الصلبان والاطواق من الفضة . وبينما كنا نتفحص اعمال هذا الصائغ ، سمعنا ضجة وصوتا من المكان المجاور للسرية الاولى ، وكان عويل بعض زوجات سبعة جنود سقطوا قتلى في اغردات واخواتهم واقاربهم وهن يندبنهم ويعددن مزاياهم .

وعلى ذكر القتلى ، فقد رأيت على مائدة الضباط طفلة لطيفة عمرها سنة ونصف ، وجميعهم من حولها يعتنون بها ويداعبونها ، وهي من دم مختلط لانها ابنة ضابط ايطالي من أم محلية . وكان أبوها قد سقط قتيلا من فوق حصانه ، فراح زملاؤه يعتنون بطفلته مريم . ولم يكتفوا بذلك بل اعطوها دفتر توفير باسمها ، كان يودع فيه كل ما يزيد عن الحصص الثابتة التي فرضها الضباط للعناية بهذه الطفلة بينما تزوجت امها من جندي آخر .

لقد كان العديد من سكان البلاد يتقدمون ليحلوا محل الجنود القتلى

او الجرحى ، وقد تقدم ثلاثون شابا من بلدة سحاتي ليكونوا بدل الجنود السبعة الذين فقدتهم السرية الاولى في موقعة اغردات . وكان من بينهم (حسان ابراهيم) و (حكمت ايدر) وكلاهما من ارافللي (Arafali) ،وقد رافقا بوتيقو (Bottego) النقيب الباسل في البعثة الى جوبا (Guba) .

وبعد مرور عدة أعوام بات باستطاعة قواتنا المحلية ان تضم اليها ما تحتاج اليه من الجنود من ابناء الرجال العاملين معها ، فباتت تكفي نفسها ذاتيا .

غادرت سحاتي ، وبرفقتي ادريس واثنان يحملن حقائبي الصغيرة وعسكريان لحراستي . ولم تكن مرافقة الحرس لي ذات فائدة في مثل هذه المناطق المسالمة ، الا ان القادة يصرون عليها خوف تعرض المسافرين لايطاليين لمضايقات بعض السكان الفقراء .

كانت الطريق الجديدة التي تصل بلدة سحاتي ببلدة قندع ، والتي شقت منذ عام واحد ، جميلة وعريضة ومنحنياتها لطيفة . وما ان بدات سير حتى بدا لي ان حياة هذه المنطقة ستتغير ، فقد كنت التقي في اثناء الطريق بقطعان الاغنام والماعز والبقر . لقد بلغت درجة الحرارة الاربعين في الشمس ، وهذا طقس لطيف في هذه البلاد ، ثم جزنا أمكنة تكثر فيها الحجارة ، مغطاة بالنباتات الكثيفة ، كانت تعسكر فيها القوات التي قدمت اليها من دوقلي للاشتراك في حرب لم تقع . ثم صعدنا بين جبال دقدقتا (Digdigta) التي تكسوها الخضرة .

وقد أراني ادريس الجبل الذي كان الملك يوهنس (يوحنا) قد عسكر اسفله وقال لي : « عندما شاهد الملك يوهنس (يوحنا) البالونات الايطالية التي كانت تحيل الليل نهارا (وكان يقصد بذلك النور الكهربائي) فكر جادا في التراجع » .

وفي الساعة الثانية والنصف نزلنا الى وادي سبارقوما (Sabar Guma) . وهو سهل رائع الجمال في مثل هذا الوقت ، اذ تكسوه الخضرة ، وهو محاط بالاحراش المنحدرة . فتصورت نفسي وكأنني في ايطاليا لولا انني التقيت بقافلة من الجمال متجهة الى مصوع لتنقل الذرة منها . ورأيت بعض السكان شبه عراة وهم يفلحون الارض بمحراث بدائي جدا لا يختلف كثيرا عن المحراث الذي لا يزال يستعمل في بعض المناطق الايطالية كمنطقة صقلية مثلا .

ان الطقس في شهر يناير (كانون الثاني) هنا يشبه الطقس في شهر ابريل (نيسان) أو مايو (أيار) عندنا . وكما يحدث عندنا بعد الظهر في فصل الربيع ، شاهدنا اليوم في وادي سبارقوما قطعان الماشية ترعى في الظل والطيور تغرد ، بينما تسمع في كل مكان اصوات دندنة ودوي محببين . وفي الساعة الرابعة توقفنا بالقرب من كوخ ، يقع تقريبا في نهاية منطقة سهلية ، يرتفع فوقه علم ايطالي جميل ، ويافطة كتب عليها : مطعم ميلانو (Cantina) بينما كان في الحديقة قرد ضخم ربط بشجرة يداعبه ابن صاحب المطعم .

وعاودنا صعودنا في الساعة الرابعة والنصف من ارتفاع مئتي متر الى تسعمئة ، بين أحراش رائعة الجمال . وكنا أثناء صعودنا في هذه المنطقة الوعرة في مونقولو (MonGolo) نلتقي دائما بعمال كان بعضهم يحيونني وهم يرفعون ايديهم فوق جباههم قائلين : سلام . بينما كان بعضهم الآخر ، وبينهم النساء والاولاد ، يحيي بالطريقة العسكرية .

وفي الساعة السادسة مساء أخذ الظلام يخيم بينما كنا نسير وسط الاحراش والادغال المليئة بأصوات الطيور العائدة للمبيت والمختلطة بأصوات صراصير الليل . بيد ان هذه الانغام كانت تختلط أثناء الليل في هذه البقاع مع أصوات أقل شاعرية هي أصوات الضباع وابن آوى . ولذلك كانت الاكواخ التي نشاهدها أثناء رحلتنا في الطريق محاطة بالزرائب ومحمية بأكوام كبيرة من الاغصان الجافة ذات الاشواك منعا لاقتراب الوحوش المفترسة منها . وقبل الساعة السابعة مساء وصلنا الى قندع التي ترتفع تسعمائة متر ، فنزلنا في ضيافة نقيب احدى السرايا المحلية .

أسمرة ٥ يناير (كانون الثاني)

قبل أن أترك بلدة قندع في صباح هذا اليوم متجها الى مدينة أسمرة ، حضرت في وادي برسا (Baresa) تدريبات ومناورات قامت بها احدى سرايانا العسكرية المعروف عنها كثرة التدريبات العسكرية الحربية ، وكانت المناورة رائعة حقا . لقد كانت تدريبات الجنود هنا ممتازة ولا سيما في الجري ، فهم يتمتعون بطاقة غير عادية . ويكفي القول انهم يخضعون قبل تجنيدهم في صفوف الجيش لسباق في الجري لمسافة خمسين أو ستين كيلو مترا ، ثم يتم اختيار الاوائل من المتسابقين . ان هؤلاء الجنود يقطعون المسافة مابين قندع وسحاتي ، مثلا ، في ثلاث ساعات ونصف ، وهي فترة قصيرة جدا .

اما الضباط في قندع فيشتكون من استخدام الجنود في أعمال الطرق والحواجز ، وبذلك لايجدون وقتا للتمرين والتدريبات العسكرية . كما ان الجنود أنفسهم يتذمرون كثيرا من هذه الاعمال لانهم يعتقدون ان العمل العسكري عمل نبيل ورفيع ، ومن الوضاعة ان يعملوا كعمال يدويين عاديين . ان هؤلاء جنود شجعان وماهـرون ، لكن اذا خصص لتدريبهم ومناوراتهم العسكرية وقت أطول فسيصبحون أفضل من ذلك .

وغادرت بلدة قندع في حوالي الساعة الحادية عشرة يصحبني ضابطان كانا يريدان أيضا ان يسافرا الى اسمرة . كان طول الطريق مابين مدينتي قندع واسمرة حوالي سبعة وخمسين كيلو مترا ، وهي مريحة تماما لركاب العربات . الا اننا فضلنا الطريق القديمة المخصصة للبغـال والحيوانات ، وهي تحاذي وادي قندع الذي يبدو جافا في قسم كبير منه ، لكن لو حفرت الرمال بضعة سنتيمترات لتدفقت المياه غزيرة . والحقيقة ان ضفتي الوادي مكسوتان بالاشجار النضرة الكبيرة الحجم كأشجار المطاط والخروع .

وفي هذه المنطقة الجبلية من قندع تكثر الطيور من كل نوع ولون . وقد اكتشف كلب الطبيب الملازم ، الذي تبعني من قندع ، على اطراف الادغال عددا من الدجاج الفرعوني . وكانت أكثر الطيور غرابة تلك التي تسمى بالزمارة ، وتغريدها يشبه حقا لحن المزمار . وهناك ايضا اعداد كبيرة من الطيور المحلية الاخرى ذات المنقار المعقوف ، وبعض النعامات مختلفة الاشكال والببغاوات الخضر ، الى جانب اعداد كبيرة من الطيور الصغيرة ذات الالوان الزاهية . وتكثر في هذه المناطق الاخشاب ، وتتناثر في كل مكان جذوع الاشجار اليابسة ، وهنالك بين الاحراش النباتات الصمغية المتسلقة واشجار الصبارة .

ودخلنا بعد الظهر منطقة ذات مناظر افريقية محضة . فهنا ترتفع بعض الصخور اللماعة معدنية اللون ، والجبال المغطاة باشجار جميلة كبيرة ترتفع الى حوالي عشرة امتار ، واذا ماشققنا احد اغصانها خرج سائـل ابيض وكثيف يشبه القشدة . وقد جرت بعض المحاولات لاستخـراج المطاط منها لكن صرف النظر عن ذلك لوجود مواد سامة فيها ، تسبب للعاملين في تلك المهنة امراضا شتى . ومن المتوقع ان يستفاد من هذا السائل مستقبلا بدون اخطار لوفرة مثل هذه الاشجار في مناطق عديدة يطلق عليها (فربيون) أي (لبان مغربي) .

وفي طريقنا كنا نقابل جماعات من السكان المحليين ذاهبة الى بلدتي قندع ومصوع أو عائدة منهما ، أما للراحة والاستجمام واما لغسل اردیتها الفضفاضة في مياه قندع .

ومن السهل التعرف على النساء الحبشيات من اشكالهن وشعورهن المجعدة المطلية بالزبدة والممشطة على شكل ضفائر . أما النساء العربيات فيزين اصابعهن الصغيرة اليسرى بالخواتم المصنوعة من الذهب او الفضة وجميعهن يضعن في اعناقهن أطواق اللؤلؤ ويلبسن الخلاخل في أرجلهن بينما يضعن في ايديهن الاساور المعدنية . ويغطي الوشم جلود العديد منهن ولا سيما رقابهن وصدورهن .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر ، تسلقنا من وادي قبعاي (Filo Cabai) طريقا منحدرة جدا تمتد حتى الجزء العلوي من اربعة ربوع (Arba Roba) وقد اعترض طريقنا قطيع كبير من الابقار الحمراء لامعة الشعر ، كانت تنتقل من مرعى الى آخر يحرسها رجال مسلحون يحملون التروس والحراب والخناجر .

وبعد ساعة ونصف من الجهد الشاق امضيناها في الطريق المنحدر وصلنا الى ارتفاع ٢٤٠٠ مترا ، وبدأنا نتمتع بمنظر جبال اكلي قوازي (Ocudé Cusai) الرائعة . وهناك في المرتفع الشاهق سلكنا طريقا جديدة تلتف حول اربعة ربوع بين أشجار الزيتون البرية والغريبون تنتهي اخيرا عند ابواب الشيطان (Deliovolo Pont) حيث الحرارة معتدلة والهواء نقي عليل .

وعندما بلغنا القمة المسماة ابواب الشيطان ، اشار الملازم سبيكي (Spech) بأصبعه نحو بعض الادغال الواقعة فيما وراء الوادي ، الى الجانب الايسر ، وقال لنا : انظروا الى اسراب القردة . وفي المكان الذي اشار لنا اليه رأينا بالفعل حوالي خمسين من القردة طويلة القامة ، التي يكسو قسمها العلوي شعر أبيض ، وهي تغدو مسرعة بين الخيول والادغال . وعندما اطلقنا في الهواء طلقة واحدة كي نستمع الى اصواتها ، وهي تنذر بالخطر ، اسرعت في عدوها مطلقة العواء وكأنها كلاب . وقد ذكر لي بعضهم ان من المستحيل الحصول على جثة أحد هذه القردة حين يقتل لان باقي القردة تنقلها الى مكان بعيد . وبعد مجموعة القردة تلك شاهدنا قطعان الجمال في المرج . وكانت المناظر الطبيعية تبدو حقيقة

وكأنها مناظر طبيعية أوروبية . ولا يستطيع المرء ان يأمل في مشاهدة مجموعة اكبر من هذه الالوان المحلية المتوفرة هنا .

أما الطقس فلطيف بسبب ارتفاع المكان ، وهواؤه بارد وحرارة شمسه غير لافحة ، لكنها تحيل البشرة الى لون أحمر ثم تعود الى لونها الاصلي بعد أيام قليلة ، حين تتبدل ادمة الجلد . ولكن غالبا ما يبقى فوق وجنات الوجه وعلى أعلى الانف بقع سمراء تميل الى الاحمرار . وعندما اقتربت الساعة من الخامسة لمحنا من بعيد الحصن والاكواخ القديمة ثم هبطنا الى سهل بلدة اسمرة .

وفي بلدة اسمرة توجد سريتان من القوات المحلية التي اشتركت في القتال اثناء موقعة اغردات ومعها قائد الكتيبة الثالثة المحلية النقيب جاليا فو يقوم بمهمة ضابط برتبة مقدم . وهو أول من بدأ اطلاق النار على الدراويش ، فقتل من عنده ١٩ جنديا ، وجرح ٢٣ ، كما قتل النقيب فورينو والملازمون كوليا (Colmia) ولينكولن (Lincoln) وبيناتسي (Penazzi) .

وقد روي لي بعض الضباط الذين بقوا بعد المعركة على قيد الحياة ان عدد قواتنا ، حين مواجهة الدراويش لاول مرة ، كان حوالي ٧٩٦ جنديا وضابطا . وان مهاجمة اعداء أقوياء متفوقين عددا ، بهذا العدد الضئيل من القوات ، ضرب من الجنون . بيد انه لم يكن مفر من القيام بذلك ، لان الدراويش اذا حاصروا الحصن تماما ، وهو غير مزود بالمؤونة ، ثم قطعوا الاتصال مع بلدة كرن كما فعلوا ، لاستطاعوا ان يذبحوا قواتنا حتى آخر جندي فيها . وكان الدراويش رتلا كبيرا جدا ، ومن الغريب انهم لم يصلوا الى النقاط المتقدمة من المستعمرة بعد ان أهملوا القوات الضئيلة التي حشدت في اغردات .

وشرح لي بعضهم ، فيما بعد : « ان القيادة عرفت ، في الايام الاخيرة القليلة فقط التي سبقت المعركة ، وبشكل قاطع ان جيشا قويا جدا من الدراويش يتقدم باتجاه ارتيريا . وقد استطاع العقيد اريموندي بشق النفس ، ان يصل الى اغردات مع التعزيزات في هذا الوقت القصير . وكان من المعتقد أن الدراويش بعيدون في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عن ارتيريا بعد سكان كوكب المريخ . ولقد ابلت قواتنا في القتال بلاء حسنا ، الا ان الخطر الاعظم كان يكمن في ان يسحق سيل الدراويش الجارف قواتنا لقلة أعدادها . فقد كانت الحاجة ماسة الى كتيبة اخرى

على الاقل لسد العجز ، وهذا ممكن ، بتأخير انشاء طرق جديدة كبيرة . صحيح ان الطرق مراكب للحضارة ، لكن ما يلزم هنا ، ولعدة سنوات قادمة ، هي القوة العسكرية .

فقد اثبتت اغردات أن جيشا لجبا يمكن ، بين لحظة واخرى ، أن يغزو ارتريا . ومن يضمن لنا ان خليفة الدراويش لايعاود الهجوم علينا ، بعد عدة أشهر أو عام على الاكثر ، بجيش أكبر من الدراويش هذه المرة لكي ينتقم . ان سكان البلاد يعجبون ويفخرون بطرقاتنا الحديثة العريضة ولكنك رأيت وشعرت بنفسك أنه يفضل حتى اليوم السير على الطرقات القديمة من أجل سرعة الوصول كما فعلت اليوم . ان السيارات لما تستعمل هنا بعد ، لكن سكان البلاد ، اذا رأوا ان الطرقات تترافق مع زيادة القوات ، يعتقدون اننا أقوياء ويحترموننا احتراما متزايدا مستمرا . وقد تساءلت هل ينبغي ان تكون قواتنا محلية ؟ واجبت : نعم من الطبيعي أن تكون كذلك . ان سكان البلاد وحدهم قادرون على المقاومة فترة طويلة جدا تحت وهج الشمس الحارقة . ثم انهم لا يسأمون طريقة الطعام فيأخذون يهيئون الطعام وكل شيء بأنفسهم . أما الجنود البيض فأنهم يطلبون بعض الاشياء عندما يريدون أن يتحركوا . وهم يشتكون على الاقل من احذيتهم المهترئة الممزقة ، وينبغي تزويدهم بكل ما يطلبون كما لو كانوا تلاميذ في كلية .

ورأيت هنا ، اضافة الى الضباط قادة السرايا المحلية ، بعض ضباط المدفعية الذين اشتركوا في موقعة اغردات ، وقد كان لهم الفضل الاكبر في النصر الذي احرز فيها . كانت الطلقة الاولى التي اطلقتها المدفعية من فوق الجبال على الدراويش مسددة تسديدا مباشرا عليهم . فقد ارتفع صراخ فزع انتقل من أول الرتل الكبير حتى نهايته . وكانت تلك الطلقة بعد الضربة التي وجهها الدراويش ، عندما التفوا حول المكان واتجهوا نحو بلدة كرن ليقوموا من ثم باجتياح البطارية الهائلة . وقد عجب الاسرى من الدراويش من مدفعيتنا حين شاهدوها بعد المعركة ، وتساءلوا كيف ، وهي بهذا الحجم الصغير ، يكون لها هذا الاثر الكبير ؟ . كان الجنود الدراويش يخشون قنابل سكرابنل (Skrapnel) ويقولون : « كانت هذه القنابل تصل الى ارتفاع الراس ، ثم تنفجر وتحدث المذبحة » .

وتعترف قواتنا من ناحية اخرى ، بأنها الآن مسرورة جدا بالنصر المشرف ، بعد أن كان أملها به غير كبير . وتقول ان الدراويش كانوا بعدد

الرمل ، لكنها تتشكى بشدة من البنادق القديمة جدا التي بعثت بها حكومتنا اليهم ، على حين كان الاعداء مجهزين بأحدث الاسلحة . ومسألة السلاح الفاسد هذه سوف أتحدث عنها في كل مكان لنا فيه قوات . ويبدو لي انه لن يمضي طويل وقت الا وتبدأ عملية تبديل هذه الاسلحة القديمة . وفيما يلي بعض الحكايات التي سمعتها :

في اغردات يعتني اطباؤنا بالحرس من قواتنا فقط ، بل يعتنون ببعض الدراويش ويساعدونهم . وهذا أمر جديد في نظر سكان هذه البلدان ، وخلق انطباعا كبيرا لدى المواطنين . وقد قال احد الشيوخ : « ان الله يساعدكم لانكم طيبون » . وهذا اليوم أراني نقيب قفصا مليئا بالعصافير المحلية الظريفة ، وقد وقف فوقه عصفوران طليقان . واقترب النقيب من القفص بتؤدة وحذر وهو يقول : انتظروا أحاول أن امسكهما بيدي . فقال ضابط آخر سيسهل عليك ذلك اذا وضعت قليلا من الملح فوق ذنبيهما . فانطلق على الفور أحد الجنود المحليين ، دون أن يعرف لم سيستعمل الملح ، واحضر مملحة . ان الجنود هنا طيعون يمتثلون دون تردد للاوامر .

ويلجأ السكان هنا الى محاكم القضاء العسكري ، ولا يستعين المدعى عليهم بالمحامين . وهم يقولون لمن سيدافع عنهم : أنت صديق من يحكم علي ، فكيف تتوقع أن اعترف لك بكل شي ؟ آه ! لا سادافع أنا عن نفسي .

ـ بلدة عد تكليز ، ٦ يناير (كانون الثاني) :

تبعد مصوع عن قندع حوالي ٦٧ كيلو مترا منها ٢٧ كيلو مترا من خط السكة الحديدية بين مصوع وسحاتي . وتبعد قندة (Chinda) عن أسمرة ٣٥ كيلو مترا ، وأسمرة عن عد تكليز ٣٧ كيلو مترا ، وتكاد هذه الطريق أن تكون كلها جبلية . وقد قطعت اليوم هذه المسافة الاخيرة لكن لابد للوصول الى اغردات من أن أقطع ايضا ٥٤ كيلو مترا بين عد تكليز وكرن ، و ٨٢ كيلو مترا بين كرن وحصن اغردات الذي تسمت بأسمه المعركة . وهكذا لا بد من قطع ١٣٦ كيلو مترا .

قبل الساعة الثامنة من هذا الصباح انطلقت من أسمرة ، فاجتزت سهلا مرتفعا خلا تماما من كل عشب . فقد حصدت اعلاف المواشي والدواب في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) المنصرم . وحين ابتعدت عن

القرية الضخمة امبادرهو التي تقع الى يمين الطريق كان في الناحيةاليسرى الاحجار الكلسية ، ثم السهول التي تتناثر فيها الحجارة السوداء . وجميع السكان هنا من المزارعين ومربي الماشية .

ونزلنا من بلدة اسمرة بطريق منحدرة جدا ، ثم مررنا ، بمنطقة كرنشيم (Carnescim) الزراعية المسالمة التي ترويها **بعض جداول المياه** النقية التي يمكـن اجتيازها سيرا على الاقدام . وعلى مقربة من أحد هذه الجداول رأينا حيوانا طريفا ، كان ابن آوى ، وقد توارى بين الاعشاب المرتفعة حين رآنا .

كانت الاشجار تزداد عددا وكثافة كلما تابعنا سيرنا ، وعلى جانب الطريق رأينا شجرة جميز ضخمة تدلت اغصانها كالمظلة . واسترحنا فترة قصيرة ، في الساعة الحادية عشرة ، بين أشجار الصفصاف ، لتناول طعام الفطور . وكانت درجة الحرارة لاتتجاوز السادسة والعشرين . ثم تابعنا السير ، فدخلنا منطقة ديمبزان (Dembesan) الجميلة الغنية بالاشجار والحقول المزروعة . لقد كان الوقت خريفا في هذه البقاع بينما كان الربيع يخيم على سهول سبارتما البعيدة .

وقد شعرت بالغبطة وأنا أسير بين أشجار الزيتون البرية ، وبين أشجار الطلح وأشجار الراتنج والغربيون التي تزينها الـورود الحمراء والصفراء . ووصلت الى بلدة (عد تكليز) قبل الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهي قرية يقطنها حوالي ستمئة نسمة ، ومركز منطقة ديمبزان التي تعد حوالي خمسة آلاف نسمة . وتقيم فيها وحدات القوات المحلية بقيـادة النقيب كـوتا (Gotta) والملازمين بودريرو (Bodrero) وفولبيشيللي (Volpicelli) . وقد خسر النقيب كوتا في معركة اغردات اربعة عشر قتيلا وثلاثة وعشرين جريحا . وحين قتل بغله برصاصة ، في بداية القتال، تقدم احد الجنود من الشؤون الادارية وقال له : سيدي النقيب خذ بغلي. وما ان امتطى كوتا البغل الثاني ، حتى سقط ذلك الجندي جريحا . وقد أصيب بغل الملازم فولبيشيلي بجروح بالغة مميتة .

وكان فوق سرج بغل النقيب كوتا قبعة جديدة ملتصقة به لها ثلاثة أشرطة . وقد تناولها أحد الدراويش أثناء الفوضى ، ووضعها على رأسه ولما قتل ذلك الدرويش اعيدت القبعة الملطخة بالدماء الى صاحبها الذي لايزال يحتفظ بها على سبيل الذكرى . ولدى كوتا أيضا قبعة غريبة كان يرتديها أحد رؤساء الدراويش وهي من الحرير مختلف الالوان مطرزة

بالذهب ، وشكلها عجيب وقبيح ، لا ينقصها سوى أربعة اجراس لتبدو كقبعة مهرج في العصور الوسطى .

أما ملازما السرية ، فيحتفظ كل منهما ببندقية جيدة وبحربة طويلة جدا ذات شفرة عريضة ملطخة بالدماء ، وبحربة مبطنة بجلد الثعابين كعلامة للنصر . وقد غنمت جميعها من الدراويش .

ويقطن الضباط ، وثلاثتهم فقط من اصل ايطالي ، في بلدة عد تكليز في ثلاثة اكواخ مستديرة ، جدرانها سميكة وارضها من التراب ، وسقفها من القش على شكل مخروطي حسب النمط المستعمل في البلاد . وأمام بيت الملازم فولبشيلي جلد نمر رائع ، تركه يجف ، وكان قد قتله في اليوم السابق . وتمتلىء مقاطعة ارتيريا بحيوانات مفترسة من جميع الفصائل .

وبينما كنت في ميدان الجنود ، وهو كأمثاله في قندع وسحاتي واسمرة ، وصل الى بلدة كرن عسكريان محليان جريحان يركبان على بغلين في طريقهم الى بلدة اسمرة . كان الاول جريحا في رجله والثاني في فخذه ، لكن الجرحين كانا كبيرين والجنديان رغم ذلك رفيعا المعنويات . ان هؤلاء الشياطين لايحسون بالآلام ، وحين تجرى لهم عمليات بتر ، ينظرون الى السكين دون اكتراث ولا يبدون حراكا .

وفي مناسبة الحديث عن الحرب أذكر أن اذن احد الجنود قطعت بضربة من حربة في معركة اغردات ، فقال له أحد الضباط اهتم بجرحك لئلا يبقى ندبة تظل مدى الحياة . وأجاب ذلك الجندي : ان هذا خير ، وسيرى الجميع انني لا آكل خبزي بالخيانة .

لقد خصص لصالة الطعام ومكتب الضباط أجمل بناء في البلد . وهو منزل مستدير الشكل كان يسكنه وجياش حدقو أمبسا (Aegiac Adgu Ambessa) قبل أن يصبح رئيسا لوحدة من قواتنا تضم أربعمائة بندقية . لقد كان زعيم بلدة عد تكليز واستخدم في بناء هذا المنزل جميع سكان البلدة طوال عام كامل ، مجانا بالطبع ، باستثناء بعض ضربات العصي على الارجل . وفي جميع الجدران دق العديد من القرون لتكون مشاجب لتعليق الثياب .

كان السوط والعصا يستعملان كثيرا في هذه المناطق قبل الاحتلال الايطالي ، ولا يزالان يستعملان اليوم كأفضل اداة فعالة لتقويم الجنود حين يرتكبون الاخطاء الكبيرة . بيد أن السوط لم يعد يستعمل الا في

الحالات النادرة والمناسبات القليلة ، رغم ان السودانيين والغالا وغيرهم يفضلون عشرين او ثلاثين ضربة سوط على انقاص اجورهم (*) . لكن الاحباش وحدهم الذين يتحسسون من ضربات السوط ، بسبب كبريائهم ، لا لما تسببه هذه الضربات من آلام .

كان بعض الضباط الذين قدموا من ايطاليا يحملون مشاعر أوروبية (*) في البداية ، وكانوا ضد استعمال السوط في العقاب . الا انهم بدلوا رأيهم هذا بعدئذ بسبب شكاوي الضباط المحليين الذين يقولون ان غرس النظام والتربية بدون استعمال السوط في الزمان والمكان اللازمين لهو ضرب من المستحيل . وقد قيل لي ان بعض الجنود يرفضون هذا العقاب ، لذلك لا يستخدم معهم الا في الحالات الاستثنائية . اما الجندي المحلي الذي يعرف انه يستحق الضرب بسبب ما اقترفه ، فانه يحيي الضابط بعد العقوبة ويذهب طليقا اكثر رضا مما لو سيق الى السجن . وسيكون شيئا محببا ، وهو ما نتمناه ، ان يزول هذا القصاص البربري مع تحضير الجنود ، وهو ما يحدث بسرعة ، وهو سيزول حتما بموجب الانظمة العسكرية في ارتيريا .

يتلقى الضباط المحليون خمس ليرات في اليوم ، وهو أجر ممتاز في مثل هذه البلدان . بيد ان العادة السائدة بين هؤلاء الا يوفروا شيئا منه ، اذ ان لدى كل واحد منهم عددا من الخدم .

ان الاصابات التي نزلت بالجنود في موقعة اغردات ابكت أقارب المصابين هنا طوال ثلاث ليال حسرة واسى ، ثم ذبحت الثيران ، لتحضير طعام المأتم لهم .

ويقوم ضباطنا هنا ، باعمال القضاء بالاضافة الى قيادة الجنود وتهيئة المصورات والخرائط الطبوغرافية وشق الطرق وبناء البيوت ، ويرأسون عمليات التوزيع السنوي للاراضي . وعلى ذلك فهم يعملون من أجل سكان القرية كافة ، وهؤلاء بدورهم يحترمونهم ، فيستشيرونهم ويلجأون اليهم في شتى امورهم ، حتى عندما يتزوجون ، او عندما يريدون شراء ثور .

(*) هذان القولان صورة عما يردده المستعمرون عن الشعوب المستعمرة .
(المحرر)

أن طعام الضباط ، الذين يعملون في أمكنة بعيدة كهؤلاء ، مقبول ، لكن النبيذ الايطالي الذي يأتون به من بلدة مصوع يكلفهم غاليا الا اذا تعودوا شراب الطجى (Tec) المحلي المخمر المحضر من العسل . وفي المرحلة الاخيرة من السير الى اغردات تحتم على الضباط والجنود أن يعانوا من الحرمان والعزلة . وكان طعام غذاء الكابتن (كوتا) والملازم فولبيشيلي يوم عيد الميلاد قطعة من الخبز اليابس وعلبة من اللحم المحفوظ ثمنها اربعون سنتيما ، وقد ظلوا عشرة أيام دون ان يتمكنوا من خلع أحذيتهم .

ويبدو أن الدراويش ، حين ينتصرون ، يقطعون رؤوس جميع الرؤساء البيض . والحقيقة ان رأس بروفيلي ، مسؤول الشؤون الادارية قد وجد مفصولا عن جسده ، على أن رؤوس الضباط الثلاثة الذين قتلوا لم تقطع ، وذلك على الغالب بسبب هزيمة الدراويش .

ويعيش حاليا في بلدة اسمرة الراهب بونومي (Bonomi) الذي هرب من السودان منذ ست أو سبع سنوات خلت ، حيث سجن فترة طويلة مع بعض الراهبات الايطاليات . وهو يعمل خادما للكنيسة ، ويدير في الوقت نفسه مدرسة . وفي جميع المراكز هنا تجد الرهبان والكهنة السويديين والفرنسيين .

سأنام هذا المساء ، ولاول مرة ، في منزل افريقي يستعمل عادة مأوى للضباط أثناء مرورهم في المنطقة . ان جدرانه مطلية بالاسمنت وسطحه من القش على شكل مخروط ، وأرضه من التراب ، وله باب صغير ارتفاعه نحو متر ونصف المتر . وبينما كنت اخط هذه المذكرات فوق السرج الذي استخدمه طاولة كتابة سمعت أصوات أبناء آوى تعوي وتصرخ حول القرية ، فبعث هذا النشاط في البيت . ماذا في البيت . ماذا في السطح ؟ هل هي فئران تقرض ؟ أم أنها طيور اتخذت من طبقة القش الغليظة التي تغطي البيت الذي أرقد فيه مأوى تلجأ اليه في الليل ؟ لست ادري ! لكن من المؤكد انني ، بعد أن قطعت المسافات الطويلة اثناء النهار ، سأنام نوما عميقا حتى لو كنت في وسط بطارية مدفعية تطلق قذائفها .

— كرن في ٨ يناير (كانون الاول) —

الطريق ما بين عد تكليز وكرن بديعة وجميلة المناظر . وقد سافرت من بلدة عد تكليز قبيل الساعة السابعة من صباح أمس . وما ان تركت

اكواخ القرية ومنازلها حتى وجدت نفسي في منطقة اشجار السرو . وكانت تغاريد آلاف العصافير من جميع الالوان والاجناس تنطلق بين أغصان شجيرات الياسمين التي نمت على طول جانبي الطريق . بينما الببغاوات الخضر تطلق أصواتها من فوق أشجار الفربيون ، واليمامات تهدل فوق أشجار الحماط ، وطيور المزمار الفردة تعلو اصواتها . وانضم عدد آخر من الطيور والعصافير التي لا أعرف اسماءها الى الجوقة . وظهرت على أغصان الاشجار عناقيد الاعشاش التي بنيت على شكل الاكياس الصغيرة .

وعلى مسافة بضعة كيلو مترات من بلدة عد تكليز وجدت أشجار (بوعباب) (الـ Bo Abab) الغريبة التي تتزايد باستمرار كلما تقدمنا الى الامام وتبدو وكأنها الفيلة وهي واقفة ، وترتفع شجرة فوق اخرى ، ولها جذوع ضخمة كالابراج .

يحمل أغلب المارة الذين يجوبون الطرقات في هذه المناطق الحراب ، كما يحمل الناس عندنا مصابيح الكاز . ويحمل بعضهم ، بالاضافة الى الحربة ، الترس والخنجر ذا القبضة على شكل صليب . ويغطي رؤوسهم شعر كثيف يطلى بنوع من الزيت لحماية الرأس من وهج الشمس . اما شكل تسريحة الشعر فهي مختلفة : فهناك من يصفف شعره على شكل **دائري** ، ومن يترك خصلة كبرى في مقدمة الرأس وخصلتين صغيرتين على الجانبين .

وعندما يقترب المرء من الاطراف الحراجية للجبال وينحدر في الوديان يجد الحيوانات الكبيرة ، فلا يعير الحيوانات الصغيرة والطيور ، كالحمام واليمام ، أي اهتمام . ويستطيع المرء ، دون أن يترجل من على ظهر الحصان ، أن يصيد طير الحجل رائع الجمال كبير الحجم كالدجاج ، والحسون . وقد اصطدت هذا الصباح بعض الحساسين مفتتحا بذلك باكورة صيدي في افريقيا . ثم قتلت بعض الطيور الكبيرة ذات المنقار المعقوف . ولكن ما يؤسف له عدم وجود اناس هنا يجيدون تحنيط الطيور .

وتوقفنا قليلا لنستريح في ظل شجرة هائلة من الجميز يقوم الى جانبها مطعم يوناني . وكان نحو خمسين ولدا يلعبون في روضة القرية المجاورة المسماة ميلا برعد (El Beret) .

وبينما كنت أستعد لتناول فطوري ، شاهدت أحد قادة الشرطة

برافقه شرطي وجندي وضابط وبينهم شاب اسود رائع الجمال مقيد كأنه سجين ، وكانوا يمتطون البغال قادمين من بلدة كرن .

وعندما وصلوا الى تحت شجرة الجميز مد خادم حصيرا على الارض، وساعد الشرطي والجندي الشاب الاسود على النزول من فوق السرج ويده اليسرى مشدودة الى عنقه . وترجل هذا الشاب الذي لا يزيد عمره على خمسة وعشرين عاما من فوق البغل ، وجلس فوق الحصير محتبيا على الطريقة العربية . كان جادا رصينا لم ينبس ببنت شفة . ثم وضع له خادمه أمامه قصعة معدنية مليئة بالحليب ، فراح يضع فيها بعض اقراص الانجيرا (Enghera) وهي بلون الشوكولا مصنوعة من الطحين والذرة وتشبه فطيرة مهروسة ومستديرة كالتي تصنع عندنا من الطحين والكستناء .

وحين جلس الشرطي بجانبي يتناول طعام الفطور سألته من يكون ذلك الشاب الاسير ؟ فأجابني انه الامير احمد دكار (Ahmad Daccar) الذي اسر في معركة اغردات ، وان يده اليسرى ثقبتها رصاصة . ودفعني حب الاستطلاع الى أن سألت : والى أين تقودونه ؟ فأجاب الى اسمرة ، ومنها سينقل الى بلدة مصوع ، ويعتقد انه قريب خليفة الدراويش أو ابن أخيه . ولكن لم يتم التأكد من ذلك بعد ، لانه لا يقول اي شيء . وعندما استجوب في بلدة كرن في البداية قال انه كان يقود ١٢٠٠ رجل ، ثم ٨٠٠ رجل . وقد اعترف ان الدراويش كانوا ينوون احتلال مستعمرة ارتيريا كلها حتى بلدة مصوع . فسألت : وهل تحمل كل هذا السير وهو مصاب بهذا الجرح ؟ فأجاب الشرطي : عولج بذكاء وعناية هذا الصباح أيضا ، قبل ان ننطلق من بلدة كرن .

واقتربت من الامير ، وكان وسيم الملامح اجرد الوجه ماعدا شعرا قليلا في نهاية ذقنه يلبس اللوب (DOB) ، وهو ملاءة يتقن سكان هذه البلاد زخرفتها وتحضيرها . لكنه كان يرتدي أثناء القتال ثوبا آخر تركه في بلدة كرن .

وقد سألته عن طريق خادمي والمترجم ادريس هل يعاني من جروحه، فأجاب باللغة العربية كلا . ثم سألته هل هو مرتاح لمعاملة الايطاليين ، فخفض عينيه السوداوين المتحركتين ، ثم قال نعم . وصرخ احد الجنود الحاضرين : هل تستطيع ان تخبرنا كيف ستعاملون احد الايطاليين اذا سقط بين ايديكم ؟ وهل ستعاملونه كما نعاملك ؟ فابتسم الامير ابتسامة

ساخرة ولم يجب . فسكت أنا ايضا ولم اوجه اليه اية اسئلة اخرى لان قائد الشرطة قال لي انه يرفض ان يجيب على اي سؤال . فقد رد على الضباط الذين استجوبوه في بلدة كرن : ماهي كل هذه الاسئلة ؟ اما انتهيتم من استجوابي ؟ وسئل ماذا يتوقع من الايطاليين ، فأجاب : ربما أطلقوا الرصاص علي . واذا فعلوا ذلك فلن تصبح ايطاليا أكبر ولا أصغر مما هي عليه الآن . وكانت البطارية التي اشير اليها من قبل على وشك أن يستولي عليها الدراويش بقيادة هذا الامير .

بدأنا السير في الساعة الثانية عشرة والنصف . وكانت درجة الحرارة ٣٥ تحت أشعة الشمس ، اما النباتات التي كنا نراها اثناء مسيرتنا في هذه الرحاب فكانت أقل نضرة . وكانت أشجار الريباس هي الاكثر انتشارا في هذه المنطقة وقد اكتست بأزهارها الصفراء العطرة ، كما تكثر أشجار البوعباب ايضا .

واجتزنا وادى عنسبه (عين سبأ An SEBA) بعيد الساعة الثانية، وكانت درجة الحرارة ٢٤ درجة فوق الرمال وعلى ارتفاع ١٣٥١ مترا فوق سطح البحر . وفي الساعة الرابعة قطعنا منطقة السهول المرتفعة الجرداء تقريبا ووصلنا الى قرية شاهدنا بجوارها قبورا مغطاة بكميات كبيرة من الحصى على شكل مربع أو مستدير وحقولا من الذرة . ووصلنا في الخامسة الى كرن ، البلدة الشهيرة التي يطلق عليها جوهرة الصحراء ، وهي مركز المنطقة التي يديرها العقيد كورتيزي . وفوق الهضبة قلعة أو حصن ، بينما تنتشر تحتها ميادين تدريب الجنود ، وقرى السكان ، والسوق التي يؤمها الناس باعداد كبيرة ، والمنازل القليلة المحاطة بالاسوار للقيادة والضباط ، والثكنات العسكرية .

ان اول ما قمت به هذا الصباح في كرن كان زيارة جرحى معركة اغردات ، فقد احضروا جميعهم تقريبا الى هنا . وقد بدأت بزيارة الضابطين الجريحين الملازم جيوفاني بريزيو من الكتيبة الثانية ، والملازم ميشيل مانجياجالي من الكتيبة الرابعة ، وهما في غرفة واحدة في منزل قيد البناء . وكانت ساق الاول اليمنى مصابة برصاصة بينما اخترقت كتف الملازم الثاني طلقة اخرى ، والاثنان في تحسن مستمر ، وقد أخذا يجلسان ويأكلان ــ بشهية طيبة ــ على مائدة الضباط .

وكان الملازم مانجياجالي قد سقط جريحا في بداية المعركة ، بينما جرح الملازم بريزيو في نهايتها خلال المطاردة . بيد ان أحدا منهما لم

يشعر بأنه جرح ، وارتاب الملازم مانجا جالي فقط حين أحس أن يده اليسرى لا تقوى على مسك عنان الجواد . أما الملازم بريزيو فقد بقي نصف ساعة بعد ان جرح ، على ظهر حصانه ولما ترجل شاهد حذاءه الايمن مليئا بالدماء . وقد تمت معالجتهما جيدا بالمواد المضادة للجراثيم فلم ترتفع درجة حرارتهما . ثم نقلا من اغردات الى كرن بعدخمسةأيامن المعركة ، على عارضتين ، وكان يرافقهما الكابتن الطبيب بمبينللي (Pimpinelli) الذي يرعاهما رعاية الام . ويكفي القول بانهما لم يشعرا باية حركة خلال السير بهما حتى انهما ناما نوما لذيذا اثناء ذلك .

والاثنان من القدماء في افريقيا ، فالملازم بريزيو قدم الى المستعمرة في نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٨٧ ، بينما قدم الملازم الآخر اليها في اوكتوبر (تشرين الاول) من عام ١٨٨٨ . اما الجنود المحليون الذين سقطوا في اغردات ونقلوا الى كرن فكان عددهم ٩٧ عنصرا . وقد بقي في اغردات عدد آخر . وقد مات جندي واحد من الجرحى في كرن نتيجة بتر احدى ساقيه ، والتحق ٣٥ منهم بوحداتهم في اسمرة وعد تكليز وسحاتي وغيرها .

أما الباقون ، وعددهم ٦١ جنديا فلا يزالون هنا في كوخين : في الاول منهما ، وسقفه من القش وجدرانه من الحصر ، ٤٤ جنديا منهم فقط اربعة أو خمسة مصابون بكسور وحالتهم صعبة . وهم شباب مابين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من عمرهم ، ومعنوياتهم على رغم جراحهم عالية ، ويأكلون ويشربون مرحين . وبينما كنت اقوم بزيارة لهم ، كان ملازم طبيب يعالجهم يساعده ضابط صف ، وعسكريان وراهبتان . أما الجنودالمصابون بجروح اخطر ، وعددهم ١٧ ، فيقطنون في كوخ اصغر مغطى بالقماش . وكان من بينهم جبرازقي قاتي (Gabrefgho Cate) وهو مصاب بكسر في ساقه اليمنى بسبب رصاصة وبجراح في وجهه من ضربة حربة . ولما دخلت الى الكوخ كان يرقد ساكنا . وهنالك ايضا محمد ابراهيم من جنود الفرسان ، وساقه مكسورة وابراهيم محمود مكسور الساقاليسرى، وجبرئيل سالو (Gabrel Saalu) مكسور الساق اليسرى وجريح بيده اليسرى ، وهم جميعهم في حالة تحسن . بينما كانت جراح الآخرين المتبقين اقل خطورة وسيشفون عاجلا ، لكن لابد ان يبقى بعضهم مشوها أو مقعدا . ولما سئلوا عن حالتهم أجابوا انهم قد عولجوا وتغذوا بشكل لم يكن يتوقعونه ابدا .

اما الدراويش الاسرى الذين نقلوا الى كرن بعد معركة اغردات فكانوا ١٩٧ ، منهم ٥٤ جريحا . وقد شفي ثمانية منهم ، بينما يعتنى بالباقين داخل كوخ كبير . وذهبت لرؤيتهم ، فكان معظمهم من السودانيين أقوياء الابدان سود الجلود ، غلاظ الشفاه ، والباقون من قبيلة البقارة (Baggara) ومن قبائل اخرى والوانهم أقل سوادا . ان ستة او سبعة منهم في حالة خطرة ، وقد كسرت بعض اعضائهم وخرجت من لجدها . واحدهم مصاب بطعنة خنجر في رقبته سددها اليه عربي من بني عامر اثناء الانسحاب . وكان بين الجرحى المصابين بجراح بسيطة ، بعض الشبان الذين تتراوح اعمارهم مابين عشرة الى اربعة عشر عاما ، واحدهم كان ينفخ في البوق ، وآخر كان يقود ثلاثين رجلا ، وراح بعضهم يتكىء على العنقريب (Angareb) ، وهو سرير ، والقسم الآخر على أكوام من التبن المغطى بالحصر .

أما الاسرى صحيحي الاجسام فقد حشروا موقتا في بعض الخيام ، على مقربة من ثكنة الشرطة . ولا يعرفون ماذا يقولون لانهم كانوا يقاتلون من اجل المهدي . وهم يشبهون الجنود الفلاحين في اوروبا الذين يجهلون اسباب الحروب . وقد جمعهم رؤساؤهم المتعصبون ، فتبعوهم على امل ان ينالوا بعض الغنائم . وبعد هزيمة اغردات استسلم الاسرى الحاليون طوعا ، بينما اسرع آخرون الى قواتنا . فقد كان أحدجنودنا يعرف اشارات النفخ في البوق لدى الدراويش عندما يراد تجميعهم . وما تبقى من الاسرى قبض عليهم بينما كانوا على وشك الموت عطشا . وحين سمع الاسرى ان جنودنا يقبضون ثلاثين درهما في اليوم طلبوا جميعهم التطوع في قواتنا المحلية . وقد اختير ٣٤ من الاقوياء منهم هذا الصباح ، واجروا امتحان الركض لاختبار مدى قوتهم وقدرتهم على السير ، فقد جروا اليوم الى عيلا برعد (El Beret)وعادوا بسرعة عجيبة دون ان يبدو عليهم أي تعب .

لقد استولت قواتنا أيضا ، اضافة الى المدفع والبنادق والاعلام ، على اثني عشر حمار ، وعلى جمال وخيول رائعة كان احدها مصابا بجرح في وجهه من طلقة اثناء القتال قبل موقعة اغردات ، ولم يلتئم هذا الجرح بعد . وكان من بين تذكارات القتال ، التي يحتفظ بها ضباطنا ، بعض قمصان الدراويش قصيرة الاكمام ذات المربعات القماشية متعددة الالوان ، وبعض السكاكين الفاخرة والدروع المصنوعة من الفولاذ والشبيهة بدروع الصليبيين في العصور الوسطى وهي ثقيلة جدا ولها أكمام واطراف .

وعلى مقربة من الفرفة تبدو بطارية المدفعية الجبلية الاولى للنقيب شيكودي كولا وهي البطارية الشهيرة التي استولى عليها الدراويش ثم استرجعتها قواتنا .

وعندما اجتاح الدراويش البطارية سقط النقيب ومسؤول الشؤون الادارية بروفيلي ونافخ البوق وثلاثة جنود واحد البغال التي كانت تحمل المدافع . وعلى مقربة منهم سقط قتيلا كل من الضابطين بنازى وفورنو (Pennazzi,Forno) وامام سيل الدراويش الجارف وقبل ان تدمر جميع قوات البطارية ، انسحب النقيب شيكودى كولا تاركا المدافع الاربعة وراءه . الا انه حمل معه ذخيرتها حتى اذا ما استولى الدراويش عليها ، لم يستفيدوا منها ، اذ لايمكن استعمالها بدون الذخيرة . وحين كان ضباطنا، الذين اشتركوا في القتال ، ينسحبون بعد الهجوم الاول ، كان الجنود يحمونهم . فكانوا يتوقفون بضع خطوات ليطلقوا النار الى الوراء على الاعـداء .

وقد شوهدت سبطانة احد المدافع التي استولي عليها مصابة بضربة كبيرة .

تبدو المشارف المطلة على القيادة في كرن كأنها حديقة لتربية الحيوانات ففيها النعامات والقردة والنمور وبعض الطيور الضخمة الرائعة ، كالأوز ، ريشها أسود ومنقارها كبير . وللسكان هنا طرائقهم الخاصة الغريبة في تسمية الضباط : انهم يطلقون كلمة فلس على الدراهم ، وكلمة علف على كل مأكول ، ولذا فالملازم الذي يدفع الاجور يسمونه بالملازم الفلس ، بينما يطلقون على الملازم الذي يهتم بالمهمات (أي المأكولات) الملازم علف .

الفصل الثالث

من كـرن الى اغـردات

ميدان القتال وجثث القتلى

ـ اغردات ١٠ يناير (كانون الثاني) :

يمكن الوصول من بلدة كرن الى مدينة اغردات في يومين ، وتزداد درجة الحرارة كلما ابتعدنا شيئا فشيئا عن منطقة السهول المرتفعة .

ان المنطقة التي سنجتازها جافة وحجرية ، وتشبه تماما المنطقة التي تمتد حتى الى مابعد بلدة كسلا . وهنا لابد من القول ، مخالفين الاصدقاء كثيري التفاؤل ، بان الامل ضئيل في تحويل ارتيريا كلها الى منطقة زراعية ، بسبب نقص المياه المستمر . وثمة امكانية وحيدة وهي زراعة المناطق المرتفعة بالشعير والقمح . أما الاراضي الباقية فلا تصلح الا لزراعة الذرة اذا سلمت من الجراد .

أما التجارة فلا ينتظر ان تزدهر كثيرا حتى لو تم احتلال كسلا . ففي السنوات الاربع الماضية لم يأت من كسلا سوى ست أو سبع جمال تحمل العاج وقليلا جدا من المطاط . لكن عندما نحتل الخرطوم ، بالاتفاق مع انكلترا ، وندمر المهدية ونفتح طريق البحيرات الاستوائية قد تصبح التجارة ذات شأن . الا ان في الخرطوم اليوم عشرين الف رجل وأربعين أو خمسين الف بندقية . لكن لندع جانبا ابداء الآراء واصدار الاحكام ولنترك انطباعات اليوم ولا نجعلها تتحكم فينا ، ولنقتصر فقط على تسجيل هذه المذكرات عن رحلتنا .

كنا قد انطلقنا امس من كرن ، فلم نرى في الطريق سوى قطعان الحيوانات تسرح في الوديان المنخفضة واعداد كبيرة من القردة تقفز بين الصخور في مجموعات ، كل واحدة منها تضم عشرين أو ثلاثين قردا .

وعلى بعد ساعة وجدت شرطيا مع ثلة من الحرس كانوا مكلفين برد قطعان الابقار التي قدمت من مناطق اخرى تفشى فيها مرض طاعون الماشية .

ثم مررت بقافلة صغيرة من خمس أو ست جمال تتبعها اثنتا عشرة امرأة عربية ، هن قريبات الجنود الذين قتلوا في موقعة اغردات . كن يندبن القتلى ويتغنين بامجادهم . وكن جميعهن تقريبا ، لا سيما المتقدمات في السن منهن ، كاشفات صدورهن . فشكل هذا لوحة بديعة تحت وهج الشمس المحرقة . وعلى مقربة منهن رأيت اكوام الحجارة والادغال كثيفة الاشجار وشابين يضعان على قبعتيهما بعض قشور الكوسى .

أما الزراعة فليس ثمة سوى بعض الحقول المزروعة بالذرة . وكان الاهالي قد حاولوا زراعة القطن هنا دون نجاح بسبب الجفاف الكبير . وكانت العشرات من الدجاج الفرعوني البري تجوب الوديان التي تكثر فيها الاعشاب اليابسة .

ثم مررنا بقرية صغيرة تدعى حقات ، (Agat) وهي محطة للجمال السريعة التي تنقل البريد بين اغردات وكرن . وقد وجدت مأوى لي في كوخ وضعه تحت تصرفي بلباقة محمود آغا المسؤول عن الجمال . وكان ذلك الكوخ بلا باب ، وجدرانه مليئة بالشقوق ، وليس فيه من المفروشات والاثاث المنزلي سوى سرير محلي وهو عارضتان خشبيتان مدت بينهما سيور متشابكة من جلود الثيران المدبوغة . لكن كان علينا ان نشكر السماء لاننا وجدنا مثل هذا الكوخ او البيت المتواضع لنستريح فيه ، في مثل هذه المناطق التي ينام الناس فيها تحت قبة السماء .

وفي الساعة الرابعة من هذا الصباح استأنفت السير ، فوصلت فجرا الى أحد الوديان الحافلة بالارانب ثم رأينا ثلاثة غزلان رائعة ، عرفت كيف تتجنب الطلقات التي اطلقناها عليها .

وتابعت المسير بعد استراحة قصيرة ، وفي الساعات الثلاث التالية لم أجد مايستحق ذكره . وحوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر بدت هضاب بلدة اغردات وقلعتها . وشممت رائحة لحم فاسد ، وخيل الي ان بعضها قد تكون جيفة حصان هرب جريحا من ميدان القتال . لكن على بعد ستة او سبعة كيلو مترات من الحصن شاهدت بالقرب من طريق قصير نسير فيه جثة أحد جنود الدراويش خلت تقريبا من اللحم . لان الضباع والوحوش الاخرى لم تترك عليها سوى بقايا بعض العضلات

المشوهة . ثم رأينا جثة ثانية وثالثة . وقبل الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت الى اغردات بعد ان قطعت وادي بركة الجاف ، الذي تحف به أشجار النخيل الشاهقة .

وتقع اغردات عند مفترق طرق ثلاث : اثنتان من بلدة كسلا ، الاولى تمر جنوبي وادي بركة والاخرى تمر ببلدة القلابات ، والثالثة من الحبشة . وهي على مقربة من بعض الآبار الهامة جدا في هذه المنطقة الجافة . ويشرف حصن اغردات على كل ما حوله ، وهو محاط بسور صلب . وقد دخلته اليوم ، وتعرفت على النقيب جروسي (Grossi) والنقيب كتلانو (Catalano) والضباط الاربعة القادة الآخرين . لقد تضاعف عدد الحامية مؤخرا بعد ان كانت تتألف من وحدة محلية عدد جنودها مئة وثمانون . وشاهدت ، الى جوار السور ، المكان الذي كان العقيد اريموندي يدير منه مع النقيب أركان حرب (سالسا SALSA) المعركة .

ومن هذا المكان يمكن مشاهدة قمة الهضبة التي ترتفع ٦٦٠ مترا فوق سطح البحر ، والوادي المنخفض الذي يمر فيه نهر بركة ، وغابات النخيل ، والجبال ، وجميع خطوط المواصلات القادمة من مختلف نقاط الافق . ان هذا المكان هو ولا شك بالغ الاهمية . وعيبه الوحيد هو قربه من هضبة ترتفع عنه ، وهي الى الجانب المقابل لبركة . فوجب من ثمة تحصين القمة . كما ان السور منخفض كثيرا وضعيف ولا يصمد أمام هجمات عدو كثير العدد .

ومن نافلة القول ان نكرر هنا ما قلناه عن تحركات الدراويش وتحركات قواتنا قبل المعركة واثناءها . ويكفي ان نضيف بان رتل الاعداء الطويل كان يرى جيدا من الحصن صباح اليوم الحادي والعشرين ، بعد ان بات على مسيرة ساعتين من اغردات من الطرف المقابل لطريق كرن . ثم سار في وادي سوليت (Sulit) ودار حول الهضاب الصخرية في عيتاربه (Itabere) وكاي ناي (Caenai) ثم الى مقاريت (Magarrat) في درب دائري سهل شمالي اغردات باتجاه بلدة كرن .

ومن هنا شوهدت بصورة جلية وعن قرب ، اكثر قطعات الدراويش وهي تمر بعيد الساعة الحادية عشرة ، في وادي بركة شرقي القلعة ، في النقطة الاضيق ، كي تلاحق وحداتنا حتى القريتين المجاورتين القدين وسبدرات . وكانت قيادة الحصن قد دعت السكان الى القتال دفاعا عن أكواخهم والانسحاب الى الجبال . وفي هذه اللحظة تلقت كتيبتنا المختلطة

الامر بالتقدم ، فوقع الاصطدام الاول والرهيب بين قواتنا والقوات المعادية على بعد كيلو متر واحد تقريبا من القطعة ، وسط مرتفع سهلي تحيط به أشجار النخيل .

وكان احمد علي ، رئيس الدراويش الشهير ، يعتقد ان مافي القلعة من قوات لا يزيد على سريتين ، فكان يرى ان يترك مابين الف والفين من رجاله قرب بلدة اغردات ، ليتابع بالقسم الاكبر من جيشه زحفه الى كرن. بيد ان الدراويش كانوا عطاشا ، وكان عليهم ان يتزودوا بمياه آبار بركة . وهذا ما دفع العقيد اريموندي ان يقرر في الوقت المناسب مهاجمة العدو فجأة ، مستفيدا من هذا الوضع . فاضطر الدراويش ان يخوضوا المعركة.

ولكن حين قتل قادة الدراويش ، كما ذكر مرارا من قبل ، عمت الفوضى في صفوف جيشهم وبدأوا يفرون على رغم الرتل الكبير الذي بقي منهم . وعندما استطاع احمد علي ، في الصدام الاول ، ان يستولي على بطارية المدفعية التي يقودها النقيب شيكو دي كولا ظن انه ربح المعركة وانتهى القتال . وقد قال الاسرى بعدئذ أن احمد علي ، حين شاهد القوة الاحتياطية تخرج من القلعة ، قال : لقد انتصرنا ! انظروا ! ها هم أولاء الجنود القلائل الباقون يخرجون من القلعة ويأتون الينا ليستسلموا . لكن ، وبعد بضع دقائق ، اصابته هو نفسه قذيفة مدفع فسقط محطم الرأس وتساقط أيضا القادة الادنى رتبة ومئات الدراويش . واستولى جنودنا على جسمه فورا وجردوه من ثيابه الفاخرة ، ونقلوه الى القلعة حيث تعرف عليه الجنود الاسرى مساء ، ثم القي جسمه في واد على بعد بضعة مئات من الامتار من الحصن ، وترك هنالك لتأكله الضباع في الليل. وقد رأيت اليوم بقاياه فقد كان أحمد ضئيل الجسم هزيله وكانت يداه ورجلاه صغيرة جدا ، فلم تستطب الوحوش الضارية لحمه ، واكتفت بنهش ساقه وكسر جمجمته ، فلم يتبق منها سوى بعض القطع الصغيرة العظمة والفك الاسفل والاسنان الجميلة جدا .

ولا تزال الحفر الارضية التي دارت عليها المعركة مليئة بجثث الدراويش ولم تتمكن الوحوش والضباع بعد من تعريتها عن اللحم وجعلها هياكل عظمية لكثرتها . بينما دفنت جثث جنودنا في حفرة كبيرة في الامكنة التي قتلوا فيها . ونقلت جثث الضباط الثلاثة ومسؤول الشؤون الادارية الى اغردات . فلفت بملاءات لعدم وجود توابيت ودفنت فوق قمة هضبة صغيرة غربي القلعة . ووضعت لوحات فوق قبورهم ازدانت

بالصلبان وكتب عليها ما يكتب عادة على لوحات القبور .

واحتفظ في القلعة بخوذة احد الملازمين القتلى وهي ملطخة بالدماء وقد ثقبتها طلقة رصاص ، وحذاء النقيب فورنو المزق في قسمه العلوي القريب من الركبة . وكان النقيب ، حين اخترقت الرصاصة ساقه اليسرى يسلم السرية الى ملازمه ، ثم أصيب بطلقة اخرى اخترقت وجهه وخرجت من الطرف الآخر فسقط قتيلا . وقد وجد ملقى على الارض وذراعه اليمنى متصلبة أمام وجهه وكأنه يحاول حمايته بها . ثم دفن على هذه الحال بعد ان فشلت محاولة خفض الذراع الى جانب الجثة . وقتل الملازم لنكولن بنازي بطلقة اصيب بها في صلبه بعد ان اصيب بجرح بسيط في رجله اليسرى . فنزف دمه ، وبدا جسمه أبيض كالشمع ، عندما نقل ، بينما وجد الملازم كولميا (Colmia) ملقى ، وقدفتح ذراعيه ، ومصابا في صدغه الايسر بينما كان خنجره ومسدسه معه .

وهكذا لم يبق في اغردات اي جريح ، على حين بقي للدراويش حصانان مرميان اصابتهما قذيفة بجروح بليغة .

وبمناسبة الحديث عن الحيوانات ، كانت قواتنا تربي عددا من الثيران في حظيرة كبيرة من اجل ذبحها والتغذي بلحومها . وقد اطلقت هـذه الثيران خوارا كبيرا لدى طلقة المدفعية الاولى في الحادي والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) . وعندما اقترب جندي من الدراويش من باب الحظيرة لفتحه اطلقت عليه النيران فقتل .

ولم يبق من اسرة الدراويش سوى واحد ، قبضت عليه قواتنا بعد هربه ، ثم تبين انه معتوه . وكان لدى الدراويش جملان محملان بالحبال والسلاسل المرسلة الى القوات الايطالية . وفي بداية القتال ، افرزت سرية من قواتنا للدفاع عن آبار بركة ولتحفر في فترة وجيزة خندقا فيه حفرة لا تزال قائمة . وكانت القلعة مزودة بالماءوالطعام ، وكان فيها صدفه، لا من اجل حصار محتمل ، مئة وثمانون قنطارا من الذرة . وفي الحصن اليوم ستة ضباط ، وبعض الجنود البيض وجنديان من الشؤون الادارية وعاملا لاسلكي وجنديان للمدفعية . لقد استولى جندي من قواتنا على أول بيرق للدراويش ، فسلمه في الحال الى الملازم بيني (Pini) .

وحين كنت أكتب هذه المذكـرات تزدان قمم جبال باريا وبيشاو القدين بطبقات كثيفة من السحاب تبدو كالضوء الاحمر . فهذا **وقت**

روب الشمس الذي يبدو في اغردات بلون الدم الاحمر القاني من ناحية السودان ، حيث دفاعاتنا الغربيـــة التي تبعث في النفس بالخواطـــر والتصورات .

اغردات ، ١١ يناير (كانون الثاني)

في بيت اقيم من القش والحصر كنت أسمع ليلا عواء اعداد كبيرة من الضباع وبنات آوى في ضواحي بلدة اغردات لوجود العديد من جثث الدراويش والاحصنة التي تركت ملقاة بعد المعركة . وكان اول ما قمت به هذا الصباح هو زيارة ميدان المعركة . وقد اصطحبني قائد الحصن النقيـــب كتلانـــو (Catalano) والملازمـــان بينـــي (Pini) وبنين كاســـا (Benin Casa) اللذين اشتركا في المعركة الضارية .

وبينما كنا نهبط هضبة مليئة باشجار الكمثرى السامقة ، حيث دارت رحى المعركة ، شاهدنا آلاف النسور الكبيرة ترفرف وتحلق في سماء المنطقة تبحث عن غنيمة لها في الثنايا والحفر ، وقد شبعت وراحت تستريح في الامكنة القريبة . لقد كانت نسورا من كل فصيلة ، فمنها ضخمة الارجل ذات اللون الرمادي والرأس الاصلع والرقبة العارية من الريش . ومنها الاصغر حجما وذات اللون الاسود . والنسور ذات الريش الابيض والرأس الاسود التي تشبه الصقور . لكن لهذه النسور جميعها مناقيرا معقوفة وحادة . وقد جاء القسم الاكبر منها من أمكنة تبعد عشرات الكيلو مترات بعد أن اجتذبها الطعام الوفير .

وهكذا تنشط الضباع وابناء آوى في الليل . بينما تنشط النسور في النهار . لكن نشاط هذه الحيوانات والطيور القذرة كان بمثابة مساعدة . اذ لولاها لفسد الهواء في درجة الحرارة المرتفعة هذه في اغردات ، وهي ٣٠ درجة مئوية في الظل .

ان جنودنا لايدفنون سوى زملاءهم وهم عديدون . اذ يحتاج ذلك الى جهد كبير وقد حاولوا بالاضافة الى ذلك ، دفن جثث بعض الدراويش القتلى وحرقها . الا انهم توقفوا عن ذلك لكثرتها ولان الوحوش ظلت ترتاد الامكنة التي دفنت فيها الجثث وتنبشها لان الارض حجرية ، وعلى بعد مئات الامتار من الحصن ، في المهد الرملي ، وجدنا هذا الصباح الجثث الاولى للدراويش وخيولهم التي لم يبق منها سوى جلودها . أما الهياكل العظمية البشرية فرأينا منها بعض الارجل الجافة المتكاملة تقريبا . بينما

تركت اجساد اخرى بقمصانها ، لان اصحابها كانوا من الفقراء ويبدو منها قطع من الامعاء . وبقي من جثث اخرى الاذرع والسيقان ، وهي مكسوة بالجلد دون اللحم ومعلقة كالنسيج . ورأينا احد القتلى والشعر لايزال يغطي رأسه ، وقتيلا آخر في اسفل ذقنه قليل من الشعر ، وثالثا ما زال نعلاه في رجليه .

وكانت أوضاع القتلى مختلفة . فمنهم من ظل في الوضع الذي كان عليه حين قتل . ومنهم من سقط مسترخيا وذراعاه وساقاه مفتوحتان وبدا هادئا ووديعا . بينما الغالبية العظمى تمددت على جوانبها واعضاؤها مشدودة من الاضطراب والتشنج لشدة النزاع الاليم قبل الوفاة .

أما الجثث التي سقطت غنائم لمخالب النسور ومناقيرها ، فتحولت الى هيكل عظمي . والتي سقطت غنائم بين مخالب الضباع والوحوش الاخرى الضاربة وأنيابها فقد تمزقت اربا اربا ، ولم يبق منها سوى ساق ، أو ذراع ، او جمجمة محطمة او العمود الفقري والاضلاع العلوية وعظمي الفخذين ، والصدور التي ماتزال حولها بعض القمصان الممزقة . وهؤلاء هم الجنود الفقراء . أما الدراويش ، ولا سيما القادة ، الذين كانوا يرتدون البسة فاخرة ، فقد تركت جثثهم ملقاة في ميدان القتال بعد أن نزع عنها كل شيء . ولم يعرهم من ملابسهم جنودنا فقط ، وانما بشكل عام ، سكان قرية القدين . وكانت الغالبية العظمى من الهياكل العظمية لافراد طوال القامة ذوي عضلات مفتولة . وقد بقي من بعضهم عظام الساق العلوي الضخم والطويل الهائل .

وقد وجدت في وادي زمتاي هذا جثث بعض الضباط . وعندما تقدمنا رأينا حفرة مغطاة بأكوام الحجارة والحصى دفن فيها بعض جنودنا . وقد بدأت الضباع تنبش احد اطرافها لتخرج الجثث وكأنها لم تكتف بجثث الدراويش . وعلى بعد كيلو متر واحد من القلعة هنالك العشرات من جثث الدراويش ، بعضها تام وبعضها الآخر لم يبق منه الا القليل ، في المناطق السهلية التي تحيط بها اشجار الكمثرى . وكان علينا ان نسد انوفنا بسبب الرائحة الكريهة التي تنطلق منها .

والى الامام ايضا اشير الى المكان الذي وضعت فيه بطاريتنا التي كان يقودها النقيب شيكودى كولا ، وتدل اربعة اكوام من الحجارة هناك على أمكنة المدافع . وهنا ايضا جيفة بغل ايطالي بحوافره الضخمة ، وجيفة أحد الخيول . أما في الشقوق والحفر الارضية المحيطة فتكثر

هياكل الدراويش . والرائحة الكريهة لا تطاق هنا ، اذ لا يقل عدد جثث الدراويش في كل حفرة عن عشرين . وعلى بعد بضع خطوات منهن قرية القدين وحوالي ثلاثة كيلو مترات من حصن اغردات ، هنالك خمس عشرة او ست عشرة جثة ملقاة في دائرة واحدة هي المكان الذي انفجرت فيه احدى قنابل قواتنا .

ويستطيع المرء ، من هذا المنظر ، ان يفهم كيف ان الدراويش لم يكونوا يفكرون ، على رغم تعصبهم وتطرفهم ، بالآثار الرهيبة التي كانت تحدثها فيهم مدفعيتنا وكيف انهم فروا فقط بعد موت قادتهم . وقد تناثرت فوق الاشواك الادغال والشجيرات قطع من الاقمشة الحمراء والبيضاء أحالت الشمس ألوانها ، هي بقايا اعلام الدراويش . على حين تبعثرت وتناثرت على الارض أغلفة طلقات البنادق من طراز ريمنغتون وبعض الطلقات المستديرة من معدن الرصاص من صنع معاملهم ، وهي كبيرة كالجوزة تقتل الواحدة منها فيلا .

ويبلغ عدد سكان قرية القدين حوالي الف وخمسمائة نسمة . وشعر بعض سكانها كثيف اجعد يدهنونه بالزيوت ، فيبدو من بعيد وكأنه لفة شعر مستعار ، لكن من الغبار ، وحين يسير احدهم تحت أشعة الشمس يسيل الزيت من على رأسه حتى كتفيه العاريتين .

بالقرب من القرية المذكورة قرية سبدرات ، وعدد سكانها نحو الف نسمة . وقد دخل الدراويش كلتا هاتين القريتين الصغيرتين فلم يدمروهما ، ربما للافادة من بيوتهما اذا استولوا على بلدة اغردات .

وكان أحمد علي ، قائد العشرة آلاف درويش ، قد ارسل منذ شهر تشرين الثاني الماضي ، وقبل أن يزحف للاستيلاء على ارتيريا ، كتابا بالعربية يحمل خاتمه الى رؤساء سكان القدين وسبدرات والى كثير غيرهم من شيوخ القبائل . وقد رأيت هذه الرسالة اليوم وفيما يلي نصها ، وهي تدل على اعتزام احمد علي ونيته في الاستيلاء على ارتيريا .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وبفضل الله القدير الكريم ومباركة نبينا محمد : من عبد الله احمد علي الى اصدقاء الله ورسوله ، ، علي نورين وأبو بشير ومحمد نور والى جميع سكان القدين وسبدرات رؤساء ونبلاء ، ارشدكم الله الى ما فيه الخير آمين . ولتعمكم نعمة الله وبركاته .

انكم عاقلون ، ومن يكن مثلكم لا يترك دينه طمعا في الدنيا . وانني

اعلمكم ان هذا اليوم هو يوم الفضيلة والسعادة ، فمن يستجب طائعا الى دعوة الله ورسوله والمهدي والخليفة ، فستنزل عليه بركات الله وتحياته .

وقد عرفتم ورأيتم قوة المهدي والدمار الذي لحق بمن خرج عن طاعة دين الله ، وان جيوشه بقيت منتصرة في العديد من المعارك ، وان دين الله قد انتشر في جميع الجهات . ونحن الآن قادمون من جانب قائد المسلمين مع الجيش الظافر الذي نقوده لاخماد نار المسيئين وتحطيم قوة الايطاليين اعداء الله . ان قوة هذا الجيش ، وعدد جنوده وابطاله ، وانتصاراته معروفة ومشهورة .

اننا أقوى من الايطاليين . وبما انكم مسلمون تعبدون الله ، فقد أشفقنا عليكم لانكم تقطنون مع الاعداء ولذلك نكتب اليكم هذه الرسالة ، فان أطعتم ولبيتم دعوة الله ، ومهديه والخليفة آمنين في دمائكم وممتلكاتكم وأطفالكم . انضموا الينا وستسلمون : انتم ونسائكم وأولادكم . أما اذا رفضتم وساعدتم الكافرين ، فأنتم وهم بمشيئة الله سوف تهلكون وتكونون عبرة في العالم . وقد انذرناكم لانقاذ دينكم وضعفائكم وشيوخكم وأراملكم وأولادكم ونسائكم وقد اعذر من أنذر .

ان جيش الله يزحف ، وسوف يعرف المنحرفون اي منقلب ينقلبون .

٢٤ جمادى الاول ١٣١١ (٢٤ نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ) ١٨٩٣

خاتم احمد علي »

وهناك رسالة شبيهة تماما بهذه الرسالة بعث بها قائد العشرة آلاف درويش الى رؤساء قبائل الباريا .

وقد سلم رؤساء القبائل هذه الرسائل ، بعد أيام قليلة من تسلمها ، الى قائد القلعة في اغردات دليلا على اخلاصهم للايطاليين ، ولان هؤلاء الرؤساء كانوا يعرفون بان جيوش الدراويش لن تحمل اليهم سوى الخراب والدمار .

وبعد ان تركنا هاتين القريتين انتقلنا للضفة اليسرى لوادي بركة على حين كانت اسراب الحمام والدجاج الفرعوني تهرب من امامنا . ووجدنا بين أشجار النخيل ، على مقربة من الآبار المغلقة ، جثثا اخرى وأسرابا جديدة من النسور . وكانت بعض الاقفاص الصدرية والهياكل البشرية ملقاة فوق الرمال وسط النهر ، حيث عبر رتل الدراويش .

وفي زاوية حجرية من الضفة قتلت طلقات مدفع عشرين درويشا مرة واحدة ، محدثة بذلك مستنقعا حقيقيا من الدماء . وتشاهد هناك الآن بقعة سوداء من الدماء . كما احدثت قذائف المدفعية في قاع النهر بعض الحفر العميقة . وتحت أشجار النخيل لاتزال بعض الاكوام من البقايا المتفحمة من الجثث المحترقة . وعلى مقربة من ذلك المكان كان حوالي ثلاثين درويشا قد دفنوا في حفرة واحدة ، بيد ان الضباع نبشتها . وبينما كنا نقترب من المقبرة رأينا مئة من النسور تحوم في السماء واكواما مختلطة من العظام وبقايا سوداء من لحم نتن فاسد . وكان العديد من الجماجم والاذرع والارجل قد سحبت من مدافنها فانبعثت منها جميعا رائحة كريهة . فحثثنا الخطى ، وقد كنا على مسافة الف وثمانمائة مترا من الحصن .

وصعدنا مرة اخرى الضفة اليسرى لنهر بركة وعبرنا غابة أشجار النخيل ، حيث مررنا وسط الهياكل العظمية البشرية ، حتى وصلنا اخيرا الى الحصن . وصعدنا الى الطريق التي تؤدي الى قمة الهضبة ، وألقينا نظرة اخيرة على ميدان الموت الحزين الذي قطعناه لتونا . فلن نرى سوى رفوف النسور التي تحوم حول الامكنة المليئة بغذائها الوفير ، ثم ترتفع عاليا بعد ان تكون قد شبعت من لحوم الجثث . وحدثني النقيب كتلانو ان أسراب النسور او الضباع وأبناء آوى وحدها ، هي التي استطاعت ان تبيد جثث القتلى بعد يومين أو ثلاثة من انتهاء المعركة . واضاف : وفي صباح اليوم صباح اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) رافقني العقيد اريموندي والنقيب سالسا الى ميدان المعركة . فكانت جميع الجثث على حالتها لم تخدش ، وما كان يظهر عليها سوى بعض الجروح المميتة التي كان بعضها مريعا رهيبا . لقد ملأت جثث الدراويش ميدان المعركة ، كما تناثرت جثث اخرى على طول الطريق التي قطعناها . كما سقط العديد منهم أثناء الانسحاب لشدة العطش وبسبب جراحهم وفقدان دمائهم . حتى ان بعض الجثث وجدت في بلدة ميشا ، على بعد خمسين او حتى ستين كيلو مترا من بلدة اغردات .

في اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) ، أي في اليوم الثاني للمعركة ، كانت أكوام جثث الدراويش عديدة لاسيما امام المكان الذي كانت فيه بطارية الكابتن شيكودى كولا ، لانها ، قبل ان يتم الاستيلاء عليها ، اطلقت ما لايقل عن ثماني عشرة قذيفة . وكانت الاخيرة

تقع على بعد ثلاثين خطوة تقريبا منها . فكانت كل طلقة أو قذيفة من مدفعية البطارية تتفجر وتتناثر هنا وهناك فتحدث الخسائر الهائلة في قوات الاعداء . لكنهم كانوا كثيري العدد ، فكانوا يتقدمون رغم ذلك . وكانوا يملأون الفراغات التي يحدثها سقوط الرجال . وقد شاهدتهم قواتنا وهم يتقدمون كسيل حقيقي على رغم تناثر اجسامهم في الهواء رجالا وخيولا ، حتى لم يعد ممكنا استخدام المدافع الاربعة .

وكانت تلك اللحظة هي الحاسمة في يوم القتال ذاك . وقد عرف العقيد اريموندي آنذاك ، ومن المكان الذي كان يدير منه المعركة ، ان الضباط الثلاثة ومسؤول الشؤون الادارية قد قتلوا . ودخل عليه الملازم ماني جالي وهو مصاب بجروح خطيرة ، وسبق ان جاء الى القلعة حصان النقيب جاليانو جريحا ، وعرف ان صاحبه قد قتل ايضا . ثم دخل النقيب شيكودي كولا القلعة ، فسأله العقيد اريموندي :

ـ كيف حال البطارية ؟

وأجاب النقيب شيكودي كولا ـ لقد عملنا كل ما في وسعنا بيد اننا اضطررنا للأسف ان نتخلى عنها ، بعد ان كنا نرمي بها الى بعد ثلاثين خطوة .

ـ هل استولوا على المدافع الاربعة جميعها ؟

ـ نعم الاربعة جميعها .

وكان الملازم جيمانيني ، وهو أحد الملازمين عند النقيب شيكودى كولا ، يتوسل ان تستخدم القوة الاحتياطية من اجل استعادة البطارية ، بينما راح الملازم ماسوتو يتدحرج على الارض في كوخ تابع للقلعة وهو يصرخ : اذا لم نذهب لاسترجاع وحدات البطارية فسوف انتحر . وكان العقيد كورتيس الذي اشترك في الصدام الاول قد قال للعقيد اريموندي :

ـ المقاومة غير ممكنة ، انهم فعلا كثيرو العدد .

وفي تلك اللحظة قرر العقيد اريموندي استخدام وحدتي الاحتياط وارسالهما الى الميدان ، قبل ان يستريح الدراويش وينزلوا الى الآبار . وقد بدا على وحدتي الاحتياط مظاهر الجنون لشدة تألمهم لانهم لم يشتركوا في القتال ، فانقضوا بسرعة فائقة على العدو وهم يطلقون نيرانهم بغزارة نادرة . وفي تلك اللحظة ، سقط احمد علي ، القائد الاعلى لعشرة آلاف

مقاتل ، قتيلا . وبدأت مقدمة رتل الدراويش تتأرجح وتتبدد شيئا فشيئا . وما ان انتشر نبأ موت القادة الآخرين ، حتى استطاع النقيب شيكودي كولا والملازمان جيانيتي وماسوتو استعادة بطاريتهما ، وراح جنودنا يستولون على القسم الاعظم من بيارق الاعداء ، وفر الدراويش لا يلوون على شيء .

ـ اغردات ، ١٢ يناير (كانون الثاني) :

في جولة اخرى قمت بها صباح هذا اليوم في ضواحي بلدة اغردات سرت بضعة كيلو مترات في الطريق التي سلكها الدراويش وهم يتقدمون نحو القلعة قبل بدء القتال . فبعد ان خرجوا من الهضبتين اللتين تكلمت عنهما أمس تقدموا بين أشجار السهل المتعرج، فعبروا نهر بركة في نقطة تبعد نحو كيلو مترين ونصف الكيلو متر ، عن بلدة اغردات . وتجمعوا ما بين القلعة والطريق التي تمتد الى كرن . ثم قطعوا خطوط التلغراف .

لم يأكل الدراويش ، ماعدا قادتهم ، طوال زحفهم الطويل هذا سوى بعض اكواز الذرة النيئة . وكان امامهم اناشيد يرددونها بصوت ايقاعي جميل وهم سائرون .

في الليلة الاولى التي سبقت القتال ، وعلى بعد بضعة كيلو مترات ن أغردات ، فاجأ الدراويش ثلاثة فرسان استطلاع من قواتنا . وقد ستطاع أحدهم الهرب بينما أسروا الاثنين الآخرين ، وأبقوهما أحياء ، ربما ليحصلوا منهما على بعض المعلومات . لكنهم ذبحوهما في صباح اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) عندما سمعوا الطلقة الاولى للمدفعية من القلعة . وقبل ذلك كانت احدى مجموعاتنا قد فعلت الشيء ذاته مع جنديين من الدراويش كانا قادمين من كسلا وهما يحملان رسائل من أحمد علي . وقد قتل الاثنان وضبطت الرسائل .

وعندما هزم الدراويش بعد الموقعة واجتازوا نهر بركة احتموا بجدران القلعة ليتجنبوا طلقات المدافع وهم ينسحبون . لقد أفزعهم مقتل قادتهم . فابتعدوا ، على رغم جوعهم وعطشهم ، عن القلعة بسرعة فائقة . فوصلت مساء الرابع والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) أولى طلائعهم الى بلدة كسلا بينما وصل آخر جندي منهم اليها بعد يومين .

لقد قيل ان عدد من فقدهم جيش الدراويش، من قتلى وأسرى وجرحى هو ٣٨٠٠ من أصل عشرة آلاف انطلقوا من كسلا . فقد عاد منهم اليها فقط

/٦٢٠٠/ رجل بعد موقعة اغردات ، وقد فقدت احدى مجموعاتهم فقط مئتي حصـــان .

وطاردت قواتنا ، فور انتهاء المعركة ، قوات الدراويش مسافة ثلاثة كيلو مترات أو أربعة شمالي أغردات . وفي صباح اليوم الثاني والعشرين، انطلقت جميع سرايانا التي اشتركت في القتال ، وسرية النقيب برسيكو (Persico) التي وصلت متأخرة مساء اليوم الحادي والعشرين ، والوحدة الارتـيرية أكلي قـــوزاي (Acule Cusai) بقيـــادة الملازم سانغوينتي (Sanguinetti) في طريق كوفيت وشقلت من أجل قطع الطريق على العدو ومنعه مـــن الوصول الى آبار حنشعاتيا . بيد أن الدراويش كانوا قـــد ابتعدوا كثـــيراً .

ثم أمضت قواتنا ليلتها في كوفيت ، واحتلت الحظيرة الواسعة التي بناها الدراويش في ليلتي التاسع عشر والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الاول) . كانت الحظيرة هائلة التحصـــين ، بنيت جدرانها مـــن أغصان الاشجار الشائكة ، ارتفاعها ثلاثة أمتار وسمكها متران ، وتشكل مثلثـــاً تاماً تقريباً ، وتحتوي على قسم من قاع النهر من الآبار وبقايا قلعة مصرية صغيرة . وهي واسعة جداً ، ويمكن أن تتسع لحوالي خمسين ألف رجل . وحين دخلها جنودنا ، وعددهم ألفان ، ضاعوا في رحابها .

وانطلق رجالنا صبيحة اليوم الثالث والعشرين مـــن كوفيت الى هضبة بيشا وسهول ســـروبتي (Serobeti) . فوصلوا مساء الى آبـــار الدورا (Daura) دون أن يلحقوا بأي درويش . ومن دورا انطلقت ليلة ٢٣ ــ ٢٤ ديسمبر سرية الضابط برسيكو وجماعات بركه واكلي قوزاي حتى آبار حنشعاتيا فعلموا أن بعض الهاربين قد مروا بها فأسر عدد منهم .

كانت المواد الغذائية قليلة أثناء هذه المسيرة . وقد اضطرت قواتنا في بيشا لان تشرب من بركة مياه كانت تخرج منها رائحة جيفة حمار .

وسافر العقيد أريموندي من أغردات الى بلدة مصوع صبيحة اليوم السابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) .

وظلت القلعة ، وحتى اليوم العاشر من شهر ديسمبر (كانون الاول) ، تحرسها سرية من الجنود المحليين ، هي السرية الثانية من الكتيبة الثانية بقيادة الكابتن كتلانو .

وبعد أن تم التأكد في بلدة مصوع من أن جيش أحمد علي كان يسير

فعلا باتجاه ارتيريا وصلت قوات الدعم وفق الترتيب التالي :

في يوم ١١ ديسمبر وصلت السرية الثالثة من الكتيبة الثانية يقودها النقيب جروس . ويوم ١٥ ديسمبر وصل العقيد كورتيس قائد منطقة كرن مع فرقة فرسان كرن ومع السرية الاولى من الكتيبة الثانية وبطارية المدفعية الجبلية الاولى . ويوم ١٦ وصل المقدم فادا (Fadda) مع السرية الرابعة من الكتيبة الثانية . وفي يوم ١٧ وصل النقيب جوليانو يقود رتل أسمرة المؤلف من السرية الاولى من الكتيبة الثالثة التي يقودها النقيب فورنو (Forno) والسرية الثالثة من الكتيبة الثالثة التي يقودها النقيب فيرديلي (Verdelli) .

وأخيراً وصل ليلة الثامن عشر والتاسع عشر كل من العقيد أركان حرب أريموندي والنقيب سالسا والنقيب اسبر فيكو والملازم بافوني والسرية الثالثة من الكتيبة الرابعة والنقيب كوتا .

وصبيحة اليوم الحادي والعشرين (أي في اليوم الذي نشب فيه القتال) وصلت الى أغردات قافلة تحمل خمسين ألف خرطوشة . وعشية اليوم الحادي والعشرين وبعد المعركة تماماً ، وصلت كل من السرية الثانية من الكتيبة الثالثة ، والنقيب برسيكور ومجموعات مقاطعة اكلي كوزاي الارتيرية .

أما اليوم فبقيت في أغردات ، اضافة الى سرية النقيب كتلانو ، وسرية النقيب جروس التي أوكلت اليها مهمة حماية الحصن ، لان السرية الاخرى انتهت مهمتها .

لا أعرف سبباً لعدم تصديق القيادة العامة الايطالية أن يقوم الدراويش بحملتهم هذه . فهل هو عجز الضابط المقيم في اقليم بركة أو التفاؤل المبالغ فيه الذي كان يسود أجواء مصوع حتى منتصف شهر ديسمبر (كانون الاول) تقريبا . على أن الفضل في وصول المعلومات الصحيحة الى قواتنا يعود الى الحاح أحد الضباط الذي كان يعرف الوضع ، وليس للضابط المقيم المخصص لشؤون المعلومات . وقد أدرك الناس في بلدة مصوع عند اللحظة الاخيرة فقط أن الدراويش يقومون بحملتهم .

وقد حدثت مشاحنة مؤسفة بين النقيب قائد القلعة والملازم المقيم . ويسكن القرى المختلفة التي تحيط ببلدة أغردات حوالي خمسة

آلاف نسمة . وفي أسفل القلعة الى الجنوب الغربي من القلعة سوق صغيرة فيها بعض الاكواخ يبيع فيها حوالي عشرين عربياً الانسجة القطنية الخفيفة والتبغ والقمح والعقاقير .

وفي المناطق القريبة كثيراً ما شاهدت ، الاسود ، حتى عهد قريب ، تحت أشجار النخيل . بيد أن حملات الصيد التي قام بها بعض ضباطنا قد جعلتها تبتعد عن هذه الاماكن ، لكن لا تزال هناك وحوش ضارية أخرى. وتكثر أيضاً العقارب والافاعي ، حتى أن ضباطنا كانوا يجدونها في بيوتهم بين الحصر بينما كانوا يبحثون عن الفئران . وقد قتلوا بعضها وكان طولها يزيد على المتر ونصف المتر .

وتكثر هنا أيضاً أكوام الفخار والخزف التي يبنيها النمل وديدان الخشب ، ويتراوح ارتفاعها ما بين مترين الى ثلاثة أمتار . ويستخدمها قائد الحصن في صناعة القرميد والآجر .

وقد استطعت في رحلة هذا الصباح أن أرى عن كثب مسيرة سرية من الجنود المحليين ، حفاة الاقدام أو ينتعلون صنادل من الجلد . ويجري جنودنا ، مثل الاولاد في أيام العطل ، بخفة ورشاقة دون أن يتعبوا . ويتسلقون الجبال بخفة كحيوان الماعز ، وينشدون من وقت لآخر الاناشيد الحربية الشيقة صارخين كالحيوانات وتكون صيحاتهم وحشية أمام قوات العدو . وتنبض عروقهم بالارث الدموي الابدي للحروب المستمرة . وهم يقفزون أمام الضباط حاملين بنادقهم ، ويقومون بأعمال عجيبة فيبدون كالمجانين .

ويكمن فن ضباطنا وقدراتهم في معرفتهم كيف يقودون الجنود المحليين ويعدونهم للحظة المناسبة . ثم لا يبقى الا أن يصدروا أوامرهم : تقدموا ، فيندفع الجنود يهاجمون أعدائهم وهم يطلقون النار بسرعةعجيبة.

ففي يوم المعركة في الحادي والعشرين من ديسمبر (كانون الثاني) قتل أحد جنودنا المحليين التابعين للنقيب جروسي أحد الدراويش بأن قفز على ظهره وطعنه بسكينة كما كانت تفعل القبائل في الازمان الغابرة. انها مسألة الوراثة . على أن جنودنا لا يتشاجرون الا عندما يسكرون وقلما يهاجم بعضهم بعضاً بالسكاكين . والضابط هنا هو الحاكم دائماً ، وعقوبة الجاني هي الحبس عشرة أيام في اسطبل .

وفي هذه المناسبة ، يكون مفيداً أن نذكر ، بايجاز ، النظام القضائي في المستعمرة .

ان الشعوب الارتيرية مختلفة التقاليد والاعراف لانها مختلفة في الاصل والجنس واللغة والدين واللهجة ، والنظام القضائي يتم بموجب الاعراف التي هي ، بدائية بالطبع ، ولكنها مبنية على المساواة وحماية الفرد . ويعتمد الاحباش عامة ، في نظامهم القضائي على كتاب فتحا نجاشي (Fata Neghest) ، وهو مجموعة الاحكام المدنية والتاريخية ، والدينية ، التي يرجع أصلها الى الانجيل والقرآن ، ولا تزال في بعض أجزاء ارتيريا تسود الافكار المستمدة من العهد القديم . أما شعب البغوص ، أي سكان حوض بلدة كرن وضواحيها ، والقسم الاعظم من قبائل البليين ، وهم أحفاد سكان الحوض المذكور ، فلهما قانون تقليدي غير مكتوب يدعى فتحا مقارح (Fata Magareh) يهتم بكل دقائق حقوق الملكية والتمييز الطبقي لشعوب البليين المقسمين كالرومان القدماء الى طبقات : النبلاء ، والعامة ، والاتباع والعبيد .

ويهتم كتاب فتحا مقارح بمتطلبات سكان المناطق الجبلية ، لذلك تبنت القبائل المحيطة قسماً كبيراً منه . وربما كان سبب ذلك هو ما فيه من خشونة ، حتى أن المسلمين يفضلونه في المسائل الخاصة حتى على القرآن .

ويعتمد سكان بلدة مصوع ومن حولها وقسم من قبائل بركة وماريا في حقوقهم وقضائهم على مجلة الاحكام الدينية والمدنية الكبيرة والتي تتجاوب وتتلاءم جيداً مع متطلبات الشعوب الشرقية كما أنهم يقتبسون العديد من قوانين وأحكام الشعوب المجاورة لهم .

ترك مونزنجر (Munzinger) ، وهو مؤرخ عاش زمناً طويلاً في هذه المناطق ، كتاباً بعنوان: عادات البغوص وتقاليدهم (Dei Bogos Isie Costumi) . وقد جمع فيه الاعراف المتناقلة لفتحا مقارح . ثم كلفت الحكومة الارتيرية البروفسور جويدي (Guidi) من جامعة روما بترجمة الاصل المكتوب باللغة الامهرية ومقارنة ذلك بالاصل المحرر باللغة العربية الذي كتبه المؤلف المصري ابن عسال ، كي يستفاد من ذلك في تحديد الحقوق وفي الادارة القضائية في ارتيريا .

اننا حديثو عهد بحياة المستعمرات وبعاداتها . وقد حاولنا منذ البداية في أرتيريا ، وهي مختلفة عن ايطاليا ومتنوعة الاقاليم والعادات وبدائية في بعض اجزائها ، ان ندخل بعض اشكال الحياة الاوروبية فيها . وهكذا لم نطبق مجموعة أحكام زناردلي (Zanardelli) على شعوب بدائية

المكتبة الارترية

كي نتجنب شرح شعورهم الذاتي ومعتقداتهم النفسية .

ولكن يجري العمل حاليا للتمييز قضائيا مابين اقليم مصوع الذي يضم ايضا حطملو وأم كلو وبين الاقاليم المتبقية من المستعمرة ، وذلك بغية تطبيق القوانين المطابقة للقوانين الايطالية في اقليم مصوع ، وادارة القضاء في البلاد بطريقة تتفق وعادات كل منطقة وتقاليدها ، لتجنب اصطدام تلك القوانين بالشعور العام والمصالح الايطالية .

ان الخطوة الاولى الاكثر اتساعا ، في هذا المشروع ، هي سلطة القضاء الموكولة الى رؤساء القبائل الذين تفوضهم بها الحكومة الارتيرية ومجلس الوزراء .

ويشبه زعماء البلاد ، ولا سيما في القسم المجاور للحبشة ، قضاة الصلح الذين يفصلون في المنازعات ، ويحكمون في قضايا الملكية ويحاولون حل الخلافات التي تقوم بين افراد قبائلهم ومصالحتهم .

أما في مناطق وقبائل اخرى ، كما بين البلين والمنسع والماريا فان مثل هذه المصالحة يقوم بها مجلس الوزراء اي المجلس الذي يجتمع تحت شجرة الحماط ويتألف من شيوخ القبائل واعيانها . وعندما يساء استعمال هذه الطريقة فان الضباط المقيمين وقادة القطعات يشرفون على هذه القضايا ويتلقون الشكاوى . واذا اقتضت الحال يبعثون بالشكاوى الى رؤساء المحاكم في اسمرة وكرن لتحكم في الخلافات القائمة بين أفراد من قبائل مختلفة . وعلى قضاة الصلح هؤلاء ان يحترموا العادات والتقاليد والديانات السائدة في البلاد . ولدى التطبيق العملي يستشير الضباط الاعيان في بلاد الاحباش ، بينما في المناطق الاسلامية يستشيرون الفقهاء الذين يفسرون القرآن ، في كثير من الاحيان ، بحسب مذهبهم .

وقد اكتسب هؤلاء الضباط المكلفون بالاشراف على العدالة والقضاء خبرة عملية كبرى ، أما لخبرتهم الطويلة في افريقيا ، أو لانهم تعودوا على حل الخلاف وتطبيق العدل في وحداتهم العسكرية ، فأخذ المواطنون المحليون يلجأون اليهم لثقتهم بهم من اجل عرض شكاواهم التي كثيرا ما يرفضها الضابط الايطالي ، لان عليه ان يحترم السلطات القضائية . على أن الضابط الايطالي يفيد كثيرا في العمل على تجنب الفساد والخروج على العدالة .

انني أطيل الحديث ، عن رغبة وطيب خاطر ، في هذا الموضوع لان

الادارة القضائية ، موضوع هذا الحديث ، لاتكلف الدولة شيئا عدا بعض الهبات والهدايا التي يقدمها السكان خفية الى الرؤساء في بعض الاحيان وعلى السلطة ان تغضي عن ذلك . ان الاسلوب الثاني من الادارة القضائية كما يقال لا يكلف المستعمرة شيئا ، لان المحكمتين العسكريتين ، واحدة في اسمرة والاخرى في كرن ، يتألف اعضاؤهما من الضباط ، ورئيس كل منهما هو قائد المنطقة .

تنطق المحكمة بأحكامها على الدوام حضوريا ، وبعد أن تكون قد استمعت الى كل ما يتعلق بالموضوع المثار والى أقوال لجنة من الوجهاء المحليين سكان البلاد .

وينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار دائما ، كما جاء في المرسوم الملكي الذي حدد الاختصاصات ، الاعراف والعادات المحلية لدى المحاكمة على أن لا يتعارض ذلك مع الشعور العام ومصالح ايطاليا ومكانتها .

والمحكمتان القائمتان في كل من اسمرة وكرن ، مشكلتان بموجب القانون الجزائي العسكري للقوات الجبلية ، حتى ولو لم تكن قد اعلنت حالة الحرب . وتنظر هاتان المحكمتان ، اضافة الى الجرائم العسكرية ، في الجرائم التي قد يقترفها السكان ضد سلامة المستعمرة وأمنها .

وهكذا فهما تنظران في امور الخيانة والتجسس والعودة الى العبودية وتجارة الرقيق ، حسب معاهدة بروكسل ، والسطو مع التهديد باستعمال السلاح الخ ..

أما في مصوع فان النظام اكثر تعقيدا بسبب اقامة الاوروبيين ، لكن تبذل الجهود هنا أيضا وبكل وسيلة لتسهيل عملية المصالحة . فقد انشىء لدى غرفة التجارة مجلس تحكيم . وبالنسبة للمسلمين هناك القضاة والمفتون . وفي المحاكم الجزائية بعض المساعدين الذين اختارهم الحاكم من بين الايطاليين المعروفين والرعايا المحليين ، على ان يكون ثلاثة ارباع الاعضاء من الايطاليين ، ولا يشترك اي مواطن من سكان البلاد في محاكم الايطاليين .

وتقوم المحكمة العسكرية الآن بوظيفة المحكمة الجزائية ، لكن سوف تحدث محكمة خاصة يختار قضاتها من بعض مساعدي المحكمة المدنية وبعض الموظفين العسكريين والمدنيين .

* * *

قبل أن نترك بلدة اغردات ، من المفيد ان نشير هنا الى الترتيب الدقيق الذي اتخذته قواتنا المسلحة في القتال .

كان تمركز القوات قبل وقوع الهجوم كما يلي :

قيادة قوات عمليات بركة وقيادة الكتيبة للجنود المحليين والكتيبة الثانية المحلية : والسريتان (الاولى والثانية) ، وهما تحت تصرف القيادة ، وجميعها في القلعة .

السرية الاولى فوق الهضبة الواقعة في مقدمة القلعة والسرية الرابعة في مدخل القلعة ذاتها ومهمتها حراسة الآبار ومراقبتها .

كانت الكتيبة الثانية الجبلية المتمركزة في القلعة قد بدأت باطلاق النيران بقيادة النقيب بيانشيني (Bianchini) والملازمين مانفرديني (Manfredini) وفيبي (Vibi)).

وفي الموقع المحصن من الهضبة ، جنوبي القلعة ، احتشدت الكتيبة المختلطة بقيادة النقيب جاليانو باقسامها التالية : السرية الاولى من الكتيبة الثانية المحلية ، السرية الثالثة من الكتيبة نفسها ، السرية الاولى والثالثة من الكتيبة الرابعة ، البطارية الاولى المحلية الجبلية . وهذه الاقسام كانت بامرة العميد كورتيسي ، وكانت قوة الفرسان تستطلع يمين وادي بركة ، اما الجماعات المتطوعة فكانت تنتشر على الجوانب .

وحين قررت القيادة الهجوم ، وضعت القوات التي سوف تشترك في القتال تحت امرة العميد كورتيسي بالاضافة الى السريتين الرابعة والثانية اللتين يقودهما المقدم فادا والسرية الثالثة في القلعة وسرية الاحتياط الاولى في المكان الذي ترك للكتيبة المختلطة .

وحين بدأ الهجوم من انشيراي (Inchirai) ، وهو رافد صغير لزامتاي ، كانت القوات مرتبة على الشكل التالي بدءا من جبل انشيراي في اليمين :

قائد الطابور العقيد كورتيسي ، ومساعده المقدم نوى ، وقائد الكتيبة المختلطة النقيب جاليانو ، ومساعد المقدم الملازم بونورا ، والسرية الثالثة من الكتيبة الرابعة يقودها النقيب كوتا والملازمان بودريرو وفوبشيلي ، ثم البطارية الجبلية المحلية ويقودها النقيب شيكودي كولا (Ciccodicola) والملازمان جياليني وماسوتو ، ثم السرية الاولى من الكتيبة الثالثة بقيادة

النقيب فورنو والملازمين بنازي وبورا ، ثم السرية الثالثة من الكتيبة الثالثة ويقودها النقيب فرديلي والملازمان كوليا وجرامبا ، ثم السرية الاولى من الكتيبة الرابعة ويقودها النقيب دي برناردیس والملازمان دي ماركي ومانجيا جالي . والى الوراء قليلا باتجاه اليسار الى زمتاي كان :

المقدم فادا ومساعد المقدم الملازم بريزيو ، ثم السرية الثانية من الكتيبة الثانية ويقودها النقيب كتلانو والملازمان (اوليفاري وبنينكاسا) ، ثم السرية الرابعة من الكتيبة الثانية ويقودها النقيب ادوني والملازمان دلا كيسا وماجناجلي . وكان الفرسان ينتظرون اسفل القلعة ، والجماعات مع الملازم مياني موجودة في أقصى اليمين .

وعندما فتحت النيران تحركت قوات اليمين الى الشاطىء الايمن لنهر انشيراي ، بينما بقيت البطارية على الضفة اليسرى . وبعد ان اندحرت قواتنا بسبب العدد الهائل للعدو ، انسحبت تاركة البطارية . وعندما تلقت القوى الاحتياطية الامر بشن هجوم خاطف تمكنت قواتنا من استعادة البطارية بينما ولى العدو هاربا .

أما القوات الاحتياطية التي استخدمت في الهجوم المعاكس فكانت التالية :

السرية الاولى من الكتيبة الثانية ، والسرية الثالثة من الكتيبة الثانية ويقودهما النقيب جروسي والملازمان بيني وفريزي ، وقوة الفرسان المترجلة ويقودها النقيب كارشيديو والملازم فيتا والملازم البيطري بربارا (BARBARA) ، والنقيب فرامارين والملازمان دي دومينشي روفرسي وكاستلو والملازم البيطري بوير .

وحالما بدأ العدو بالفرار ، أمرت القوات بملاحقته ومطاردته ماعدا السرية الثالثة من الكتيبة الثانية التي دخلت القلعة والكتيبتين الاولى والرابعة .

الفصل الرابع

كـرن وحوضهـــا

ـ كرن ٤ يناير (كانون الثاني) :

غادرت اغردات في الساعة السادسة والنصف من صباح أمس بينما الشمس تشرق من خلف غابات النخيل . فانتابني شعور رائع ، اذ بدت المشاهد امامها وكأنها سيناريو اوبرا عايدة . وبدت الجبال الخضر تزين الافق وكأنها تنشر شذرات الذهب فوق بساط بلون الورد .

وحتى لا اسير في الطريق نفسها عدت الى كرن بطريق زقا (Zecca) وهي مركز منطقة قبائل بني عامر . وحين ابتعدت عن القلعة اختفى منظر الشمس المشرقة الرائع .

اجتزنا قسما من الميدان الذي دارت فيه رحى المعركة ، وكانت جثث الدراويش لا تزال متناثرة في جنباته . وقد خلفنا وراءنا ، بعد ان سرنا ساعة ونصف الساعة ، الهياكل العظمية التي لم تكن قد تعرت تماما من لحمها ، ودخلنا في غور زمتاي . فبدت المشاهد أمامنا أقل حزنا وألما. فبينما كانت أسراب الدجاج الفرعوني تفر من هذه الناحية ، دون أن تطير ، كانت الغزلان التي ترعى بهدوء وأمان تقفز من ناحية اخرى ، فوق الاعشاب المرتفعة الصفراء اللامعة ، في هذا الصباح الرطب . وفوق رمال الطريق كنا نرى آثار الضباع والنسور ، ونصادف بين حين وآخر بعض أوكار ابن آوى .

وكانت الارض ، تزداد وعورة وجفافا كلما تقدمنا . وقد رأينا هنا وهناك بعض الشجيرات الشوكية وشجر البوعباب، فبدت كبقايا برج في أمكنة صحراوية مهملة .

ان الامطار نادرة في هذه المناطق ، لذا لا يعيش فيها الا الرعاة بصورة بدائية . وهي لا تنتج أي محصول ذي شأن للتجارة الاوروبية . وعلى

ذلك فالمرء يشعر ان منطقة بركة لاتصلح الا مكانا هادئا أمينا للمرور . والحقيقة ان المياه التي رأيتها طوال أمس كان مصدرها بعض الآبار على مقربة من دمبا (Demba) ، اذ أن السكان يستخرجونها على عمق مترين تحت الرمال .

لم أقابل صباحا ومساء اي انسان ، الى أن وصلت في الساعة السادسة مساء الى زقا وهي قرية ضخمة يقطنها بنو عامر ، ويتلقى عمدتها ، ولقبه دقلل (Diglel) ، من الحكومة الايطالية ستة آلاف لير سنويا ، اضافة الى (١٠ ٪) من الضرائب التي يجمعها من رعيته .

وكان دقلل آنئذ غائبا ليجمع هذه الضرائب ، اذ يدفع بنو عامر خمسين الف لير في العام . وقد استقبلني عوضا عنه سكرتيره الذي قدم لي كوخا مخصصا لضباط المرور ، وهو بيت من القش لا باب له ، ثم أتى لي فورا بعنقريب (Angareb) مغطى بسجادة وبقرعة مجوفة مليئة بالماء المحلاة بالسكر .

يبلغ عدد بني عامر نحو خمسة وعشرين الفا ، وهم بدو رعاة ذوو طباع هادئة ولكنهم ماكرون . ويمتهنون تربية المواشي ، وزراعة الذرة وصنع الحصر ، ويرغب زعماؤهم باستمرار في احراز المكانة والرواتب والتعويضات ، ولا يهتمون كثيرا بخير الآخرين .

ولم يبدو على بني عامر في كل من زمتاي ووادي بركة اي اهتمام بالقتال الذي نشب قبل فترة وجيزة . وكان زعماؤهم مترددين ، فمعظمهم انسحب الى جبال كرن هربا من الدراويش ، بينما لم يشترك بعض الرجال الذين احضرهم الى اغردات النقيب نوى (Noe) في القتال،وعملوا مرشدين ، وكانوا يقولون انهم لايعرفون الطريق جيدا ، مع انهم كانوا يعرفون المواقع تماما .

تعني كلمة « بركة » المكان الموحش ، وكلمة « اغردات » (Secca) العلقة وهي الحشرة القذرة التي تمتص الدم وتنتفخ حتى تغدو كالمحفظة المنفوخة .

ان المرء معرض جدا للاصابة بالحمى في فصل الامطار على امتداد وادي بركة بسبب شدة الحر وكثرة المستنقعات . اما رحلتي من زقا الى كرن فليس عندي شيء أقوله عنها .

ان بيوت (بني عامر) خيام مشدودة بالاوتاد مغطاة بالحصر المصنوعة من سعف النخيل والمطلية بالهباب الاسود من أجل منع المياه من التسرب عبرها ، والحشرات من قرضها . أما عاداتهم فلا تزال بدائية وكفا وصفها مونزنجر (Munzinger) في دراساته عن افريقيا الشرقية .

ولولا التعب المميت ، لما استطاع المسافر أن ينام مطلقا في زقا ، ففي الليل تنبح الكلاب نباحا قويا على الضباع وبنات آوى التي تحوم حول زرائب الحيوانات وحظائرها . ان هذه المنطقة التي اجتازها متشابهة كلها ، فهي جبال صخرية تقطنها القردة والصقور ، وطرقات غنية بنبات العليق او العوسج فقط .

ـ كرن ، ١٧ يناير (كانون الثاني) :

تعتبر بلدة كرن من اهم المواقع في ارتيريا من ناحية السودان ، وفيها قلعة بنيت فوق الهضبة الوحيدة التي ترتفع في وسط السهل ، وهي تشرف على جميع الاراضي من حولها .

والقلعة مجهزة بثلاث وحدات أو اربع مزودة بسلاح من عيار تسعة ، وأربع وحدات مزودة بسلاح من عيار سبعة ، واربع اخرى للجبال ، ويقودها ملازم المدفعية درشي (Derchi) ، وهو ضابط لطيف من بلدة جنوة ، يقضي وقت فراغه في الصيد وتحنيط الطيور والحيوانات والحشرات التي تعيش في المقاطعة . وهكذا فهو يقوم بتحضير مجموعة رائعة من المحنطات سيغني بها المتاحف الايطالية .

اتيح لي أن أرى بعض محنطاته ، ولم يكن قد صنفها بعد ، فكانت بديعة حقا . وقد ضمت طيورا صغيرة الحجم جميلة جدا وببغاوات وحيوان ابو زريق وطيور آكلة للسمك الافريقية ذات الالوان الزاهية المختلفة العجيبة ، ومجموعة متنوعة من اليمام والزرزور والحمام وطيورا أخرى لا أعرف أسماءها لونها أزرق زمردي وأحمر قان وأزرق سماوي . لقد كانت مجموعة متعددة الاشكال والالوان والمناقير والذيول ، يصعب وصفها .

وقد اصبح الملازم كسالي (Casale) بدوره محنط حيوانات ممتازا فجمع نماذج بديعة شيقة من كافة فصائل الحيوانات التي تعيش في ارتيريا .

يقود القوات المقيمة في كرن العقيد الخيال كورتيس قائد المنطقة . وهي تتألف من وحدة قناصة ايطالية ، وكتيبة محلية ، وفرقة فرسان محلية وبطارية جبلية جنودها خليط ، وبعض وحدات الفرسان والمدفعية والمهمات والشرطة . والعاملون فيها من السكان المحليين والايطاليين . وفي كرن ايضا قيادة محطات المواصلات ووحدة تمريض . وكان النقيب الطبيب بمبينلي (Pimpinelli) والملازم الطبيب بوشينو (Bucciino) وهما طبيبان ماهران ذكيان ، قد عالجا جميع جرحى معركة اغردات الى أن شفـوا .

لقد ذكر من قبل ان الطبيبين الملازمين بوشينو وموزيتي كانا في اغردات يوم المعركة ثم وصل في اليوم الثاني والعشرين النقيب الطبيب بمبينلي . وقد وقع عبء العمل كله على هؤلاء الاطباء الثلاثة ، اذ كان الجرحى كافة ينقلون الى هنا . وقد استطاعوا ان يمنعوا حدوث الالتهابات باستعمال العقاقير المضادة للجراثيم والتعفنات ، اذا حضر الجرحى اليهم سريعا دون تأخير .

أما في المعمل الملحق بالقلعة فكان جنود يصلحون البنادق التي غنموها من الدراويش ، ومعظمها من طراز منغتون وهي بحالة جيدة ، وكان حزام احدى البنادق مصنوعا من جلد ثعبان .

تتألف بلدة كرن من ست أو سبع قرى منتشرة حول القلعة ولهـا أسماء مختلفة .

فالقرية التي بجوار السوق تدعى تنتاروا (Tantarua) وهي تحتوي على العدد الاكبر من المنازل الخاصـة والدكاكين المسورة التي يملكهـا يونانيون وهنود بنيان (Baniani) وبعض الايطاليين ، وهي مقاه وحوانيت لبيع المشروبات الروحية والزيوت والمنتجات الاوروبية الاخرى . أمـا سكان البلاد فلا يبيعون سوى الذرة والحصر والزبدة والحليب والتبـغ واللبن متوسط الجودة بكميات قليلة ، ولا يزيد عدد سكان القرى بمجموعها على خمسة آلاف او ستة آلاف نسمة .

وعلى مقربة من الامكنة المسورة بعثة لازاريستي (Lazzaristi) ولها مدرسة لتعليم السكان المحليين يتخذها بعض الرهبان وسيلة للتبشير بالدين المسيحي في الحبشة والبلدان المجاورة عندما يؤمرون بذلك . وتمتلك هذه البعثة مطبعة صغيرة تطبع فيها كتب التعليم المسيحي وكتب

العبادة باللغة المحلية وبعض القرارات التي يصدرها حاكم البلاد .

وعندما يزور البعثة مواطن ايطالي لاول مرة ، قد يصيبه شعور بغيض حين يرى أن البعثة يديرها الراهب الفرنسي ، الاب كولبو (P. Colbeaux) ، وهو رجل طويل وفظ يقطن في هذه البقاع منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ولا يهتم بالسيارة . واللغة الفرنسية هي لغة البعثة ، ويتحدث لها عادة الطلاب الشباب الكهنة . ان التكلم بهذه اللغة أمر طبيعي لان فرنسا اكبر دولة في اوروبا وتنطلق منها ذاتها بعثات الى الخارج اكثر مما ينطلق من اية دولة اخرى .

ولكن حكام ارتيريا اليوم هم الايطاليون . وينبغي ، سواء أكان ذلك حسنا أم سيئا ، بذل كل جهد ليكون على رأس هذه البعثات كهنة أو رهبان من الايطاليين . والا فان ما سنكسبه من ناحية ، مضحين من أجله بالكثير ، سنفقده من ناحية اخرى . وقد علمت ايضا ان الاخوات الراهبات اللواتي يدرن مدرسة لاولاد السكان المحليين ترأسهن راهبة فرنسية .

وحين كنت أخرج من مكان البعثة كان سكان القرية المجاورة يقرعون الطبول بلحن حزين لموت أحد الاعيان . لقد كانوا أربعين رجلا حنوا قاماتهم نحو الارض فوق صف من الحصر وهم ملتفون بفوطهم ذات اللون الابيض ، وأخذت نحو عشرين امرأة يؤدين دبكة شعبية وهن يحركن رؤوسهن وأذرعهن وأرجلهن والاجزاء الاخرى من اجسامهم في ايقاع غريب . على حين كانت بعض النسوة العجائز يلوحن بالتروس في الهواء وبسيوف الفقيد وحرابه .

وكانت النساء يجلسن لحظات بين حين وآخر ليسترحن ثم لا يلبثن أن يعاودن الرقص الحزين . وقد أخذت ثلاث أو اربع منهن يلقين باجسامهن أرضا ويتقلبن ويقفزن كما يفعل رجال السيرك ، ويغطين رؤوسهن وايديهن ملقاة على الارض . وتتميز نساء البلين (Bilene) عن النسوة الاخريات بانهن كن يدرن رؤوسهن يمنة ويسرة فتضرب شعورهن المجعدة خدودهن بينما وضعت بعض النساء الاخريات على رؤوسهن شرائط من النسيج الابيض والاسود . وكان يقدم الى الراقصات شراب مخمر يؤتى به من أحد البيوت دون أن يضاف عليه اي نوع من الكحول .

أمضيت الايام الثلاثة الاخيرة أتجول في حوض كرن الفسيح الذي يعتبر من أفضل ما في مستعمراتنا هذه من الناحية الزراعية ، فقد كان

من الممكن ، حيث تكون الميـاه وفيرة ، زراعـة الحمضيات والخضراوات والتبوغ والاقطان .

وفي وادي دعاري (Daari) الذي يرويه جدول ماء لا يجف ، بعض البساتين التي تمتلكها البعثة وبعض الملاك الآخرين وتزرع فيها الخضراوات والبقول ما عدا الارضي شوكي ، على أن مايؤلم ان البيض المقيمين في بلدة كرن قليلون جدا ، وان الانتاج يزيد على الاستهلاك ، لذا فأصحاب البساتين الاربعة أو الخمسة يكسبون ما يكفي لسـد حاجاتهـم المعيشية الضرورية ، ولا يدور في خلدهم أن يزرعوا اكثر ما داموا لن يربحوا مما سيزرعونه .

وفي بستان البعثة أشجار النارجيل (جوز الهند) ، وثمرها ضخم رائع ، وهي شجرة منتشرة في هذه المناطق ، كذلك تنمو نموا رائعا انواع مختلفة من البطيخ والشمام .

ويزرع في اجزاء اخرى من الوادي الشعير والذرة . لكن الجراد يبيد في معظم الاحيان هذه المزروعات وهي في طور النمو ، فلا يتمكن اي مزارع من حصاد غلته . وقد حدث ان جنديا خدم في ارتيريا خمسة اعوام، واسمه كارلو ايرتولا (Carlo Ertola) من مدينة ميلانو ، قام باستثمار مدخراته التي تبلغ ١٢٠٠ ليرة في زراعة قطعة من الارض في شعبت (Sciabat) ، التي تقع على مسيرة ساعة واحدة من بلدة كرن . وقـد زرع كمية من الحبوب والبطاطا ، لكنه لم يجن من قنطار واحد من البطاطا سوى ثمانية كيلو غرامات ، ومن عشرين كيلو من اللوبياء سوى نصف كيلو غرام فقط . ولكنه نجح ، والى حد ما ، في زراعة الثوم والبصل وكان قد ابتاع خمسا واربعين ماعزا لتربيتها ، فماتت جميعها بسبب مرض اصابها . ثم قصر عمله هذا العام على زراعة الذرة وهي الانتـاج الاكثر امانا ، بيد ان الجراد أتى على زرعه . وهكذا أصبح مفلسا لا يملك قرشا واحدا . فاستدان من أقاربه ستة آلاف ليرة أقام بواسطتها اصطبلا لتربية الحيوانات ، لكن مرضا معديا اجتاحها فقتلها وأفلس من جديد .

وقد حدثني أحد أصحاب البساتين في وادي دعاري ، وكان الايطالي الوحيد هناك ، ويدعى مونتسانو (Montesano) انـه ، بشق النفس ، يستطيع العيش من بستانه .

والشخص الآخر الذي يمتلك بستانا ، اصغر من بستان البعثة ، هو رفائيلي سايسي(Raffaele Saisi) من منطقة لوكا في ايطاليا . وقد

قال : ولولا بعض الصناعات الاخرى ، اضافة الى الزراعة ، لما استطاع ان يستمر في العيش .

وتزرع البعثة ، اضافة الى البستان الواقع في الوادي ، مساحة كبيرة من الارض في شينارة (Scinnara) التي تبعد نحو ساعة وربع الساعة من بلدة كرن . وقد ذهبت اليها مع الراهب جوزيف (Josef) فقال ان المحصول ضعيف جدا منذ اثني عشر عاما بسبب الجراد الذي يجتاحه . وعلى ذلك لا تستفيد الجمعية الخيرية الا من الشعير والاخشاب والذرة اذا لم يلتهمها الجراد .

وهناك حقول اخرى يزرعها المواطنون ذرة لحساب الحكومة ، لكن وضعها الانتاجي لا يختلف عن البساتين الاخرى . ولكن يمكن زراعة اشجار الحمضيات والتبوغ والاقطان على نطاق واسع ، لان الجراد يبتعد عنها الى حد ما ، شريطة استعمال بذور اجنبية ، والا فان الفراس لاتنمو .

ان الطريق بين شينارة وكرن صخرية قاحلة في بدايتها ، ثم تمر في منطقة تنمو فيها اصناف عديدة من الاشجار غير المثمرة اضافة الى الشجيرات والاشجار الشوكية واشجار البوعباب . وتليها الاراضي القابلة للزراعة التي هي مهددة دائما بالجراد اللعين . وبعد وادي دعاري ، وعلى مقربة من بلدة كرن ، هنالك منطقة ذات مناظر جميلة فيها وادي عنسبة (عين سبأ) ، الذي تكثر على ضفافه ، فتزينها اشجار التمر الهندي والجميز واشجار اخرى بينها شجر غريب تلتصق ثماره بالاغصان . وهو مكان غني بطرائد الصيد ، فقد رأيت فيه اعدادا هائلة من طيور ابو زريق والحجل واليمام والعصافير وغيرها .

وقد تم تحصين نقطتين استراتيجيتين فوق مضيقي وادي عنسبة وهما : شعبت (Sciabet) وربط (Rapt).

وعلى الزراعة هنا ان تناضل ضد اعداء آخرين عديدين ، اضافة الى الجفاف والجراد ، هم : النسور ، والضباع وبنات آوى والطيور من كل جنس والقنافذ والقردة والديدان والسمور وبعض الانواع الخطيرة من النمل تدعى بدود الخشب . وهذه الاخيرة تتلف كل شيء تلتصق وتتعلق به حتى انها تأكل جذوع الهاتف وتتسرب الى المنازل فتحفر في خلال ساعات قليلة العديد من الحفر في اخشابها وتتلف الملبوسات والخبز والاحذية .

ان غور كرن ، كمنطقة بركة ، صالح فقط لزراعة التبوغ والحمضيات والاقطان في مناطق محدودة . فلا يعتبر ، لذلك ، اكثر من ممرّ للمرور فقط .

يبدأ موسم الامطار هنا في نهاية شهر يونيو (حزيران) وينتهي في شهر سبتمبر (ايلول) وهو الشهر الذي تنموفيه الاشجار والاعشاب .

ويكون الحر على أشده ، في شهري مايو (أيار) ويونيو (حزيران) . وتكون درجات الحرارة في الاشهر الاخرى ، مرتفعة نسبيا نهارا ولطيفة ليلا بسبب ارتفاع المنطقة عن مستوى سطح البحر .

ـ كرن ، ١٩ يناير (كانون الثاني) :

قمت أمس برحلة الى الجنوب الشرقي من حوض كرن فزرت قرى حشيلا (Hascialla) ودقي (Deghi) وسلالي (Tselale) وجوفا (Givfal) وقرى اخرى يشبه بعضها بعضا ، اذ يتكون كل منها من خمسين أو ستين بيتا ، مأهولة بالرعاة والمزارعين الكسالى القذرين .

والارض في هذه الديار جافة جدا وحجرية ، وعلى الذين يزرعون الذرة ان يختاروا بعض الاراضي الواقعة على ضفاف نهر بركة .

وفي قرية حشيلا بيت مريح خاص بالكنيسة ، يقطنه راهب شاب من سكان البلاد تلقى تعليمه على يدي البعثة الفرنسية . وسألته عن عدد الاسر المسيحية ، فأجابني انها عشرون اسرة من أصل خمسين ، ولكنها قلما تتردد على الكنيسة . ان سكان هذه القرى كسالى حتى بتطبيق شعائر الدين .

وتنتشر بين القرية والاخرى قبور متعددة مغطاة باكوام دائرية من الحجارة . على ان تشييد بعض القبور لم ينته ، ويشير هذا الى ان من دفن فيها قد مات قتلا ولم يثأر له بعد . وحين يؤخذ بالثأر يغطى القبر بألواح الصوان .

وقد شاهدت في واد صغير للرعي حوالي عشرين جملا ، على ظهر كل واحد منها خمسة طيور او ستة ، واحدها اكبر حجما من العصفور بقليل ومنقاره أحمر ، وهي تعمل على طرد الذباب والحشرات من فوق ظهر الجمل واصطيادها . وقد علق أحدهم : انظروا ما أجمل هذه المساعدة، لقد خلقت هذه الطيور بغية جعل الجمال نظيفة . ولو لم تخلق فكيف

يكون حالها مع هذه الحشرات والذباب .

وبدأ السكان يأكلون جيدا وهم في صحة حسنة ، ويتمتعون بوضع جيد . فالجراد لم يلتهم هذا العام محصولهم من الذرة كما انهم لم يعانوا من الحروب بفضل قواتنا . فهم يربون مواشيهم ، فينعمون بالحليب والطحين . ولكن المؤلم انهم ، حالما تتحسن أحوالهم ، يعودون اكثر كسلا .

ولكن بعد أن احتل الجيش الايطالي بلدة كرن ، تدفق العديد من العمال المحليين وهم مستعدون للعمل بأجر يومي قدره عشرون سنتيما . اما اليوم فيصعب ايجاد رجل يعمل بلير كامل في اليوم . ومؤخرا لم يجد باعة التين حمالين يرضون باجر لير ونصف او لير وستين سنتيما يوميا ، فكان عليهم بالتالي ان يستخدموا الجمال في هذه العملية .

واذكر ، في مناسبة الحديث عن الحمالين ، ان بعض الاسرى المائة من الدراويش استخدموا في شي القرميد من الافران وقطع الأخشاب اليابسة . بينما جند آخرون منهم في الوحدات المحلية . ان الفائدة من هؤلاء كبيرة لان الواحد منهم لايكلف سوى ثلاثين سنتيما في اليوم بينما انتاجه اكبر من ذلك بكثير . على ان من المستحيل ابقاءهم كالعديد من العبيد ، بينما نقول اننا حضرنا الى المستعمرة من اجل انهاء الرق فيها .

ينام الاسرى في الليل ، بالقرب من ثكنة الشرطة ، تحت بعض الخيام التي يطلق عليها هذا الاسم تجاوزا ، لان الواحدة منها بيت صغير متواضع أرضه من التراب وسقفه من الاوتاد والقصب المليء بالغبار الذي تحدثه دودة الخشب .

لقد كان من المستحسن والمفيد ان تبنى وتخصص ابنية لائقة يأوى اليها هؤلاء الشرطة الذين يقدمون كل يوم خدمات جلى ، عوضا عن بعض الابنية غير الضرورية ، او على الاقل غير العاجلة ، القائمة في داخل القلعة . اذ حتى في اغردات تميزت بيوت كل من المارشال ناكوشي (Naccuchi) واللواءين ريجاتي (Rigatti) وجاتيغليا (Gattiglia) ورجالهما وحتى آخر مكان للذخيرة والاماكن التي يأوي اليها مرافقو الضباط وتوضع فيها الحيوانات ، فقد بذلت مجهودات كبيرة في بنائها كي تبدو جميلة وأنيقة .

لقد خصصت هذا اليوم لرحلة قمت بها في مناطق قبيلة بيت جوك (Bed Gucc) ذات الاصل الحبشي . أما اليوم فهي تدين بالاسلام ، ويبلغ عدد افرادها الفا وخمسماية نسمة ، وهم موزعون على ثماني قرى الى يمين وادي عنسبه ويساره .

ويبعد وادي عنسبه مسيرة ساعة تقريبا عن بلدة كرن ، وفي هذا الفصل يمتلىء مجراه بالمياه ، فتصبح جميع ضفافه خضراء ، تكسوها الحشائش والاشجار ، فترعى فيها بعض قطعان الابقار . وبما انه لاتوجد مياه في هذه المنطقة غير مياه النهر ، تزرع قبيلة بيت جوك على يمين وادي عنسبه ويساره الذرة . وقد اتيح لي رؤية بعض حقول الذرة التي يتأخر موسمها وتنضج في شهر يناير (كانون الثاني) .

ويرتفع في وسط كل حقل برج خشبي من طبقتين ، فيقف في الطبقة العليا منهما الاولاد يطردون الطيور حين تحط على أعواد الذرة بالصراخ او بالمقاليع .

في قرية كوقت (Coget) صافحني زعيم قبيلة بيت جوك ، ويدعى اريانيس حمراي (Irianis Hamarai) وقال ان قبيلته تدفع في كل عام ٢١٠٠ لير ضرائب ، يأخذ هو منها ١٠ ٪ . أما الخسائر بسبب الجراد فلم تكن كبيرة في هذا العام .

وتنتشر على طول وادي عنسبة اشجار الابنوس الى جانب الاشجار الاخرى ، ولكنها من النوع الرديء . وقد شاهدت في المنطقة التي يتخذ فيها النهر شكل زاوية بعض المصائد التي وضعها السكان لاصطياد القردة. ولما رجعت الى بلدة كرن وجدت محكمة التحكيم لا تزال منعقدة في تنتاروا حيث تنعقد اليوم جلستها ، وكان يرأسها العقيد كورتيسي ، وجلس الى يمينه النقيب نوى وكان محامي المالية هو ملازم الشرطة فلبيني (Filippini) بينما كان سكرتير المحكمة ملازم القوات المحلية بريزيو (Brizio).

وكان مكان المحكمة كوخا صغيرا أرضه من التراب الناعم البسيط ، ويرفرف العلم الايطالي على بابه .

وكانت الشكوى التي تنظر فيها المحكمة غريبة ، فقد اتهم احد الشبان النبلاء المحليين ــ من قبائل الحباب (Habab) احدى الشابات السودانيات بانها هربت سارقة له خمسة عشر ريالا فضيا .

ولما سألها الرئيس ، أجابت السودانية : انني لم أكن زوجة المدعي وانما خادمته ، وقد كنا في بلدة سبدرات (Sabderat) بالقرب من اغردات . وعندما كنت اذهب الى آبار بركة رأيت عسكريا سودانيا كنت قد مارست الحب معه في بلدي عندما كنت صغيرة ، فلحقت به لاسكن عنده ، وليس صحيحا انني سرقت الخمسة عشر ريالا ، وانني مستعدة لاقسم اليمين .

وكان الناس قد نزحوا عن سبدرات قبيل موقعة اغردات ، وقد تكون الدراهم فقدت اثناء الفوضى ، الا اذا كان آخرون قد سرقوها .

عندما أثار المدعي شكوى اخرى ، فقد طالبها بزوج من الحلق الفضي كان قد اهداهما اليها . وقد قررت المحكمة ان الشابة السودانية تستطيع ان تذهب مع من تحب لان الرق غير مسموح به في ارتيريا ، وان لا مبرر للحكم عليها بالخمسة عشر ريالا لان المدعي قبل باليمين وليس ثمة من دليل على السرقة ، وان الشابة تستطيع الاحتفاظ بالحلق لانها أمضت ثلاث سنوات مع المدعي .

لقد أحببت السرعة التي بت فيها بالدعوى اذ استغرق ذلك ست دقائق او ثمان وبدون مرافعات او محامين .

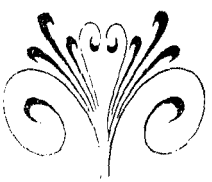

الفصل الخامس

رحلات في الماريا والمنسع

ـ رحلات الى عنسبة وماريا وباب جنقرين ، ٢١ يناير (كانون الثاني):

قبل ان اغادر منطقة كرن ، رأيت من المناسب أن أقوم برحلة تمتد مابين خمسة أيام الى ستة داخل المنطقة نحو ضواحي ماريا الحمراء التي يقال عنها انها جميلة جدا .

أمضيت الصباح في تهيئة ما يلزمنا ، لان المرء اذا أراد ان يتجول في هذه الاماكن التي لا يقطنها سكان بيض وجب عليه ان يحمل معه خيمته ومواده الغذائية . انطلقت بعد تناول طعام الفطور برفقة النقيب ادوني (Addone) مع حرس من الجنود ، دون أن نجد الحمالين الذين لاغنى عنهم .

سرنا في الطريق المتجهة الى الشمال الغربي ، بمحاذاة جبال اللامبا ، والتي تخترق قسما جافا في حوض كرن ـ حيث تكثر اشجار الكمثرى ، وتقل أشجار البوعباب ، اضافة الى بعض حقول الذرة . ووصلنا في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر الى قرية شنارة . ثم عبرنا السهول التي ترتفع ١٣٠٠ مترا عن سطح البحر ، وصعدنا اكثر من ثلاثمائة مترا في طريق ضيقة شديد الانحدار ، بين جبال قالوتان (Galutan) ومدكة (Madacca) بين الظلال ووسط اصوات الصراصير وطيور المزمار .

وفي هذه المنطقة الضيقة الاخيرة ينمو العديد من النباتات بين الصخور ، وترتفع اشجار الطلح ذات القشور الحمراء سريعة الاشتعال ، واشجار الدراق البرية ، والابنوس الهجينة وغيرها كالاشجار المعوجة التي تشبه اشجار التفاح . وبعد موسم الامطار القصير ، وبعد أن تنمو الحشائش وتخضر وتطول ويصبح هذا المكان ذا جمال فريد لكنه عقيم .

وحوالي الثالثة والنصف نزلنا في واد ضيق جدا غني باشجار الغريبون من نوع الشموع ، شديد الزخرفة ، ووصلنا الى مكان بدا فيه المرور صعبا بين الاكوام البركانية ، فاضطررنا للترجل عن البغال . ثم أصبحت الطريق اكثر سهولة وظهر فيها العديد من حيوانات الصيد وطيوره : مثل الدراج واليمام وديك الجبل ، وكانت جميعها تهرب وتختفي سريعا بين الصخور الحادة . كما شاهدنا الماعز البري الذي سرعان ما كان يختفي بين اشجار العليق ، والقردة التي تهبط من الاشجار ثم تختفي بين المنعطفات والتعاريج والصخور ، وظهر لنا حيوانان على قمة صخرة يشبهان الجربوع لا يبديان حراكا وهما ينظران الينا باستغراب .

غادرنا ذلك المكان ، ومررنا في سهل مرتفع صغير . وحوالي الساعة الخامسة قطعنا ممرا جديدا الى يميننا ، وهبطنا الى باب جنقرين (Bab Giangaren) في وادي شتامو الذي يرفد وادي عنسبة من الناحية اليسرى .

تسكن هذا الوادي ، الصغير المستدير تقريبا ، الحسن المنظر رغم ان ماءه يجف عشرة شهور في العام ، قبيلة باب جنقرين المسلمة ، وعدد رعاتها ثلاثمائة وخمسون راعيا . وحين رآنا بعض السكان ، الذين اخرجوا من أكواخهم المبنية من قصب الذرة ، اتجهوا الينا . وقد تقدم نحوي شيخهم الذي يرتدي الفوطة المطرزة على الطريقة الرومانية القديمة ، وصافحني . ثم جعلنا القرية على يميننا وضربنا خيامنا على بعد اربعمائة مترا منها تقريبا ، في مكان مرتفع الى جانب منطقة صخرية ، محاولين الهرب من الارض التي تسكنها دودة الخشب وحيوانات النمل المؤذية التي تتعلق بكل شيء وتبيد كل شيء .

وقد سألنا الشيخ : ماذا استطيع أن اقدم لكم ؟

فأجبناه عن طريق مترجم : قليلا من الماء وقليلا من الخشب .

وبعد عشر دقائق أتى بعض السكان يحملون على اكتافهم جذوعا هائلة من الاشجار اليابسة كي نضرم النار الليلية اللازمة ايضا لحماية المخيم من الضباع وبنات آوى ، كما حملوا لنا قربتين مليئتين بالماء .

كانت الاخشاب جيدة ، بينما كانت المياه عكرة ، فهؤلاء السكان لايفرقون بين المياه الصافية والمياه المليئة بالرمال ، وهذا مادعانا الى أن نرسل احد رجالنا للبحث عن ماء في أحد الآبار الذي حفر في قاع وادي

شتاموذي المياه الصافية النظيفة ، بينما راح النقيب ادوني ، الذي يتلذذ بالطبخ ، يهيء لنا طعام العشاء .

وبعث زعيم قبيلة باب جنقرين الينا بعنقريبين (وهما سريران محمولان) كان احدهما مغطى بقطعة من السجاد العربي الجيد ، وهذه هي العادة تجاه الشخصيات البارزة ، ثم جاء ومعه رجل يحمل ماعزا حيا قدمه هدية لنا . وتوجب العادات والتقاليد هنا أن يقبل المرء الهدية والعطاء ، ولكنه يمنح ، مقابل ذلك ، مقدم الهدية بعض النقود الفضية . وبهذه الطريقة يتم شراء الاشياء المهداة على شكل منح ونفحات نقود . والاهالي هنا ليسوا بالاغبياء او المعتوهين .

وكان الرجال الذين يرافقوننا اثني عشر ، ستة منهم مسلمون وستة أقباط مسيحيون احباش ، ولا يأكلون لحوم الحيوانات اذا لم تذبح حسب قواعد ديانتهم . لذا رجونا الشيخ أن يستبدل بالماعز الواحد ماعزين ، ففعل ، وهو مسرور بتلقي ريالي ماريا تريزا مقابل هديته . ثم أرسل الينا قرصين مصنوعين من الذرة المنقوعة بالحليب وحصيرة وتبنا وشعيرا لحيواناتنا .

وغربت الشمس المحرقة في افريقيا ، حتى في المناطق المرتفعة ، لتضيء قمم الجبال بانعكاساتها ذات اللون الازرق السماوي . وطلع القمر ، وكان بدرا ، في الوقت نفسه تقريبا ، بينما راح جنودنا يضرمون النار الكبيرة . وحين انتهينا من تناول طعامنا شاهدنا مجموعتي الرجال المسلمين والمسيحيين وهم يذبحون الماعزين ويسلخونهما بسرعة كبيرة .

انني اكتب هذه الكلمات أمام خيمتي ، بينما يضيء نور القمر الوادي حول النيران التي اشعلها رجال الحرس وأخذوا يشوون قطع اللحم على بعض الحجارة المحماة حتى الاحمرار . وعلى بعد خطوات منا ، ربطت بغال القافلة ، وخيم حولنا سكون مهيب ، لا يسمع فيه سوى اصوات الصراصير الليلية . ولكن هذا الهدوء لايستمر حتى الساعة العاشرة اذ تطلق آنئذ بنات آوى عواءها .

ـ رها (Rehi) ، ٢٢ يناير (كانون الثاني) :

عندما استقيظنا فجرا ، كانت خيامنا مبللة تماما برطوبة الليل ، بينما غطى الضباب كل الجزء السفلي من الوادي ، والجنود يجتمعون حول موقد كبير تتأجج فيه النيران . ان الحر الشديد نهارا يخلق الرطوبة

ليلا ، وتسبب الحمى التي تلاحق جميع البيض الذين حاولوا ويحاولون الاستقرار في وادي شتامو .

عاودنا سيرنا قبل الساعة السابعة ، وذهبنا لنرى المكان الذي اقام فيه قبل ثلاث سنوات الدكتور باندييرا (Bendiera) لحساب شركة زراعية من منطقة رجيو (Reggio) في ايطاليا . وكان هضبة صغيرة تحيط بها بعض الاراضي الصالحة للزراعة . وقد زرع الدكتور باندييرا فيها الذرة والخضراوات ، فالتهم الجراد نصف المحصول وأتى الجفاف على النصف الثاني ، ثم اصيب باندييرا نفسه بالحمى فهرب من هذا المكان وتوفي بعد أيام قليلة في بلدة كرن . وقد رأينا فوق قمة الهضبة الصحراوية ثلاث بيوت هزيلة قطنها ستة اشهر ، وحولها آثار حظيرة سياجها من شجر الكمثرى . ان هذا المكان المهجور ليبعث في النفس الحزن والاسى .

وحاولت ان تشد انتباهنا الارانب وطيور الدراج ، وفي هذه المنطقة والمناطق المجاورة الكثير منها . ويكسو طائر الدراج في ارتيريا ريش كريش الزرزور وتحيط بعينيه دائرتان حمراوان ، وهو ضخم كالدجاجة تقريبا .

ثم سرنا في طريق كسلت باتجاه اعالي سهول حلحل لنتابع اجتياز الوادي . فكانت تهرب منا اسراب الحمام واليمام من كل نوع ، وطيور الدراج التي كانت تركض دون ان تطير بين الاعشاب اليابسة والحجارة ولكن يصعب القبض عليها . وقد قتلنا العديد منها بعدئذ حين كنا نحتاج اليها لتجهيز طعامنا .

واجتزنا تلا منخفضا ، ثم نزلنا ثانية الى حوض سنكع (Sanca) على ارتفاع ٢٤٢٠ مترا فوق سطح البحر . وحين عبرنا قاع واد جاف شاهدنا اثنين من ابناء آوى لهما ذيلان غليظان كالذئاب . ثم اجتزنا طريقا ضيقة وعرة مليئة بالحجارة وفي التاسعة صباحا بدأنا نصعد مرتفع اريس (Eres) في درب معوج ووعر . وبعد ساعة تقريبا من الصعود المتعب وصلنا الى ارتفاع ١٧٨٠ مترا فوق سطح البحر ، فشاهدنا منظرا جبليا شاملا من القمم الحادة المخروطية . وهنا تكثر اشجار الطلح والتمر الهندي وشجر الرياس الشائك والافريون ، بينما اخذ عدد من البغاوات الصفراوات والزرقاوات تغرد على اغصانها .

وفي الساعة العاشرة وصلنا على ظهور البغال الى سهل في حلحل متوسط ارتفاعه ١٦٠٠ مترا ، وتسكنه قبائل عد قبشاي (Adgabscia)

وعد شيفا Adsciafa وعدد أفرادها ثلاثة آلاف ، وهي تزرع القليل من الذرة وتتعاطى رعي الماشية .

تبدو الارض هنا جيدة وصالحة لزراعة الشعير ، لكن ما ينقصها هو الميـاه . وبعد انقطاع الامطار تأتي عادة غزوات الجراد . وتتعرض المواشي للأمراض الرئوية لسببـين : أولهما عـدم وجود الملاجىء لهـا ، وثانيهما الاختلاف الكبير في درجات الحرارة بين الليل والنهـار .

على أن هذا السهل المرتفع يعتبر جنة صيد ، فقد رأينا فيه بعض قطعـان الماعز البرية وبعض الحيوانات الثديية الاخرى . أمـا الارانب واليمام والدجاج والحمام البري فلا تعد ولا تحصى . لكن لا مياه هنا . وفي العاشرة والنصف وصلنا الى حوض وادي انجوني (Inginni) الذي يقع على ارتفاع /١٧٧٠/ متراً فوق سطح البحر . وتمتد على حافة هذا الوادي أشجار الحماط (الجميز) وتقف على جوانبه في الظل بعض قطعان الابقار الصغيرة المحلية محدبة الظهر .

وقد جرت محاولة لزراعة الشعير والبطاطا على جوانب هذا الوادي، ولكن النجاح كان قليلا بسبب الجراد الابدي هنـا والجفاف الذي يكاد يكون أبدياً أيضـاً .

وبعد ساعة مـن السير وصلنا الى أسفل قرية قشلت وهي مركز منطقة عد قبشاي ، فتوقفنا قليلا على ارتفاع /١٧٦٠/ متراً وكانت درجة الحرارة /٣٠/ في ظل شجرتي حماط هائلتين . وأخذنا نشوى على حربتي بندقيتين وفوق الحجر صدور بعض طيور الدراج .

وهنا وصل بعض أعيان القبيلة لمقابلتنـا ، وكانوا شباباً وسيمي الشكل ولشعر رؤوسهم غرة بتجاعيد حول الرأس . وقالوا لنا أن زعيمهم جميـل نصور غير موجود لانه راح يجبي الضرائب ، وأنهم قـد حضروا ليسلموا علينا نيابة عنه . وأضافوا : شكراً لله وللايطاليين ، فقطعانهم قد كبرت وتحسنت أحوالها . ولما سئلوا عن معركة أغردات أجابوا أنهم علموا منذ عدة أيام أن أعداداً كبيرة من الدراويش بعدد الرمال قد قتلتهم قواتنا، لكنهم بدورهم سألونا : هل أرسلت الحكومة الايطالية قوات جديدة الى افريقيا ؟ لقد كان سؤالهم هذا تعبيراً عن ريبتهم وشكهم بقـدرة القوات الحالية الارتيرية وكفايتها لمواجهـة هجوم جديد للدراويش . ان هؤلاء ليسوا الوحيدين في المقاطعة الذين يفكرون كذلك .

وعاودنا سيرنا قبل الساعة الثانية ظهراً ، فاجتزنا بعد قشلت سهلا معوجاً ، خالياً من الاشجار ، مغطى فقط بالاعشاب اليابسة والخرشوف البري . وكانت حرارة الشمس ، على رغم ارتفاع المكان ، لاذعة حارة . وبعد السهل الاجرد عبرنا منطقة مليئة بالنباتات والاشجار الشائكة ، وكنا مع كل طلقة بندقية نصيب في الجو بعض أسراب المئات من الدجاج الفرعوني كبير الحجم الشبيه بالدجاج الذي نربيه في منازلنا .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، وصلنا الى آبار معادايت (Maadeit) ومررنا بأحد الجبال ، ثم دخلنا في سلسلة من أحراش الزيتون البري ذات الاحجام الضخمة التي تجعل المرء يتوهم بأنها تحمل كثيراً من الزيت . وهي تشكل منظراً خاصاً يختلف عن المنظر المعتاد الذي تحدثه عادة بعض الاشجار الصغيرة الشائكة الملتفة .

وأشرفنا في الساعة الرابعة على حوض رائع جداً يختلف عن الحوض الذي شاهدناه في بلدة كرن . وقد انتزع جماله من أفواهنا صرخات الاعجاب والسرور ، بينما كنا في منطقة عالية تطل على ما حولها . انه سهل حليب‌سو (Halebso) ومتوسط ارتفاعه /١٧٢٠/ متراً . وقد تناثرت فيه هنا وهناك قرى ماريا الحمراء وتحيط به قمم الجبال المستديرة القابلة للزراعة ، حيث يزرع الذرة والقمح والشعير ، وتعطي جميعها محصولا وفيراً اذا سلم من الجراد وكان الجفاف غير شديد . لقد ذكرت هذا من قبل ولا بد لي أن أعود فأردد ما قلته سابقاً . ويبلغ عدد سكان ماريا الحمراء حوالي الف وستمائة نسمة ، وهم من المسلمين الرعاة والمزارعين الذين يزرعون بالقدر الضئيل الذي يسد حاجاتهم .

وبينما كنا نهبط السهل قدمت الينا أسراب لا تحصى من الدجاج الفرعوني طواعية ، ويبدو أنها رغبت في تقديم نفسها قرباناً لنا على العشاء ، ولم يكن الامر يحتاج الى أكثر من طلقات معدودة حتى نحصل على ما يزيد على حاجاتنا . ثم عاودنا صعود جبال قشلت وعجب ، وتوقفنا في الخامسة والنصف بعد الظهر في سهل رها الذي يرتفع /١٧٨٠/ متراً عن سطح البحر ، ويقع بالقرب من قيادة منطقة ماريا الحمراء. ثم شرعنا ننصب الخيام تحت شجرة عوبلت بعوسا (Abela Boasa) وهي شجرة ضخمة ورائحة زهرها تشبه رائحة زهر شجر الطلح. وكانت بالقرب من هذا المكان بئر رأينا الى جانبه ظفر أسد . وقد أكد لنا الدليل الذي كان معنا ، وهو من سكان البلاد ، ان مياه البئر جيدة . وفي بركة

كان الزبد والرغوة المخضرة يعلو القسم السائل الساكن الذي تراه العين من الميـاه .

كان دفله بري (Dafle Beri) وهو زعيم ماريا الحمراء غائباً ، فقدم لنـا ممثله كالعادة ماعزا طهـاه الجنود المسلمون وأقاموا منه وليمة بينما كان الاحباش يحضرون غذاء لذيذاً من الدجاج الفرعوني .

وعندما غربت الشمس هبطت درجات الحرارة حتى العاشرة فوق الصفر ، وهي درجة حرارة قطبية بالنسبة لهذه البلاد .

ـ قهر (GHER) ، ٢٣ يناير (كانون الثاني) :

غادرناها في السادسة والنصف من صباح هـذا اليوم ، وقال لنا أحد الجنود المحليين ، الذي كان يتولى حراسة خيامنا ليلا ، ان ضبعا قدم ليلا ليشرب من بركة الماء . لقد كان هذا الضبع ، ولا ريب عطشا ، حتى اقترب الى بركة الماء بجانب النيران المشتعلة ليلا عند مخيمنا .

سلكنا من رها ممراً ضيقاً الى اليمين ، ثم خلفنا وراءنا أراضي ماريا الحمراء وسرنا الى عد تكليزان باتجاه نهر عنسبة . وقد لاحظنا ، علـى امتداد الطريق ، قبور قبيلة ماريا المبنيـة بعناية مـن الحجارة البيضاء والسوداء على شكل دوائر وضعت الشواهد الحجرية المكتوبة في وسطها وذلك على خلاف قبور قبيلة البغوص المبنية على شكل قباب .

ان ما ترتديه قبـائل الماريا يختلف عمـا يلبسه الاهالي في القرى المجاورة ، اذ لايرتدون سوى فوطة ، وهي ملاءة أو شرشف تلف أطراف الجسم بشكل فني فيلقون بأطرافه على الكتف الايسر ، كما يضعون في شعر رؤوسهم دبوساً طويلا من الخشب وعند الرسغين أكماماً هي أكياس صغيرة كتب عليهـا بعض الآيات القرآنيـة ، وينتعلـون الصنادل أحيانا ، ويتسلحون عندما يسافرون أو يحرسون قطعان ماشيتهم بالحربة والترس الجلدي . وتنبعث منهم رائحة خاصة لان جميعهم يضعون على رؤوسهم الزبدة أو شحوم الخراف .

والشباب منهم يجعـدون شعور رؤوسهم ويتركون خصلـة شعر تتدلى فوق مقدمة الوجه حتى يستحب منظرهم ويغدوا جميلين ، بيد أن جمالهم هذا جمال تخنث وترف . وهذه القبائل جميعها بدوية تقريبـاً لا يهمهـا أيـن تنصب أكواخها في هـذه المنطقة أو تلك ، ولا يتمتعـون

بالخصال الحربية كالشعوب التي تهمها أراضيها التي تزرعها وتدافع عنها. والحقيقة أن أفضل الجنود في ارتيريا هم من الاحباش أو السودانيين .

غادرنا سهل رها ، وسرنا بمحاذاة منطقة وعرة لا تنبت فيها سوى أشجار الصبار ، وقطعنا طريقاً ضيقة يبدو أنها قاع واد ، ثم انحدرنا في منطقة جافة تكثر فيها شجيرات العليق التي مزقت ثيابنا ، وهي جدباء لا يسمع فيها حتى صوت طائر واحـد .

وقد هجرت الحيوانات أيضاً هذا المكان المعروف باسم السهل المرتفع لمبر كانو (Member Canu) ، وكان من الافضل تسميته باسم آخر مثل البلقع أو الخراب اذ ليس فيه سوى الحجارة والاشواك . وتنتصب بعض الاكوام الحجرية الهائلة في وهادة كالاعمدة ، بينما سقطت أكوام اخرى ، فسدت الممر البدائي الموحش .

وفي الساعة الثامنة لمحنا أول كائن حي، وهو حيوان الدقدق (Digdig) الذي يشبه الوعل الصغير وله قوائم نحيفة جداً . وفي الساعة الثامنـة والنصف صعدنا سفحاً قصيراً فوجدنا مخيماً من ستة أكواخ أو سبعة لرعاة الماريا ، ورأينا بضع مئات من الابقار والاغنام والماعز ، فتقدمت منا تنبعث منها رائحة حادة لحليب خاثر ، وعيونها مصابة بالرمـد ، ويغطي أجسامها الذباب لان أصحابها لا يغسلونها أبداً .

وفي الساعة التاسعة هبطنا ثانية بضع مئات مـن الامتار في ممر ضيق بدا وكأنه أقيم خصيصاً لكسر عظم الرقبة . فكان علينا ، خلال أكثر من ساعة ، أن نتزحلق بدل أن نمشي وأخيراً وصلنا الى القـاع الجاف لوادي ماي ملح (Mai Male)، بعد أن كانت ركبنا ومرافقنا قد مزقتهـا رؤوس الحجارة والصخور . ولحسن حظنا كنا نشاهد الى يميننا أحياناً المناظر الخلابة البعيدة لوادي عنسبة الذي لاح لنا وكأنه واحة في صحراء لكثرة أشجاره الخضراء .

وفي الساعة العاشرة انطلقنا من ماي ملح الى وادٍ كبير شممنا فيه رائحة حادة طيبة كالمسك ورائحة أخرى كالتي تنبعث عادة من أقفاص الوحوش الضارية . وفي الطريق اصطدنا غزالين . وقبيل منتصف النهار وصلنا الى الضفة اليسرى من نهر عنسبة عند قهر حيث ينساب شريط دائم من الماء ، بين رمـال القاع العريض حـول شاطيء النهر الى حرش حقيقي لا يمكن المرور فيـه .

يا لها من فرحة أن نجد الماء بعد مسيرة شاقة بين الصخور . فأطفأنا ظمأنا ثم حفرنا في الرمال حوضاً صغيراً ، جعلنا منه حماماً فاخراً اغتسلنا فيه وسط قطعان الماعز التي كانت تنحدر لتشرب .

يدعى هذا المكان ، الذي تندفع منه مياه نهر عنسبة ، قهر . وعلى مسافة قريبة منه تقع القرية التي هي مركز منطقة (عد تكليزان) وتسمى عد تكليزان أيضاً . وفيها قبائل يبلغ تعداد أفرادها حوالي خمسة آلاف جميعهم تقريبا من الرعاة وهو يمتاز بجمال المناظر التي تحيط به وروعتها، وقد نصبنا خيامنا بالقرب من مجرى مائي صاف صغير ، تحت شجرة هائلة من أشجار الحماط ، وقررت ألا أتحرك من هذا المكان حتى يوم الغد. وراح الجنود يصنعون سريرين من أوراق الاشجار الخضراء . ولما أتى المساء وخيم الظلام ، قدمت ونحن نتناول طعام العشاء ، أسراب عديدة من طيور الحجل لتشرب من نهر عنسبة على بعد خطوات معدودة منا ، وقد اصطدنا العديد منها دون أن نتحرك من مكاننا .

وفي غضون ذلك أخذ الرجال يهيئون النيران الليلية . وكانت درجات الحرارة لطيفة لوجودنا أسفل السهل المرتفع ، والنجوم تضيء وتنير النباتات في هذه المنطقة الحارة ، بينما كانت الضفادع الكبيرة تنق بين الحشائش التي تغطي ضفتي نهر عنسبة .

ـ براقنتيا (Bragantia) ، ٢٤ يناير (كانون الثاني) :

انطلقنا فجر هذا اليوم من بلدة قهر في طريق عودتنا الى كرن . فسرنا بمحاذاة نهر عنسبة الذي هو حقاً واحة خضراء في وسط قفر من الصخور .

ويتوافد على ضفتي هذا النهر ، الذي يمتلىء بالمياه من حين لآخر ، الطيور والحيوانات من كل فصيلة ولون ، فتشاهد دائماً وفي وقت واحد الدجاج الفرعوني والدقدق والارانب واليمام وبنات آوى . وقد ترجلنا من فوق البغال لنطلق بعض الرصاصات ، الا اننا وقعنا في حيرة فلم نعرف ما نختار . فعلى مقربة منا كانت بعض أسراب الدجاج الفرعوني ، وطيور وحيوانات اخرى . وبينما كنا نهم باطلاق النار ، أشار الينا الرجال أن ثمة ، على الناحية اليمنى ، طير حباري كبير جداً ، بينما كانت الى اليمين مجموعة من القردة أخذت تختفي بين النباتات . ان هذا الشريط من مجرى نهر عنسبة أرض موعودة للصيادين ، ولكنه وللأسف لا يصلح لغير ذلك .

وفي هذه المناسبة علمت أن السلطة في بلدة مصوع أبرمت اتفاقاً مع أحد الاشخاص ، وأعتقد أنه يوناني ، لتصدير الحيوانات الضارية من ارتيريا . لذا فمن غير الممكن أن ينقل ايطالي مثلا نمراً صغيراً الى بلده دون أن يدفع رسماً الى المتعهد الوحيد المتفق معه ، والذي يحقق الارباح الطائلة بعد أن يدفع مبلغاً صغيراً من المال مقابل امتيازه .

والامتيازات والرخص من هذا النوع لا تقف عند هذا الحد ، فقد حصل شخص آخر على امتياز بيع بذور شجرة الخروع التي تعتبر من الاشجار النادرة ، ولكنها تنمو نمواً مدهشاً هنا في ارتيريا .

وحصل رجل ثالث على رخصة بيع نبات القندعي (Ghindae) الذي يكسوه زغب يمكن أن يصنع منه نوع من القطن .

وهناك شخص رابع ، هو أهمهم ، حاز على امتياز اقامة الطواحين من أجل القوات المسلحة لانه أقام مطحنة في بلدة مصوع . فبات مستحيلا، بسبب هذا الامتياز ، طحن القمح سواء في بلدة كرن أو في بلدة أسمرة وسواء في المراكز المأهولة بالسكان البيض أو في قواتنا المسلحة ، لان طحين القوات المسلحة يجب أن يؤتى به كله من بلدة مصوع . ويكفي القول أن الكيلو غرام الواحد من الخبز في بلدة كرن يكلف تسعين سنتيماً . ان هذه جميعها أمور تكاد لا تصدق لغرابتها .

ان السلطة في بلدة مصوع تخنق بهذه الطريقة كل مبادرة خاصة بدل ان تساعد نمو الصناعات القليلة الممكنة في مقاطعة ارتيريا وتطورها . وهي لم تفعل شيئا في هذه المدينة من أجل مستقبل البلاد ، أو أنها تصرفت ببطء غير مقبول . انني اتحدث عن ذلك بصورة خاصة ، وانا لا أعرف ولا أريد ان أعرف في عهد أي حاكم أعطي هؤلاء الافراد مثل هذه الامتيازات ، ولكني الاحظ فقط الوقائع واذكرها ، وسأعود الى رحلتي .

استرحنا قليلا مابين الساعة العاشرة والثانية عشرة ، تحت شجرة تمر هندي . ثم استأنفنا مسيرنا نحو اراضي قبيلة عدفسها (Adfesa) . وحين ابتعدنا عن مجرى نهر عنسبة وجدنا أنفسنا حالا ومرة اخرى ، في المناطق الجافة المعتادة المليئة بالصخور . كان الحر شديدا حتى ان مواسير البنادق التي نحملها كانت تحرق ايدينا . وفي الساعة الثانية بعد الظهر رأينا ثانية نهر عنسبة بضفتيه الخضراوين ، ثم أكوام الحجارة والاشواك طوال ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا الى قرية وليكو (Valico)

التابعة لقبيلة عدفسها . وهي تضم خمسين كوخا من القش بنيت فوق جبل . وسلكنا من هناك طريقا ضيقا تكثر فيه أشجار الابنوس . ثم اجتزنا واديا زرع اهالي عدفسها قسما منه ذرة . وحوالي الساعة الخامسة وصلنا الى قرية براقنتيا فعسكرنا الى جوارها .

كان حفيدالزعيم قد خطب هذا اليوم فتاة تسكن في قرية اخرى فأمضينا من ثمة سهرتنا بمشاهدة حفلة متواضعة . وأمام البيت الكبير ، الذي سيسكن فيه الزوجان ، كانت مجموعة من السكان ، رجالا ونساء وشبانا ، متشابكة الاذرع على شكل دائرة تهتز وتتحرك على لحن من وتيرة واحدة لطبل كان يقرع ، وهي تردد كلمة ولالي (Valelai) كلازمة تتكرر . لقد بدا منظرها شبيها بحزمة من السمك الطري .

ـ كرن ، ٢٥ يناير (كانون الثاني) :

غادرنا هذا الصباح بلدة براقنتيا ، وبعد أن سرنا ثلاث ساعات وصلنا الى بلدة كرن مرورا باراضي قبيلة بيت جوك حيث حقول الذرة الكثيرة وقطعان الماشية التي ترعى في الحقول .

وفيما يلي بعض الاحصائيات :

يقطن في منطقة كرن اجمالا ، وبحسب التعداد الذي جرى في نهاية عام ١٨٩٣ ، حوالي ٤٩٧٨٨ نسمة من ١٧ قبيلة ، أما القبائل الاكثر عددا فهي قبائل بغوص ، وماريا الحمراء ، وماريا الزرقاء وبني عامر وبيت توقي (Bet Tacque) . وهذه القبائل الاخيرة تنقسم الى ثلاث عشائر هي : عدفسها ، وعدقيشا ، وعدشيفا (Ad Schiafa) وتمتلك القبائل جميعها حوالي ٦٨ الف بقرة ، و (٣٤٩) الف عنزة وغنمة و (١٢) الف جمل ، وثلاثة آلاف مابين حصان وحمار وبغل . وتدين الغالبية العظمى منها بالاسلام ويعيش الرعاة والفلاحون في حالة بدائية ، حتى انني أشك في أن الحضارة سوف تستطيع انقاذهم مما هم فيه من وضع سيء .

لقد خرجت بانطباع اننا نقوم هنا بوظيفة الشرطي لنحميهم من الغزوات ، وان منطقة كرن لا يستفاد منها بشيء . وقد اشرت من قبل ، في هذه المذكرات ، الى ان الطريق نحو كسلا والخرطوم لن تكون آمنة ما لم يأتي اليوم الذي تقرر فيه انكلترا ابادة المهديين .

هل يستحق الامر منا أن نقوم باحتلال بلدة مصوع والاراضي التي

تتألف منها مقاطعة ارتيريا الحالية ؟ ان هذا الاحتلال سيبقى سرا غامضا لسياسة عالمية عليا .

ـ جلب (Gheleb) ، ٢٧ يناير (كانون الثاني) :

غادرنا بلدة كرن ، وبدل أن نسير في الطريق القديمة الى عدتكليزان وأسمرة سرنا في الطريق الضيقة الى جلب ومحلاب (Mehelab) لزيارة أراضي قبائل المنسع ، وهي من أصل حبشي ، ما عدا نبلائها الذين هم من أصل عربي ، وتعد نحو ثلاثة آلاف شخص . وهي مقسمة الى قبيلتين هما: بيت ابرهي (Beit Ebrae) وتقطن بلدة جلب ومنطقتها ، وبيت اشحتان (Beit Schiacan) وتقطن بلدة محلاب ومنطقتها .

ان أفراد هذه القبائل رعاة وفلاحون يزرعون الذرة والشعير مرتين في العام في سهول المطرى (Metri) العالية أثناء موسم الامطار . وهي منطقة خالية تماما من السكان ، وكان الدير القبطي في بيزن (Bizen) سابقا ، يجبي الضرائب عن الاراضي القابلة للزراعة . أما اليوم فان الحكومة الايطالية تؤجر الهكتار الواحد منها بستة عشر لير سنويا .

غادرت بلدة كرن في السابعة صباحا يرافقني ثلاثةجنود من الحرس، اذ كثيرا ما يتردد على التل المرتفع التابع للمنسع ، قاطع الطريق الفتوراري جبرو (Fitaurary Gabru) الذي خدم في صفوف قواتنا برتبة ضابط صف ، ثم فر منذ ثلاث أو أربع سنوات ليصبح لصا وزعيم عصابة من قطاع الطرق . كانت عصابته في بادىء الامر تتألف من عشرة أو اثنى عشر رجلا مسلحا بالبنادق ، ارتكبت بعض جرائم القتل ، أما الآن فقد انخفض عددها الى أربعة أشخاص أو خمسة ، وليس بعيدا أن يكون هو قاتل المسكين النقيب بتيني (Bettini) .

ان الطريق من كرن الى نسع ضيقة ووعرة تخترق منطقة جافة صخرية وترتفع حوالي (١٤٠٠) مترا عن سطح البحر ، كحوض بلدة كرن تماما . وقبل التاسعة مررت بنهر عنسبة ، وسرت بمحاذاته بعض الوقت، فكنت أصادف طيورا ضخمة سوداء اللون لها منقار كبير كانت تبتعد عني رويدا رويدا وببطء متثاقلة كما تفعل طيور الاوز الاهلية .

ثم اخترقت الطريق الضيقة التي نسير عليها بعض حقول الذرة التي زرعتها قبائل بغوص ببذور قدمتها الحكومة وكانت النبتات نادرة . ورأينا بعض الاشجار التي تدعى بالقديد المحشي بسبب طول وغرابة الثمار المعلقة على أغصانها وغرابتها .

وفي الحادية عشرة ، وبعد استراحة قصيرة عند بئر محبرة (Mahabara) تابعنا سيرنا بين جبال شتامو واشالدو (Ascialdu) وسط النباتات الشائكة . وبعد أن اجتزنا جزءا من الممر الصعب وصلنا الى قاع وادي ايبابا (Aibaba) وهو المكان الذي تبدأ منه أراضي المنسع.

ليس هنا ما يستحق ذكره ، ماعدا بعض القبور المربعة والمستديرة من الحجارة الداكنة ، مغطاة بقطع من أحجار الصوان البيضاء الناعمة . وكانت فراشات جميلة بيضاء ورؤوس أجنحتها حمراء تطير وسط النباتات على امتداد قاع وادي ايبابا . وكان أول من قابلت من قبيلة المنسع أربعة شبان مسلحين بالحراب والتروس يلفون أجسامهم بالفوطة وينتعلون الصنادل ، وكانت شعور رؤوسهم مقصوصة وقصيرة .

وعاودنا سيرنا في الثانية بعد الظهر بمحاذاة نهر ايبابا وضفافه المكسوة بأشجار الطلح وقشورها حمراء اللون وأشجار الغريبون التي تشبه القناديل ، الى أن وصلنا الى مكان يرتفع نحو الفي مترا فوق سطح البحر . ثم هبطنا منحدرا حادا في منطقة خاوية خالية من السكان ، حتى وصلنا في الساعة الرابعة سهل بلتا (Belta) ، الجميل الذي يرتفع حوالي (١٧٠٠) مترا عن سطح البحر وتحيط به سلاسل جبال رائعة الجمال . والى اليسار ارتفعت قمتان من بين القمم شابهتا المخروط الحاد الحقيقي، ولا يمكن ان يصعدهما البتة أحد .

وفي الوادي تناثرت بعض القبور وبعض الحقول التي زرعت ذرة فلم تعط محصولا وفيرا في هذا العام لتعرضها للجفاف . وكانت اسراب طيور الدراج تجوب المنطقة بين القش اليابس . ان قمم سلاسل جبال بلتا (Belta) صخرية وليس فيها حفنة من التراب ، وتنمو فيها فقط بعض أشجار الصبر والغريبون من خلال الشقوق الارضية .

وفي الخامسة هبطنا الى وادي شومرا (Sciomerad) المشجر ، حيث تكثر مجموعات البيوت . وسرنا نصف ساعة اخرى فوصلنا الى حوض جلب الصغير بديع المنظر الذي يرتفع (١٦٧٠) مترا فوق سطح البحر وتكسو جميع مرتفعاته وأعاليه أشجار الزيتون الاخضر ، حتى ليخال المرء نفسه في سويسرا .

ومن الامور الغريبة في هذا الحوض ان الصخور ترتفع فيه ستين أو سبعين مترا ، وبينها صخرة تنتصب مستقيمة منفردة كبرج

عملاق ، تعلوها صخرتان صغيرتان على شكل عمود في أعلاها ، وتدعى ولت حصى (Valet Atzai) وصخرة الاميرة . وتقول اسطورة ان هذه الصخرة كانت ابنة الملك ثم انقلبت الى صخرة بسبب بخلها لانها لم تمنح الفقراء أي شيء .

وفي قعر الوادي ثلاث بنايات صغيرة بيضاء بنتها البعثة السويدية على الطريقة الاوروبية . خصصت البناية الاولى منها ، وهي أكبرها ، مكانا للصلاة ولاقامة مدير البعثة السنيور كارلو كوستافورودن (Carlo Gustavo Roden) ، والبناية الثانية الصغيرة خصصت لايواء راع انجيلي وغرفة للاوروبيين المارين بهذه الديار ، أما البناية الثالثة والاخيرة فيقطنها الانجيليون المحليون مع اسرهم . وقد استقبلني السنيور رودين استقبالا لطيفا وقال لي ، فيما قاله ، ان جلب تعد نحو ٧٠٠ نسمة ، وان لدى البعثة ستة عشر شابا محليا يدرسون اللغة الايطالية ، بالاضافة الى أشياء اخرى .

يعيش السكان هنا على الرعي والزراعة ، وهم فقراء مساكين لا يعرفون اية صناعة ، ويحيكون فقط بعض الاردية الواسعة كالشال من ألياف بعض الشجر ، كما يصنعون بعض القراطل فيجعلونها مانعة للماء بدهنها بروث الحيوان . وهنالك في الاماكن المجاورة للبلد العديد من النسور . وفي العام الماضي قتل أحد هذه النسور طفلة محلية بالقرب من صخرة الاميرة ولت حصى . وقد سألت عن أخبار الفتوراري جبرو . فأجابني السنيور رودن : منذ شهور ، وهذا اللص يعيش على مايقدمه له بعض السكان من طعام . ومنذ سنتين ، وبينما كان أحد مبعوثينا مسافرا مع شاب من السكان المحليين هاجمته في الطريق المسماة مالدي (Maldi) عصابة جبرو . وبعد أن أطلقت عليهما عدة طلقات لم تصبهما قامت بتجريد مبعوثنا من كل شيء ، فأخذوا منه محفظة نقوده ، والبندقية وخاتمه وثيابه وتركوه بقميص وسروال فقط . وفي العام الماضي كان أحد رجالنا قادما من بلدة مصوع حاملا معه بعض الاشياء والامتعة من أجل البعثة فداهمته العصابة في الطريق وأخذت منه كل شيء ، ثم ربطته بشجرة ، وفي الليل انقضت الوحوش الضارية عليه وأكلته .

لقد بنى المبشر نلز هلاندر (Nils Hilamder) أبنية البعثة في بلدة جلب ، وهو الآن يسير على خطى النقيب بوتيغو (Bottego) ، فانتقل الى جوبا لتأسيس بعثة جديدة بالقرب من زنجبار ، ودخل الى قبائل الغالو (Gallo) .

وثمة عند المبشرين بئر عميقة أربعة عشر مترا ، وهو على بعد خطوات قليلة من منازلهم ، ولهم بالقرب منه حديقة . بيد أن القنافذ تأتي تقريبا على جميع الخضراوات ، ولا تترك لهم سوى الفليفلة الحمراء .

يقيم السنيور رودن هنا مع زوجته السويدية وابنته الشقراء التي ولدت في جلب وتترجم الى اللغة التيجرينية الكتاب المقدس والتوراة بذكاء ونباهة فائقين ، وهي تقارن النص باستمرار مع النصوص العبرية واليونانية واللاتينية والانكليزية والسويدية والايطالية ، كما جمعت أجمل الاغاني الشعبية لقبائل المنسع باللغة التيجرينية .

ان رئيس قبيلة بيت ابرهي ، وبالتالي منطقة منسع جلب ، هو مسيحي حبشي وصديق للبعثة ، لكن لاتعود عليه حصتة من الضرائب ، ومقدارها ١٠ ٪ الا بمائة لير في العام . وقد قال لي أحد أقربائه : ان الحكومة لا تمنحه شيئا ، بينما تمنح بعض الرؤساء رواتب مرتفعة لا يستحقونها ، فالدقلل التابع لقبيلة بني عامر يأخذ وحده (٥٠٠) لير شهريا بالاضافة الى العشرة بالمئة من الضرائب . وربما كان مرد هذا التباين في المعاملة الى ان زعيم جلب رجل مهذب ، بينما الزعماء ، الذين يتلقون رواتب اكبر ، هم من اللصوص والمخادعين . وتبعد جلب ، التي تعني ترسا ، عن بلدة كرن حوالي ٦٠ كيلو مترا .

ـ محلاب ، ٢٨ يناير (كانون الثاني) :

حضرت صباح هذا اليوم ، الاحد ، قداسا دينيا في بهو العبادة التابع لبعثة جلب ، والبهو ليس أكثر من غرفة صغيرة بسيطة جدا فيها ثلاث طاولات وبعض المقاعد التي تستعمل جميعها للمدرسة ايضا . وعلى الجدران خريطتان ولوحتان زيتيتان تمثلان يسوع وصعوده الى السماء ، وصورا لملك ايطاليا وملك السويد .

وعندما قرع الجرس في الساعة التاسعة حضر الى المكان اسقف انجيلي محلي من جلب كان قد ثقفته البعثة . والشبان الذين ثقفتهم البعثة نفسها جميعهم نظيفو المنظر يلتفون بالفوطة ناصعة البياض .

كان ثمة بعض الاهلين ، ومن بينهم خمس نساء يرتدين ملابس من القماش القطني الملون على الطريقة الاوروبية . وقد جلس الجميع على الارض ، باستثناء الاسقف ، وهم يفتحون كتبهم المطبوعة باللغة الحبشية ،

وبدأوا ينشدون التراتيل الدينية . ثم قرأ الاسقف باللغة التيجرينية وشرح المقاطع التالية للقديس ماثيو :

« ٣٥ ــ كان يسوع يذهب ويدور في جميع المدن والمنازل ، فيعلم في كنائسهم ويعظهم بتعاليم الانجيل ، ويشفي جميع الامراض وكل العاهات بين الناس » . وكانت انظار الشبان تتعلق بشفاه الاسقف الشاب الذي كان يتكلم بخشوع وحماسة بالغة .

كان المشهد بسيطا جدا ، يوحي للانسان الاوروبي الذي يراه للمرة الاولى بالاحترام والجاذبية . ومهما يكن من أمر فان البعثات التبشيرية ، وعلى الرغم من كل ما قد يقال عنها ، جديرة بكل تقدير واحترام . لان هؤلاء المبشرين يأتون الى هذه البقاع البعيدة كي يعلموا الانجيل دون أية أهداف سياسية (١) .

وبعد تناول طعام الافطار ، غادرت جلب متجها الى بلدة محلاب . وقد استدار الممر الضيق ، الذي سلكناه ، من وادي شومرات يسارا فحاذى سفوح الجبال الحرشية . ثم اجتزنا منطقة غير محرومة من المياه، فالتفت فيها الاشجار الضخمة الكثيرة فبات متعذرا دخولها ، وكثرت فيها الحيوانات الضخمة . وقد لمحنا قطيعا منها من ست اناث وذكر واحد في حجم الحصان وهو ذو قرون كبيرة . ان للفتوراري جبرو هنا أيضا ملجأ جميلا وأمينا كما في تبورزي (TIBURZI) في مونتاتو . ودرجات الحرارة لطيفة لا تتجاوز ٢٥ درجة مئوية .

ثم اجتزنا المنعطفات والمنحدرات اللطيفة والمحببة ، حيث تعلو أشجار الزيتون وأشجار الحماط الشاهقة . فاصدنا أحد حيوانات الدقدق وحوالي اثنى عشر من طيور الدراج لطعام العشاء . ووصلنا مساء الى أحد الوديان التي بنيت فيها بلدة محلاب ، وهي مركز ناحية منسع بيت اشحن (Mensa Beit Sciacan) .

ارسل السيد رودين الينا أحد الخدم ، وهو شاب من الحباب كان قبل اعتناقه الديانة المسيحية قاطع طريق . ففتح لي باب كوخ تابع للبعثة، وهو بيت متواضع يقع في مكان مرتفع ، يطل على البلدة وفي داخله صندوق صغير من الادوية يعالج بها مرضى القرية مرة واحدة في الاسبوع .

---

(١) ــ هذا غير صحيح ، لان التبشير والاستعمار متلازمان .

المترجم

لم يكن الزعيم القديم في محلاب ، فقد كان يحضر حفلة زفاف في الحبشة . فجاء أحد أبنائه ووفد من النبلاء يرتدون الالبسة الحمراء لتحيتي . وقدموا لي ماعزا وحليبا وأقراص انجيرا للجنود وقالوا العبارة المعتادة : شكرا لله وللايطاليين على اننا بخير . وترتفع بلدة محلاب نحو (١٦٥٠) مترا فوق سطح البحر . وقد انخفضت درجة الحرارة عند غروب الشمس داخل الكوخ الى ١٠ درجات فوق الصفر .

ـ عد تكليزان ٢٩ يناير (كانون الثاني) :

غادرت بلدة محلاب قبل السابعة صباحا هذا اليوم ، فسلكت الطريق أو الممر الذي يصل قمة جبل ايرا ، على ارتفاع (٢٥٠٠) مترا ، بالسفوح والسهول التي زرعتها الاشجار الصغيرة ، ومعظمها من أشجار الزيتون ، ومنها الصبار وأشجار اخرى كبيرة ذات أزهار حمراء وصفراء .

وصلنا في الساعة التاسعة والنصف الى عد تكليزان التي تحيط بها من كل جانب القمم المنتشرة الواسعة التي يعلو بعضها بعضا ويمكن مشاهدتها من هنا ، بينما يمكن مشاهدة حوض بلدة كرن الى الاسفل البعيد من ابنية القلعة البيضاء ، كما تشاهد القيادة والثكنات العسكرية الى الامام ، والى اليسار يمكن رؤية سهل الحباب وحتى البحر الاحمر .

وقد انحدرنا من سهل ايرا ، حيث تندر الاشجار وتنمو فقط بعض النباتات ، بهدوء . فكنا نشاهد الحقول التي زرعتها شعيرا قبائل المنسع . ووصلنا ظهرا الى الممر الضيق القريب من مالدى (MALDI) حيث يوجد مكان يسمى مقصاص (Mogassas) انشىء خصيصا ليكون كمينا . فتوقفنا هنا للاستراحةبالقربمن قرية وارا (Uara) التي تحيط بها أشجار الزيتون ، وعلى مقربة منا كانت بئر . وخيم بالقرب منا بعض السكان المحليين الذين كانوا يشقون طريق مالدى .

استرحنا قليلا ، وكان الى يميننا قرية بيت جبرو (Bet Gabru) وأراض متموجة قليلة الاحراش محرومة من المياه زرعت فيها الذرة . ثم صعدنا ثانية الى بلدة عد تكليزان فقضينا فيها ليلتنا . وهنا رأيت زوجة رئيس عنسبة الشهير الذي هو حاليا في سجن بلدة (عصب) ، لانه قتل طبيبا من سكان البلاد لم يكن يعرف كيف يعالجه ويشفيه من مرض ألم به ، اضافة الى بعض الاعمال السيئة الاخرى التي ارتكبها . وهذه الزوجة امرأة جميلة من قبيلة الحباب ، وفي خنصرها خاتم من ذهب ،

وهي رشيقة القامة ، الا انها قذرة شأنها في ذلك شأن جميع نساء بلدتها . وهي تعيش مع خادمين وثلاثة أطفال صغار ولديها قطيع من الماشية ثمنه ألفا لير ، أهدته لها الحكومة الايطالية بعد أن تم اعتقال زوجها .

وبينما كنا نتناول طعام العشاء في المساء على مائدة الضباط ، وصل نبأ مرور الفتوراري جبرو مع ثلاثة من رجالـه ، اثنان منهـم مسلحان ببندقيتين ، وهم على بعد ساعتي سير من المكان الذي نقيم فيه .

الفصل السادس

رحلة في منطقة المطري (Metri) قليلة الشهرة

ـ جبل جياجال (Monte Giagal) ، ٣١ يناير (كانون الثاني) :
ذكرت في احدى الصفحات الاخيرة من هذه المذكرات ان قسما من المنسع يزرع الحبوب من قمح وشعير في الشتاء ، حين تهطل الامطار ، بينما يسود الجفاف في السهول المرتفعة . وهكذا يتم الحصول على محصولين في العام الواحد ، ولو حدث أن أحد المحصولين قل بسبب الجراد أو بسبب شح المياه ، يبقى المحصول الآخر مصدرا للغلال .

تحتل منطقة مطرى (Metri) مساحات شاسعة ، وهي مهجورةتماما من السكان ، وتمتد من منطقة السهول المرتفعة حتى البحر ، وقد قسمت الى ثلاث مناطق يديرها ثلاثة ضباط مهمتهم منح السكان الحقول التي يرغبون في زراعتها . وهي تقاس بالحبال ، وتبلغ قيمة آجار الهكتار الواحد ستة عشر ليرا .

حدثني البارحة الملازم فولبشيلي الذي يقيم في بلدة عد تكليزان انه قد بلغ ايجار أحد الاقسام في العام الماضي اكثر من خمسين ألف لير لصالح الحكومة المستعمرة . فصرخت على التو : ان المطرى جنة صغيرة في أرتيريا . فأجاب الضابط : بالتأكيد ، ولكن هذا الامر لا يعرفه أحد ، فالمنطقة خصبة رائعة الجمال .

ـ اذن لنذهب لزيارتها اذا كان بالامكان ايجاد دليل من السكان العاملين بالزراعة هناك .

وأجاب الضابط بكل لطف بل سأرافقك بنفسي فأنت أول الصحفيين الذين يزورون هذه المنطقة من ارتيريا . ولو عرف رجالنا المستعمرون والمستوطنون هذه المنطقة تماما لوجهوا أنظارهم اليها قبل أي جزء من أجزاء البلاد الاخرى .

المكتبة الارترية

وهكذا فقد غادرنا عد تكليزان في السابعة من صباح اليوم . وعندما وصلنا الى قرية دقي محاري (Deca Mare) التي ترتفع (٢٣٠٠) مترا فوق سطح البحر نزلنا جبل دمبي جودا (Dembe Guda) وسلكنا طريقا منحدرا جدا . حتى اننا ترجلنا من على ظهور البغال ، اذ كان من المستحيل اجتياز هذا الطريق المنحدر دون انزلاق . وبعد ذلك قطعنا الوديان الجنوبية التي تتجه نحو حوض مالدى (Maldi). وعندما تركنا أراضي دمبزان (Dembesan) المحاذية لقاع الوادي الظليل ، صعدنا ثانية الى سلا امبا الاكو (Sella Amba Ellaco) التي ترتفع (٢٠٠٠) مترا . وكان الملازم فريرو (Ferrero) معسكرا هناك في ذلك الوقت مع فرقة من العمال التي تقوم بانشاء طريق مالدى .

أما طرقات المستعمرة فقد زودني الحاكم ، ونحن على ظهر الباخرة (Po) ، بالمعلومات التالية عنها : بالاضافة الى موضوع أمان الطرق وسلامتها ، فان الحكومة الارتيرية جادة في الزام سكان البلاد بانشاء الطرق واغناء المستعمرة بها .

ان الفكرة الاساسية التي قادت الجنرال (باراتييري) في تخطيط طرقات مستعمرة ارتيريا هي أن يتم وصل مصوع ببلدة اسمرة مرورا بكرن . حتى يتشكل بذلك مثلث يمكن أن تتصل به خطوط المواصلات المتجهة الى الحدود مع السودان من جهة والمتجهة الى الحبشة من جهة اخرى ، بالاضافة الى المواصلات الاخرى الداخلية المتجهة نحو الباب شمالا واكلي قوزاي جنوبا .

ان طريق مصوع ــ أسمرة مرورا بقندع (Chinda) لا تصل اسمرة بالمنطقة فقط ، وانما ، تعتبر أقصر طريق اتصال مابين التجراي وأواسط الحبشة وميناؤها الطبيعي على البحر الاحمر لامتدادها باتجاه وادي مأرب .

ثم أن طريق (مصوع ــ كرن) لن تكون مهمتها فتح وسط المستعمرة للتجارة والزراعة فقط وانما تصل الى بلدة اغردات وكسلا والى المناطق الغنية في السودان بامتدادها الى مابعد بلدة كرن . وهذا يسمح بالتغلب على المنافسة التجارية التي تهيؤها المواصلات مابين (كسلا ــ سواكن) .

واخيرا فان خط : (أسمرة ــ كرن) لن يكون هدفه وصل شطري المستعمرة ، الاول باتجاه السودان والآخر باتجاه سواكن . وانما يجب أن يمر بكل من دمبزان وكارنشيم (Carnesin) ليصل هاتين البلدتين المهمتين

المنتجتين مع شرايين المستعمرة وبالتالي مع مصوع .

ان القواعد والتعليمات التي يصدرها الحاكم الى وحدات الاشغال العامة لدراسة الطرق ، تنطلق من مبدأ أن هذه الطرق يجب أن تلبي في الوقت الحاضر حاجات وسائط النقل النادرة في البلاد ، وان تكون في المستقبل ، ودون اجراء أي تغيير في تخطيطها ، وسائط النقل التي تكفي لسد حاجات تلك الوسائل عندما يتزايد حجمها . لذلك ، وبغية كسب الوقت وتوفير النفقات في آن واحد ، يكفي أن يكون عرض الطريق في الوقت الحاضر ثلاثة أو ثلاثة أمتار ونصف المتر على أقل تقدير وبدون أعمال فنية اخرى من شأنها أن تزيد في الاعباء وتؤخر عمليات الانشاء والبناء . ولكن عندما تدعو الضرورة في المستقبل الى التوسع يجب أن تدرس من جديد العمليات الفنية التي سيجري تنفيذها بتطوير المخطط الحالي بشكل لا تزيد درجة الميل فيه عن ستة بالمئة .

ويتم انشاء الطرق المذكورة بصورة اقتصادية عن طريق تشغيل عمال ، من سكان البلاد المحليين ، يراقبهم الجنود والمشرفون على الاشغال العامة والقناصة الذين يديرهم ويشرف عليهم ضباط ايطاليون . وهكذا فان بالامكان ان تتناوب وحدات الجنود النظامية والمحلية بشكل دوري لاستمرار عمليات الانشاء . ويتقاضى الجنود الذين يعملون في هذه الاشغال بالطبع تعويضات معينة .

وهكذا فان الجنرال باراتييري يعتبر العمل مدرسة جيدة للتربية الى جانب كونها أفضل طريق لتثقيف السكان المحليين وتحضير المستعمرة على عكس ما كان يفعل الرومان من قبل .

فقد قام المارشال بوجو (Bugeaud) مثلا في الجزائر بشق جبال المستعمرة بواسطة شبكة من الطرقات على يد جنود فرنسيين وعمال جزائريين . وقام المارشال مارمو (Marmont) بعمل كبير جدا في دلماسيا (Dalmazia) أثناء الاحتلال الفرنسي لها . وذلك بأن منحها شبكة من المواصلات قام بانشائها الجنود .

وعلى كل حال فان الطرقات في المستعمرة تسهل حركة الاتصالات السريعة للقوات العسكرية ، كما تفيد التحصينات . وان من شأنها زيادة على ذلك أن تفرض احترام الشعب المحكوم للشعب الحاكم . كما ان انشاء الطرق في ارتيريا لا يكلف نفقات باهظة ، وذلك لعدم وجود استملاك

للاراضي فيها . فالطريق مابين (قندع ــ اسمرة) مثلا ، وطوله حوالي ٥٦ كيلو مترا لم يكلف بعد اجراء جميع العمليات الحسابية سوى ٢٢٥ الف لير بالرغم من انشائه في منطقة وعرة حول جبل أربع ربوع حيث يزيد ارتفاع بعض الاماكن عن (٩٠٠) مترا في قندع و (٢٤٦٠) مترا في بوابة الشيطان .

ان قسما من طريق (باللوا (Baloa) ــ عد تكليزان) على طريق (اسمرة ــ كرن) قد انشأته كله شركة نظامية محلية بقيادة الكابتن برسيكو (Persica) بطول قدره ٢٣ كيلو مترا ، ولم يكلف سوى ١٢ الف ليرا أعطيت منحا وهدايا للجنود الذين يتحمسون كثيرا في احداث أي طريق يمكن أن تستفيد منه التحركات العسكرية . وخلال شهور قلائل اكتسب الجنود خبرة كبيرة في حقل البناء والتجارة وغيرها ، حتى ان العديد منهم قد تعلم مهنة ما من خلال هذا الاسلوب في العمل .

ان طريق (مصوع ــ أسمرة) ، الذي يشكل القسم الاول منه طريقا مشتركا مع طريق (مصوع ــ كرن) ، أي طريق (مصوع ــ سحاتي) وطوله ٢٧ كيلو مترا ، تقطعه سكة حديدية . ومن سحاتي تمتد الطريق نحو قندع مرورا بدقدقتا (Digdigta) الوعرة ثم بالسهل المحرق في سبارقوما (Sabar Cuma) . وبعد مياه سبارقوما يرتفع الطريق من ٢٠٠ مترا الى ٩٠٠ مترا بسبب الطريق الصاعد في دونقولو (Dongolo) .

ان هذا القسم من الطريق قد تم انشاؤه ايام الجنرال بالدسيرا بغية ايجاد طريق يصل الى بلدة اسمرة . ولكن بسبب السرعة في العمل وبسبب الانحدار الشديد للارض ظهرت الانحدارات كبيرة جدا . حتى ان الانحدار يصل في بعض نقاطها الى ١٢ أو ١٤ بالمئة . وهي شاقة الى حد كبير بالنسبة لوسائط النقل المقطورة ، اذا ما قورنت بالطرقات التي صممت من قبل الحاكم الحالي ، والتي لا يزيد انحدارها على ٦ بالمئة كما ذكر آنفا . كما ان وحدات الاشغال العامة اجرت دراسة لاعادة بناء هذا القسم من الطريق حالما يتم انشاء المثلث .

يبدأ الطريق الجديد بالفعل في قندع تحت القلعة ، ثم يأخذ بالصعود رويدا رويدا على الجانب الذي تكثر فيه الاشجار ثم يتغلغل بين الجبال حتى وادي نبرت . ويطلق على هذا القسم من الطريق اسم الياسمين ، وهي تسمية على مسمى . ويتصل كل قسم من هذه الطريق بمورد للمياه، وتمتد على طول الوادي الحقول الخضر والاحراش بانحناءات بسيطة حتى

أسفل دير بيزن الشهير الذي يبدو من بعيد بسطحه الذي يعكس أشعة الشمس كالمرآة .

ينفصل من المنحنيات ما بين جبل بيزن وجبل (أربع ربوع) طريق يتجه قسم منه من وادي مأرب الى سراي وآخر الى أكلي قوزاي . وكلا الطريقين يمتد كطريق اقليمي من الطراز الاول باتجاه أواسط الحبشة . ويمتد الطريق الجديد صعودا على شكل خط منكسر على سفح جبل (اربع ربوع) . حتى ليستطيع الناظر ان يتأمل المناظر الممتدة حتى بلدة مصوع وحتى مجموعة جزر دهلك . ثم يدور الطريق حول جبل أربع ربوع ويستمر في الصعود بين أشجار الزيتون حتى يصل الى بوابة الشيطان ، ويتسم وينحدر نحو بلدة اسمرة . وقد دشن الحاكم هذه الطريق عندما نزل من اسمرة في اوائل شهر ايلول من ١٨٩٣ .

أما طريق (مصوع ــ كرن) فيتحول من سحاتي نحو قرية عايلت ، ويمر بسهل هذه القرية الكبيرة ويتغلغل صاعدا بين الجبال نحو منابع سيسرات ومن ثم يمر بحوض قلفينا (Galaviaina) ليصعد باستمرار حتى يصل الى حوض مالدى الرائع الجمال ، ثم الى الهضبة المسماة مقصاص (Magassas) والتي ترتفع ٢٢٠٠ مترا . ومن هنا ينحرف حتى بلدة عد تكليزان حتى يلتقي بالطريق القادم من بلدة اسمرة . اما فيما يتعلق بقسم طريق (عد تكليزان ــ بالوا) فقد تم الحديث عنه باعطاء مثل للعمل الذي تقوم به الشركات المحلية .

ان جزء الطريق من بالوا الى بلدة كرن ، وطوله ٢٦ كيلو مترا قد تم انشاؤه من جملة الاعمال التي نفذها باراتييري منذ عام ١٨٩٠ . أما طريق سحاتي ، المار من مقصاص ، التي ما زالت في طور الانشاء ، فيعتبر الجزء الاكثر صعوبة من جميع طرق ارتيريا بسبب وعورة الارض وبسبب تناوب الارتفاعات والانخفاضات فيها . ويشرف دوما على العمل الضابط فرورو مع ٥٠٠ عامل محلي وجنود ايطاليين . انها بلدة غريبة تقع في أمكنة متوحشة ويديرها على الدوام ضابط ايطالي .

وعلى رغم ارتفاع الجبال في هذه المنطقة والتطور العام للطريق من سحاتي الى كرن فان طولها بمجموعه ١٤٦ كيلو مترا . وبالتالي فان هذا الطريق يرتفع ببطء اكثر من الطريق الطويلة جدا لـ (لبكا (Lebca) وطولها ٢٢٠ كيلو مترا . وقد يفضلها بعضهم على طريق مالدى . ولا بد من ملاحظة ان طريق لبكا من مصوع الى العين (Ai Ain)، ولمسافة مرحلتين

كاملتين ، يجب أن يمر عبر الصحراء . لذلك يبقى بالنسبة للاوروبي غير سالك طوال عدة شهور في العام . ويبدأ من بلدة عد تكليزان القسم المشترك من طريق (اسمرة ــ كرن) مع طريق (مصوع ــ كرن) ويبلغ طوله حوالي ٥٤ كيلو مترا .

ولنعد الآن الى رحلتنا .

كانت لدي كل هذه المعلومات عن الطرقات في مقاطعة ارتيريا عندما وصلت اليوم الى طريق مالدى الذي لا يقل عرضه عن ثلاثة أمتار كما لايزيد انحداره ابدا عن ستة بالمئة .

ويخيل للناظر ، عندما يرى هذا الطريق المتعرج حول قمم هذه الجبال الشاهقة الارتفاع ، أنه أمام عمل جبار وجسيم . الا أنه في الوقت نفسه مرتفع التكاليف ولا يتناسب مع حركة السير ووسائل النقل المستعملة في المستعمرة حاليا . ان الميل المتوسط لهذا الطريق يتراوح بين أربعة وأربعة ونصف بالمئة . لهذا فهي طويلة جدا . أما السكان المحليون فانهم يستعملون الطرق القديمة المخصصة للحيوانات لعدم وجود آليات في هذه البلاد . وينشأ حاليا قسم من طريق قالفينا في سقاريا ، وطوله ثمانية كيلو مترات ، بواسطة ثلاثماية عامل محلي باجر يومي قدره ليرة واحدة ، بالاضافة الى عشرين حفارا أوروبيا بأجر يومي قدره أربع ليرات ونصف يوميا ، وثلاثون جنديا من وحدات الاشغال العامة . وفي كل مرة ينتهي فيها قسم من طريق ما ، تقوم على طرفيه قرى حقيقية مؤلفة من أكواخ السكان المحليين ذوي الاسر الكبيرة وهي تشبه بيوت القبائل البدوية .

ويمر نصف الطريق الذي ينشأ في الوقت الحاضر ، في منطقة صخرية . ولا بد من استعمال الالغام في عمليات الحفر ، لذا تسمع باستمرار أصوات الانفجارات التي يتردد صداها في الجبال المحيطة كما يسمع صدى ارتطام الصخور الهابطة نحو أعماق الوديان والتي يبلغ عمقها حوالي اربعمائة أو خمسمائة مترا .

وقد كشفت الالغام التي تستعمل في شق الطرق مؤخرا حفرة أرضية تتصل بكهف كبير جدا لم تشاهد نهايته ، أو يعرف كم من الحفر تتصل به في باطن الارض . وقد حاولنا معرفة بعد قاعها ، فألقينا بالحجارة فيها الا اننا لم نسمع صوت ارتطامها في القاع ، في حين كان يخرج هواء

ساخن من الشقوق الارضية المظلمة . وقد تم العثور أيضا بين قطع الحجارة المكسرة ، منذ عدة أيام ، على بعض عروق من المعادن التي سوف يجري تحليل عينات منها ، بالاضافة الى بعض الطبقات من الامينت .

استقبلنا الملازم فريرو في بلدة سيلا امبلاكو استقبالا وديا جدا . وبعد تناول طعام الافطار سافرنا من سيلا امبلاكو بمحاذاة السفوح الشرقية لدبرا افروس التي ترتفع (٢٤٥٦) مترا ، حيث دخلنا في منطقة (المطري) المجهولة ، وبهضبة منعك (Menac) . ثم مررنا بمنطقة عنكبل (Ensciabel) حيث تنطلق اغلبية الوديان التي تنقل مياهها الى جابا (Gaba) . وكنا نمر خلال ساعات سيرنا البطيء بمناطق مختلفة المناخ . فمن منطقة صيفية جافة الى منطقة ربيعية باردة . وكنا نرى الارض رطبة مغطاة بالعشب الاخضر تزينه ورود المرغريت الصفراء اللون وبعض الازهار البيضاء . بينما كان على الاشجار أوراق كبيرة غريبة تحوم فوقها أنواع الطيور الجميلة المغردة بأصواتها الرائعة كما يحدث عندنا في شهر أيار .

وبعد أن مررنا بجنوب جبل (دورا سوارا) (Dora Sciara) الذي يرتفع ٢٣٣١ مترا ، وصلنا الى يمين وادي قعقل (Giagal) حيث تغير الطقس تغيرا ملحوظا . كانت الاعشاب تصل حتى اذني البغال التي نمتطيها . وكنا لكثافة هذه الاعشاب وعلوها ، نبدو وكأننا نمخر عباب المحيط الاطلسي .

وتوقفنا للاستراحة حوالي الساعة الخامسة ، على ارتفاع ١٥٠٠ مترا ، في شعب صغير من جبل قعقل حيث الضباب الكثيف (مع الاشارة الى أن الضباب يتكرر في هذه المناطق في موسم الامطار) وحيث تمتد الى الغرب من هذا الوادي الصغير بعض السفوح المنعزلة التي تصلح لزراعة الشعير والذرة . وكان ميزان الحرارة يشير الى (٢١) درجة مئوية . وعلى مسافة قريبة من هذا المكان كان نبع دائم تحيط به أزهار بعض النباتات المتسلقة .

أمضينا ليلتنا في كوخين من القش ، مخصصين للملازم فوليشيلي عندما يحضر الى هذه المنطقة لمسح الحقول . ويحيط بهذين الكوخين حظيرة أو سور لحمايتهما من النمور التي تتواجد بكثرة في هذه المنطقة . وقد اصطاد الملازم فوليشيلي من حول الزريبة ثلاثة أو أربعة من هذه النمور بواسطة مصيدة وطنية توضع على أحد أغصان الاشجار ثم يربط

بجانبه ماعز يجذب صراخه الحيوانات الضارية .

كان هناك حوالي خمسين مواطنا جاؤوا لزراعة الحقول المجاورة . وعندما اقترب الظلام حضروا لتحية الملازم ، ثم اشعلوا النيران الكثيرة ليمضوا حولها ليلتهم . وهم يعودون الى قراهم حين ينتهون من زراعة أراضيهم ، ولا يأتون الى الحقول مرة اخرى الا عندما يحضرون لازالة الاعشاب الضارة بالمزروعات . ومن ثم لحراسة الشعير والذرة عند بداية نضجهما ، ولطرد الطيور والقردة والخنازير المتوحشة . وتمر في منطقة المطري غالبا بعض الفيلة القادمة من تجراي ومن دمبلاس (Dembelas) ثم تذهب الى المنسع والى بركة .

ـ قرهت اربع ، (Gret Arba) ، ١ فبراير (شباط) :

سرنا على الضفة اليمنى لنهر قعقل في ممر ضيق مغطى بالاعشاب التي تنبعث منها رائحة الازهار ، لنصعد صباحا الى قمة جبل كنتيباي (Cantibai) الذي يرتفع ١٦١٨ مترا ، ويشرف على مساحات واسعة من الحقول المزروعة على السفوح التي ترى بالرغم من وجود الضباب .

وتمتد منطقة المطري من هذا الجبل حتى عشرين كيلو مترا شمالا وستين كيلو مترا جنوبا ، حيث توجد الاراضي الصالحة للزراعة في كل مكان . وقد كان قسم من هذه الاراضي مهجورا في الماضي عندما كانت المطري تتبع الدير القبطي ومقره في بلدة بزن ، كما يدل على ذلك وجود جذوع الاشجار القديمة اليابسة هناك .

ومن المحتمل ان الحروب التي كانت تقضي على اعشار سكان المناطق المجاورة في كل عام ، كانت سبب اهمال هذه الاراضي ، وان المساحات الشاسعة من الاراضي الممتدة من كنتيباي باتجاه ميشيل ميتا (Miscil Micato) وجنال عباي (Ghinalaba) ولمنت (Lumnat) وداروكع (Daroca) مهملة ، لم يزرع فيها الا القليل في العامين الاخيرين وقد اعطت محاصيل ممتازة . ولو استمرت مثل هذه الاراضي في اعطاء مثل هذه الغلال لاصبحت المطري مخزنا للقمح في ارتيريا . هذا اذا لم يداهمها الجراد فينشر الخراب والدمار ، وهو أمر لم تكن تنجو منه حتى الآن ولما ترجلنا كانت ارجلنا مبتلة حتى الساق بسبب قطرات الندى التي تغطي النباتات والاعشاب التي كنا نمر بينها . فقد كنا نجتاز من آن لآخر حقول الذرة التي بدأت سنابلها تثمر (ويلاحظ بانه يتم زراعة الذرة

في السهول أولا ثم في الجبال ثانيا) . وحوالي الساعة العاشرة كنا قد وصلنا الى نبع تخلى هيمانوت الذي يشكل بعد مسافة أربعين مترا تقريبا، شلالا رائعا علوه ثمانية او تسعة أمتار . وبفعل الماء تشكلت بعض الطبقات على شكل تلال ووديان كبيرة تغمرها رائحة عطرة . ويأخذ النبع من الاعلى شكل قبة زرقاء تحيط بها الاشجار التي يزيد عمرها عن قرون .

ويقدس السكان ذوو المذهب القبطي هذه المياه . فهم يقدمون لها النذور ، حيث يشاهد اسفل النبع مئات العصي المغروزة في التراب وقد علق عليها العديد من الاساور المعدنية والسلاسل وأطواق اللؤلؤ البلورية. وهذا يشبه الى حد كبير تقديم النذور المقدسة للعذراء عندنا .

وبعد أن استرحنا قليلا تحت الظلال البديعة ، حيث درجة الحرارة ٢٦ مئوية ، اجتزنا أحد الاحراش . وعندما كنا نقترب من السهول كانت درجات الحرارة ترتفع والنباتات تصبح اكثر كثافة . وكثير من النباتات المتسلقة تلتف محيطة بالاشجار ، فتبدو لنا كأنها أشرعة السفن او ثعابين تلتف حول الاغصان . وثمة الكثير من نبات الهليون البري الذي يعلو بين الاعشاب الاخرى برؤوسه الخضراء .

وسرنا باتجاه سراس متبعين الممر الذي سلكناه في الصباح حتى وصلنا الى وادي فرانكنروت . ومن هناك اتجهنا نحو الشرق لقطع بعض المسافات القصيرة على ضفة نفس الوادي الذي تركناه الى يسارنا ، حتى وصلنا الى السهل الخصب (بيت كستان) الذي تكثر فيه زراعة الذرة الصفراء والذرة العادية . وفي حوالي الساعة الرابعة ، وصلنا الى واد صغير تجري في قاعه مياه نهر جرهت أربع الصافية .

نحن هنا الآن على ارتفاع ٤٠٠ مترا وميزان الحرارة يشير الى ٤٠ درجة تحت الشمس . لقد حجز لنا كوخان من القش على الضفة اليمنى ، وراح الجنود يعملون في تحضير طعام العشاء وتحضير اسرة التبن بينما قمنا نحن بالصيد .

يكثر هنا الماعز البري والدجاج الفرعوني ، كما يوجد طير الزرزور . وتكثر الضفادع بين الاعشاب فوق ضفة النهر . وما ان تغرب الشمس حتى تبدأ تنق على شكل جوقة مملة .

ولما ابتعدت قليلا أثناء الصيد باتجاه طريق ضيق يصل الى بلدة سحاتي ، بعد مسيرة يوم كامل ، وجدت في بعض حقول الذرة العديد

من صغار الجراد . وحدثني الملازم فوليشيلي بان هذه الجرادات غالبا ما تقضي عليها مياه الامطار قبل ان تحدث أضرارا . أما الجراد الذي يحدث الاضرار فهو أكبر سنا ويأتي على شكل سحاب . لكنني اعتقد أيضا أن هذه المناطق مهددة كغيرها بالاوبئة .

ـ سيلا امبالاكو ٢ فبراير ، (شباط) :

في السادسة من صباح هذا اليوم غادرنا جرهت أربع ، فصعدنا الوادي حتى وصلنا الى ملتقى دروكا مع جرهت أربع سالكين بذلك ممرا لا يمكننا أن نسرع الخطى منه لكثافة النباتات . وتابعنا سيرنا نحو الشمال. فصعدنا وادي جرهت أربع الرائع الذي تكثر فيه المياه ، حيث يزرع قسم منه بالذرة . ثم اجتزنا سهل تونغيا (Tunfla) الصغير الذي يرتفع ٤٤١ مترا . وقد زرع هو الآخر ايضا بالذرة . وذهبنا الى فلفل حيث تناولنا طعام الافطار ونحن جالسون على جذوع الاشجار التي يبلغ عمرها عدة قرون ، بينما كانت المياه تجري تحت أرجلنا . ويشاهد في فلفل الطريق الجديد الذي من المفروض أن يصل عما قريب بلدة كرن ببلدة سحاتي مرورا بحوض مالدى .

ثم بدأ المسير باتجاه الجنوب الشرقي ، فسرنا في الطريق الجديد تارة وببعض الممرات القصيرة تارة اخرى الى أن صعدنا الى جبل سعور (Savar) حيث تكثر أشجار البرتقال والليمون البري بالاضافة الى بعض الاشجار الاخرى. ومن هنا تسلقنا الطريق حتى وصلنا الى بلدة عدانا (Adenna) التي ترتفع ٢٠١٧ مترا . وما ان اتجهنا نحو الشمال الغربي حتى عدنا من جديد الى المكان الذي يخيم فيه الملازم فريرو .

ولو أوجزت الانطباعات التي تكونت لدي في هذه المرحلة خلال الايام الثلاثة الاخيرة ، لامكنني القول بالتأكيد بأن المطري تبدو وكأنها أرض الميعاد. وعندما يزورها المرء ، كما فعلت أنا ، بعد زيارته للسهل المرتفع والقاحل والحجري ، لوجدها تمتاز بمناخ لطيف ممطر مروي على مدار العام .

ان السكان الذين يعرفون جيدا هذه الاماكن ، يؤكدون بأن الجراد يجتاح أحيانا الجزء الاسفل من المطري ويبتعد عن المناطق الجبلية منها . ولو أن الجراد ابتعد عن المطري مستقبلا ، فانها ستصبح بلا شك واحدة من المناطق القليلة التي سوف تجعل بمنتجاتها ، مقاطعة ارتيريا أقل كلفة بالنسبة لدافعي الضرائب في ايطاليا .

الفصل السابع

مسيرة مع القوات

ـ اسمرة ، ٦ فبراير (شباط) :

عبرت البارحة منطقة دمبزان بهدوء كي أزور أسمرة ، فعلمت أن ثلاث سرايا من القوات المحلية ، بأمرة الكابتن جاليانو الذي كان يشغل منصب مقدم ، قد أمرت بالتوجه من اسمرة الى بلدة كرن .

ظننت في البداية ان المسألة تتعلق باجراء بعض التعديلات في المواقع العسكرية . وان سرية واحدة جديدة قد أرسلت الى بلدة اغردات لتبقى فيها بالاضافة الى السريتين الاخريين الموجودتين فيها . بيد انني علمت ، حين وصلت الى أسمرة ، انه تتوجه بالاضافة الى السرايا الثلاث من المشاة الى بلدة كرن في هذا الصباح بطارية الجبال بقيادة الكابتن بيانكيني (Bianchini) ونصف فرقة من الفرسان بقيادة الكابتن فراماريـن (Framarin).

ـ وسألت : هل هناك أخبار خطيرة من بلدة كسلا ؟

فأجبت : بالنسبة لقيادة هذه المنطقة لايمكن معرفة شيء بدقة . فالاوامر أعطيت لهذا الحشد الجديد من القوات بالانطلاق من بلدة مصوع . كما أن الحاكم نفسه سيتحرك غدا من مصوع بطريقه الى بلدة كرن برفقة الجنرال اريموندي . وتتعدد الافتراضات حول ذلك . فيقال انه يجب علينا أن نذهب الى كسلا لنفاجيء عثمان دقنه الذي ينتظر الخليفة هناك . ويقول آخرون انه وصل نبأ وفاة الخليفة ويجب علينا اغتنام الفرصة للتقدم نحو السودان بالاتفاق مع الانكليز . بينما يزعم آخرون ان الدراويش يستعدون للانطلاق من كسلا بعد أيام قليلة للقيام بحملة جديدة ضد ارتيريا ، واننا نستعد لاستقبالهم على حدودنا .

وبينما كانت تتردد مثل هذه الاحاديث ، وصل البارحة الى بلدة اسمرة الملازم سانفوينتي مع وحدة اكلي قوزاي المؤلفة من خمسمائة رجل بقيادة الكابتن بهتا حقوس (Bata Agos) شخصيا . وهذه الوحدة نمولها نحن ، ولديها ثلاثمائة بندقية ، ويخيل لمن يرى وصول هذه القوات أن هناك شيئا جديا يجري التحضير له .

ومما يعزز هذا الافتراض النبأ الذي وصل يوم أمس انه قد انطلق أيضا من سحاتي الى بلدة كرن المقدم فيولانتي مع سرية والمقدم تريتو (Turitto) من حرقيقو مع سريتين . وبما أنه ليس هناك أمل كبير في معرفة الحقيقة على الفور ، فقد خابرت أحد سكرتيري باراتييري راجيا اعلامي هل وردت بعض الانباء من بلدة اغردات ، لانني في مثل هذه الحالة سأعود الى الوراء . فأجبت على النحو التالي : « ان الحاكم يذهب الى اسمرة وكرن ويعود اجراء عرض للقوات في كرن ، ولا علاقة للامر باغردات » .

ان هذا النبأ قد أثار في اسمرة السخرية الشديدة . وقد صاح الناس : ما هذا العرض ، ان الوقت لم يعد يتطلب مسيرة الفي رجل بمصاريف يومية كبيرة من أجل عرض بسيط . ان وحدة بهتا حقوس وحدها تكلف في مسيرتها هذه خمسمائة لير يوميا اضافة الى النفقات العادية . وبدوري أجبت الذي اعلمني بالخبر من مصوع بأنني سأتابع القوات .

ـ عد تكليزان ، ٧ فبراير (شباط) :

ان انطلاق القوات من بلدة اسمرة في هذا الصباح قد اتخذ بالفعل منظرا رائعا . وكان أول المتقدمين في المسيرة كتيبة المشاة المحلية . وبينما كانت كل سرية تخرج من ميدانها المخصص لها ، كانت النساء ، سواء كن زوجات أو امهات أو أخوات للجنود ، تزغرد بشدة كما هي العادة هنا عندما يكون القتال بعيدا نوعا ما . وهن بذلك يشبهن نساء بيلي روسي (Pelli Rossi) وهن يطلقن صراخهن عندما يسافر محاربوهن الى ميدان القتال . ويتذكر هذا الصراخ الكثير ممن سمعه في مناسبة تمثيل وتقديم بوفالوبيل

أما الجنود الذين يعتقدون أنهم سوف يعودون لمقاتلة الدراويش فانهم فرحون للغاية ، وقد تسلح أكثرهم بخناجر أو سكاكين حبشية ذات

رأس حاد منحن . سألت أحدهم : ماذا تفعل بهذا الخنجر مادام لك قناع ودرع ؟ فأجاب : انه يلزمنا عندما نقع على الارض فلا نستطيع استعمال البندقية . وان الاحباش خاصة يفضلون القتال وجها لوجه وبالسلاح الابيض على استعمال البندقية . وفي الواقع فان زعماء بهتا حقوس يتسلحون بأسلحة مختلفة فهذا يحمل السيف ، وآخر يحمل الترس بينما يحمل شخص آخر الطج أي قدح الشراب ، وغيره يحمل القدح العظمي وهكذا دواليك .

وهناك شابان يحملان صندوقين فيهما لباساهما المخصصان للمعركة وقميصان بأكمام قصيرة من المخمل والحرير المطرز ذات الالوان الزاهية . وقبل دقائق من بدء المعركة يرتدي هؤلاء الزعماء البستهم الموحدة كما كان يفعل الفرسان القدامى ، فيلبسون القمصان ثم يضع بعضهم عصبة من الحرير على جبينه .

ان بهتا حقوس يعتنق المذهب الكاثوليكي . وعندما يتوقف للراحة أثناء المسيرة الطويلة تحت ظلال بعض الاشجار ، يحيط به عدد من الرجال المسلحين كحرس الشرف . وما أن يجلس حتى يحيط به الخدم ليقدم أحدهم اللحم المشوي والآخر يقطعه له قطعا صغيرة ، وآخر يقدم له كأس الطج ، ورابع يقدم له كأس الشراب المليء بالعسل المخمر مضافا اليه عطر بعض الاعشاب .

واخيرا ركب الجميع الخيول المصرية ، وانطلق الجنود وقوامهم نصف فرقة الى أسمرة وهم يضعون على رؤوسهم طرابيشهم الحمراء الرائعة التي تعلوها ريشة نسر ، بينما يحيط بهذه الطرابيش شريط زاهي الالوان عقد في جانبه ليتدلى على الناحية اليمنى من الوجه . أما اللباس العسكري للفرسان فهو كما وصفه بشكل دقيق الملازم جياردينو (Giardino). ويتسلح الفارس بالاضافة الى البندقية بسيف وترس من الجلد .

وبعد السرايا الثلاث انطلق في الساعة السادسة والنصف جنود المدفعية التابعون لبطارية بيانكيني مع حوالي خمسين بغلا تحمل أربعة من المدافع الجبلية والذخيرة . وكل عسكري مزود بست وتسعين طلقة ، ومع البطارية قنابل وسرابنيلز (Shroppnells) بكميات كبيرة .

والعجيب في هذه المدافع هو سرعة فكها وتركيبها : بحركة واحدة ينزل الجنود الدواليب من على البغال ، وبحركة ثانية الجسم ، وبحركة

ثالثة ، وخلال ثوان قليلة ، يصبح المدفع جاهزا للرمي . بينما تصبح جميع أجزاء المدفع بثلاث حركات اخرى ، محملة من جديد على البغال .

وهكذا فقد انطلق ايضا الخمسمائة رجل من اكلي قوزاي بمسيرة رائعة سريعة وبدون ترتيب ، بألبستهم الحمراء بينما لبس البعض منهم العباءات المصنوعة من جلود الماعز وبعض الوحوش الضارية ، وهم جميعهم مسلحون اما ببندقية رمنجتون أو فيتيرلي (Vetterly).

ان رئيس بهتا حقوس ، وهي الوحدة غير النظامية ، عبارة عن رجل جميل يناهز الخمسين عاما طويل القامة بدين وله شعر أجعد رمادي اللون قصير ولحيته أيضا قصيرة ، عاري الرأس ملفوف الجسم بثوب يشبه حلة القضاة في روما . وهو يتقدم بأبهة وكبرياء راكبا حصانه الذي تزين صدره صفائح نحاسية وغيرها . وسرج حصانه من الجلد الذي تزينه الرسوم المذهبة ، وهو يحمل طوقا مليئا بالاشياء التزيينية الفضية . ويتبع هذا الرئيس العديد من الاقارب والرؤساء الادنى منه مرتبة وعدد كبير من الخدم ، اثنان منهم يحملان البنادق . أما لباس الوحدة الارتيرية العسكرية فهو اللباس الذي كانت ترتديه الفرق الاستطلاعية في السابق ، ويتألف من سراويل من قماش أبيض مغلقة أسفل الركبة والقميص أبيض اللون أيضا مغلق الاطراف بواسطة شريط ملون من الصوف . أما الاسلحة فكانت الحربة والسيف وسكين صيد وقناع فرسان نموذج ١٨٧٠ .

ولباس المشاة المحليين بسيط هو الآخر ، وهو طربوش أحمر على الرأس وبنطال من القماش الابيض يصل الى ما تحت الركبة وقميص أبيض اللون ايضا مغلق الجوانب بشريط ملون صوفي يعلق عليه حزام من جلد لحمل الذخيرة اي الخرطوش . وأسلحتهم عبارة عن بندقية فيتيرلي نموذج ١٨٧٠ وخنجر وثمانين خرطوشة في الايام العادية ، منها أربعون خرطوشة في حاملة الخرطوش والاربعون الاخرى في علب الاحتياط .

وفيما يتعلق بلباس المدفعية المحلية فهو لا يختلف كثيرا عن لباس المشاة ، فهو بنفس لون لباس المدفعية الايطالية ، بالاضافة الى الالوان المتعددة في الشريط هناك اللون الاصفر . وهذا السلك مؤلف فقط من السودانيين الكبيري القامة والاكثر قوة عضلية ، وهذا غير متوفر في الاحباش ، ليكونوا اكثر قدرة على حمل وحدات الاسلحة الثقيلة ، وأكثر رزانة وهدوء اثناء المعركة .

يحدثني الملازم الطبيب موزيتي (Mozzetti) ان بعض الجنود المرضى

بالانفلونزا في بلدة اسمرة ما ان سمعوا بأن سراياهم سوف تذهب الى بلدة كرن ، لقتال جديد ، حتى تعافوا جميعا كالسحر وأسرع كل منهم للالتحاق بقطعته . أما الجنود الجرحى الذين لم يشفوا تماما بعد موقعة اغردات ، وكانوا في اجازة فقد تسارعوا يريدون السفر أيضا . وكما هو معروف هنا فالحرب بالنسبة لهؤلاء الشبان المحليين هي أفضل وسيلة للتسلية . وان مجرد فكرة قيادتهم الى معركة ما تبعث فيهم الشجاعة والنشوة وتجعلهم كالمجانين من الفرح والسرور .

أما أنا فكنت أسير في وسط الفرقة مع الفرسان أتأمل منظر الطابور المؤلف من مختلف أصناف الاسلحة ، وهو يسير بخفة وسرعة مثيرا سحابة من الغبار ، ويتلوى كثعبان ضخم على طول الطريق المتعرج المائل الذي تحيط به أشجار مختلفة تغطيها الورود الصفراء . وبعد استراحة قصيرة لتناول طعام الافطار في شومانجوس ، وصلنا الى عد تكليزان التي تبعد عن اسمرة حوالي سبعة وثلاثين كيلو مترا في الساعة الثالثة حيث قضينا ليلتنا فيها .

أما الضباط الذين يعرفون جيدا ان هذا الحشد الكبير انما هو لمعركة مع الدراويش فقد كانوا بشوشين ومسرورين جدا وراحوا يتمازحون وهم على مائدة العشاء .

وكذلك بالنسبة لسرية النقيب كوتا (Cotta) فقد حضر منها الى بلدة عد تكليزان جنديان جرحا في معركة اغردات وهما في فترة النقاهة ، أحدهما ما زالت رصاصة مستقرة في ساقه ، وقالا : ستذهب سريتنا ؟ اذن سنذهب نحن أيضا .

ـ كرن ، ٧ فبراير (شباط) :

قدمنا اليوم من بلدة عد تكليزان الى كرن وقد قطعنا المسافة بينهما ، وهي تبلغ خمسة وخمسين كيلو مترا ، في ثمان ساعات .

وتناولنا طعام الافطار في عيلا برعد حيث لحقت بنا السريتان القادمتان من سحاتي وكان المقدم تريتو (Turitto) مريضا بالانفلونزا ، ويسافر وحرارته مرتفعة ، على رأس كتيبة كما لو كان سليما معافى . كما ان ملازم الفرسان كاستلو (Castello) من نفس فرقة اسمرة كان يسير ودرجة حرارته تزيد عن الاربعين . وكان من المحتم أن يقعا من على حصانيهما اذا ما توقفا . وكانت النساء في جميع القرى المجاورة التي

مررنا بها تخرج لتطلق زغاريدها المعتادة التي تمتاز بها نساء سكان البلاد.

وعلى مقربة من بلدة كرن كانت القوات تتجمع وقوامها ألف وخمسمائة رجل تقريبا بالاضافة الى السرية التي سوف تصل غدا صباحا من سحاتي. وقد استقبل جميع هذه القوات العقيد الفارس كورتيس (Cortese) وبرفقته عدد كبير من الضباط .

ان أول شيء قمت به لدى دخولي كرن كان بالطبع سؤالي عن سبب الحشود . الا ان الناس هنا يجهلون السبب كما هو الحال في بلدة اسمرة والجميع بانتظار الحاكم الذي سيصل بعد غد حتى يعرفوا منه شيئا ما . وأكثرهم يعتقد ان المسألة ليست عبارة عن عرض بسيط للقوات فقط فهذا لا يستحق تلك الاوامر التي وصلت الى حد تجهيز الجمال العديدة . بينما استمر وصول الاحمال الكبيرة من الطحين للقوات من بلدة مصوع .

وكان لدى العقيد كورتيس معلومات تعتبر بالنسبة لي خبرا هاما وهي ان العميد ديانافيا (Dianavia) قد اتصل من اسمرة هاتفيا يقول ان البرقيات التي بعثت بها البارحة صباحا لن ترسل الى الاعلام ، لانها تتعلق بتحركات عسكرية . وقد حدثتني نفسي وأنا أحصي عدد القوات التي انطلقت الى كرن بأن المسألة ربما تكون مجرد عرض على الصعيد الرسمي . الا انني اعتقد ان الامر عبارة عن حشد جديد ضد الدراويش ، باعتبار ان البرقية قد حجزت . وبعد ان حجزت البرقية أصبحت أظن انه بعد العرض ربما كان لهذه القوات مهام أخرى غير ذلك .

ـ كـرن ، ٩ فبراير (شباط) :

وصل كل من حاكم ارتيريا الجنرال بأراتييري وقائد القوات المسلحة الجنرال اريموندي الى كرن اليوم ، وذهب لاستقبالهما عند قرية عبى مندل العقيد كورتيس والعديد من الضباط ونصف فرقة من الفرسان .

وقد أطلقت المدفعية خمس عشرة طلقة تحية لهما ، ثم دخل الحاكم في موكب مهيب ، بينما اصطف على طول الطريق الى كرن زعماء القبائل والقرى والعديد من الناس وجماعات كبيرة من النساء اللاتي كن يزغردن ويصفقن وهن يتمايلن بأجسادهن يمنة ويسرة . وكان بعض الزعماء مترجلين والبعض الآخر يركب على الخيول والبغال ويلبسون أحسن ما عندهم من الثياب الملونة الزاهية ، وقد تقدمتهم فرق الموسيقى بأبواقها

الطويلة والرفيعة المصنوعة من الجلد وبعض الآلات الموسيقية المحلية الاخرى .

كانت الساعة تشير الى السادسة عندما وصل الحاكم الى تنتاروا على بعد بضع دقائق من قلعة كرن . وقد اصطفت مابين كرن ومدخل القلعة القوات المسلحة عارضة سلاحها ، وهي تتألف من قوات محلية متواجدة حاليا في كرن وعدد عناصرها حوالي ٢٥٠٠ رجل يقودها مايربو عن ستين ضابطا ، باستثناء سرية استطلاع لم تكن من القوات المحلية . وكانت سرايا المشاة السبع ، مع فرقة ونصف الفرقة من الفرسان وبطاريتان مدفعية جبلية الى جانب المدافع السودانية وثماني مدافع تحملها البغال ، تشكل جميعها عرضا جميلا للقوات المتواجدة في مستعمرة ارتيريا .

بيد ان المنظر الاغرب من هذا كان منظر الوحدة غير النظامية اكلي قوزاي التي اصطفت هي الاخرى الى جانب القوات النظامية . وكان بهتا حقوس يرتدي لباسه الحربي الحريري والمخملي ، بينما كان اتباعه يلبسون ثيابا وقمصانا ملونة ، وقد وضع بعضهم على جبينه عصبة من جلد الاسد كانت تمنحهم هيئة متوحشة . وكان جنود اكلي قوزاي يقدمون السلاح عند مرور الحاكم وينحنون كثيرا وهم ينكسون بنادقهم .

سألت الحاكم بعد أن انتهت القوات من العرض أمامه ، ما أخبار كسلا ؟ اذ يعتقد جميع الضباط ان سيادتكم سوف تقودهم الى معركة ضد الدراويش .

فأجابني : في كسلا جنود للدراويش لايزيد عددهم على أربعة أو خمسة آلاف رجل وليس من المؤكد انهم قد استعادوا قوتهم بعد . كما ان الخليفة الذي ساءته هزيمة اغردات ، يود وبأي ثمن ان يرفع معنويات رجاله عن طريق الانتقام . غير انه بالرغم من التعصب الديني والقلق الذي ينتابه ، لايلاقي الكثير من التجاوب بين اتباعه . ومن جهة اخرى فان المهديين كانوا يخشون باستمرار هجوما ما عليهم من جهة وادي حلفا . لكن عثمان دقنة الذي لم يقبل بأن يخلف أحمد علي دعي الى الخرطوم ولديه رغبة عارمة في استرجاع اراضيه الواقعة ما بين اسفل بركة وعطبرة والتي يشاركه فيها الايطاليون ، ولكنه في حاجة الى بذل الجهود لتعزيز بلدة كسلا لاسيما وانه يخشى من احتلال الايطاليين لها .

سألت : أريد الحقيقة أيها الجنرال ، أتذهب الى بلدة كسلا الآن أم فيما بعد ؟

أجاب مبتسما : نعم ، ولو أن الحالة المادية تسمح بذلك لذهبت أحرق معقل هؤلاء المتعصبين بأقل النفقات لان المهديين بدون كسلا لا يمكنهم اطلاقا محاولة عمل أي شيء ضد ارتيريا . وسوف تكون الخرطوم والسنار مكشوفتين تماما بالاضافة الى فقدانهم منطقة الغضارف الخصبة التي تمدهم بالمؤونة .

ـ اذن فأنت لا تتوقع في الوقت الحاضر أي هجوم يشنه الدراويش على حدودنا ؟

ـ ولو انهم أرادوا التحرك ، ولسوف يفعلون ذلك يوما ما ، فلن يكون هذا التحرك قبل شهر يونيه (حزيران) ، أي بعد الامطار . الا انه يجب علينا دائما ان نكون على استعداد ضد أبي الهول الافريقي ، فاذا ما تم تجميع الآلاف من الدراويش برئاسة زعمائهم وبمبادراتهم الخاصة يكفي عند ذلك تحرك بسيط من قبلنا ليشكلوا قوة جنونية ، ويكفي ايضا موعظة عالم كبير او اشارة من السماء

وعلى اعتبار اننا أمام تجمع كبير للدراويش على الحدود ، فلا بد من اقامة خط دفاع هنا في كرن لمجابهة اي طارىء ، لاسيما اذا ما أقدم الدراويش مرة اخرى على سحق قواتنا التي لن تستطيع بالتأكيد مقاومتهم . الا ان قواتنا المنتشرة هنا وهناك ، بعد ان اجرت التمارين الجبلية والتدريبات التي لم يسبق لها ان قامت بها كما فعلت هذه المرة ، سيصبح باستطاعتها مواجهة الدراويش وتنظيم تحركاتها وفي الوقت الذي تتحسن فيه علاقاتنا مع التجراي ، فان البلاد لم تشهد الامان أو الهدوء منذ عدة شهور .

ـ كرن ، ١٢ فبراير (شباط) :

بدأت القوات التي حشدت هنا مناوراتها اليوم والتي ستستمر حتى ٢٨ من الشهر الجاري .

لقد خاب ظن الضباط الذين زحفوا الى هذه البلدة وهم متأكدون من انهم سيقاتلون الدراويش في الحال . ويقال ان الحاكم قد قادهم الى هنا بقصد الذهاب الى بلدة كسلا بغية احراقها ، لكن الوزارة لم تسمح له بذلك . وقد ارسل الى قلعة اغردات مدفعين من عيار تسعة وستصل مدافع اخرى بعد أيام قليلة اليها .

وقد سمح لي الحاكم بان ارسل البرقية ، التي تتعلق بحشد القوات، الى الصحافة اليوم ، وقال لي انه لم يسمح بارسالها في الاسبوع الماضي لان الوزارة لم تكن قد تسلمت بعد تقريره عن الحشد ذاته . وتقوم قيادة هذه المنطقة بانشاء وحدة غير نظامية قوامها خمسمائة رجل ، تتألف بمجموعها من جنود مسرحين سيتم دعوتهم الى السلاح فيما اذا تقدم الدراويش للقتال .

وقد اتيحت لي الفرصة اليوم للتحدث مع الجنرال اريموندي ، وهو يرى ايضا ان الدراويش ، اذا لم يهاجمونا فورا ، فلن يفعلوا ذلك قبل مضي أربعة أشهر بسبب الجفاف وبمناسبة الحديث عن المستعمرة ، بشكل عام ، حدثني قائد القوات المسلحة انه قد تمت اعمال اقتصادية عديدة ولا يزال هناك مجالات كثيرة للقيام بأعمال تجارية اخرى حالما ينتهي عام ١٨٩٤ .

واعتقد انه يعني بكلامه بعض العقود التي ابرمت ووقعت في روما بدلا من بلدة مصوع ، وتهدف هذه العقود الى اغناء بعض ممتهني التجارة القلائل على حساب الخدمات الاكثر أهمية . فمن المتوقع في هذا العام مثلا الانتهاء من ابرام عقد للنقل في المستعمرة ، يوفر اضعاف ما يكلفه تأجير البغال ، وقد تم ابرام هذا العقد في روما .

جرى ارسال النقيب اسبر فيكو (Spreafico) ليحل محل الملازم مياني (Miani) كضابط مقيم في بركة ما بين اغردات وكسلا ، ومهمته الرئيسية ، ان لم تكن الوحيدة ، هي جمع المعلومات عن تحركات الدراويش ونواياهم .

ان النبأ الذي يقول بأن السنيور انطونيللي (Antonelli) قد أعد مشروعا لتقليص الحدود الحالية للمستعمرة قد تعرض هنا لنقد كثير ، لان بعضهم يعتقد ان أي تقليص للحدود الحالية ،بعد التضحيات التي تمت ، يعتبر بحد ذاته وصمة عار . ففي بلدة كيرو مثلا ، كما يقول لي أحد الضباط ، « قمنا باعمال زراعية ، وبدل أن نقلص حدود المستعمرة ، أعتقد أن من الافضل اهداء هذه المنطقة كما هي لانكلترا » .

ويلاحظ بعضهم الآخر انه ، لوجود قلعة حصينة في بلدة كرن ، واخرى في اغردات ، يكفي ايجاد مكان متقدم مابين كرن واغردات . ويقول آخرون معقبين : « لكننا في اغردات خسرنا الكثير من دمائنا ، وهناك ثلاثة ضباط مدفونين فيها ، فيستحيل لذلك التخلي عنها » . وبالاضافة الى هذا كان هناك العديد من الآراء والافكار المتناقضة .

الفصل الثامن

تجارب فرانشيتي في منطقة أسمرة

ـ أسمرة ، ١٦ فبراير (شباط) :

وصلت من كرن الى اسمرة بعد مسيرة يومين ، وقد قابلت اثناء السفر قافلتين من الجمال محملتين بالشعير لتغذية حيوانات قوات الجيش المحتشدة ، وقافلة اخرى تحمل ألواحا من الحديد . ان هذه النقليات حسب العقد النافذ تكلف آلاف الآلاف من الليرات .

وقد رأيت في بلدة عد تكليزان ان الكوخ الكبير في أمبسا ، أي الاسد ، قد احترق ، وهو الذي تحدثت عنه في الفصول السابقة من مذكراتي هذه . ففي اليوم الذي مر فيه الحاكم من عد تكليزان وهو في طريقه الى كرن ، اشعل شاب يعمل في مطبخه ، دون انتباه ، النار في كوخ مجاور للكوخ الكبير ، وفي لحظة اشتعل هذا الكوخ وعلا منه اللهب الذي امتد الى الكوخ الكبير ، مما سبب دمار اكثر من مائة قنطار من الشعير ، وجميع المؤونة المخصصة للضباط ، بالاضافة الى كوخ مخصص للهدايا التي سيقدمها الحاكم الى بعض الرؤساء .

ولم يبق من الكوخ الضخم سوى جدارين يقفان دون سقف ، وهما يذكرانني على البعد بقلعة القديس انجلو (Sant'Angele) . كما شاهدت بالقرب من اسمرة مدفعين عيار تسعة كانا بطريقهما الى بلدة كرن ليكونا بديلين عن المدفعين اللذين ارسلا الى بلدة اغردات ، وكان يجر كلا منهما أربعة ثيران لن تستطيع قطع المسافة قبل اسبوع على الاقل . وبالاضافة الى ذلك كان هناك العديد من الجنود الذين يساعدون الثيران في دفع العجلات ، لان الطريق من اسمرة الى عد تكليزان لم تكن ممهدة لسير البغال .

واخيرا وصلت الى اسمرة اذ اصبح التوقف ممكنا فيها ، ويبلغ

عدد سكانها الاصليين مابين اربعة الى خمسة آلاف نسمة يسكنون أكواخ القش المعتادة . ان هذه البلدة تعتبر خط دفاع المقاطعة ، لذا جهزت بقلعة حصينة يصعب اقتحامها . وهي قلعة بالدسيرا (Baldissera) التي تحرسها في الاوقات العادية قوات مؤلفة من سريتين من القناصة البيض ، وثلاث سرايا اخرى من السكان المحليين ، ووحدة أشغال عامة ، ووحدة مدفعية وبطارية جبلية وفرقة من الفرسان .

ولم يبق من هذه القوات جميعها ، بسبب المناورة في كرن ، سوى السريتين المؤلفتين من جنود ايطاليين . ان بلدة اسمرة تقع فوق تل أجرد ، لذا لا يوجد فيها ما يجذب الناس سوى اعتدال مناخها ، لان هذا التل يرتفع ٢٣٠٠ مترا فوق سطح البحر . ويتوجه اليها في فصل الصيف لقضاء العطلة كل من الحاكم وكبار الموظفين في بلدة مصوع . وباستثناء الامكنة التي اقامتها حكومتنا من أجل المكاتب وقوات الحماية فليس في اسمرة شيء آخر يستحق الذكر .

أما بيوت الولا الشهيرة ، حيث كان يقطن الراس الولا الشرس الشره عندما كان حاكما للحماسين ، فليست سوى أكواخ أكبر من الاكواخ العادية ، بنيت على تل صغير واحيطت بجدار ضعيف . ويقع السوق على مساحة منبسطة من الارض حيث يحتشد حوالي خمسون مواطنا بين رجال ونساء يجلسون وبجانبهم بعض الاكياس التي تحتوي على الذرة والفليفلة الحمراء الجافة والبن من الصنف الرديء وبعض العقاقير .

وبين الاكواخ المتشابهة يبدو كوخ مخالف على شكل مربع هو كنيسة قبطية ، ويقف أمامها رجل عجوز يعرض الاجراس المؤلفة من ثلاث قطع حجرية معلقة بأسلاك من الحديد . وعلى جدران هذا المعبد المتواضع رسوم بعض الملائكة الغلاظ المسلحين بالسيوف .

اما الشيء الجميل الموجود في اسمرة فهو المدرسة التي يديرها الأب بنومي (Bonomi) المبشر الايطالي الذي سجنه الدراويش . وهنالك حوالي اثني عشر ولدا يتيما من سكان البلد داخل المدرسة يربون فيها ويتعلمون اللغة الايطالية . ومن بينهم ولدان او ثلاثة لا يزيد عمرهم على سبع أو ثمان سنوات تعلموا الكتابة تماما رغم قصر المدة التي ترددوا فيها على المدرسة .

وبمناسبة الحديث عن الدراويش يحدثني الأب بونومي بانهم لن

يغادروا بلدة كسلا قبل شهر يونيه (حزيران) لصعوبة ذلك . وبسبب قلة الامطار والمياه ، ويختتم حديثه قائلا : ان الشيء الوحيد الذي يؤلمهم وسوف يلحق الضرر بهم هو ارسال بعض وحداتنا في شهر يناير (أيار) القادم الى ما بعد اغردات والتظاهر بمهاجمتهم ، لان شهر مايو (أيار) هو الشهر الذي يزرع فيه السكان ، فلا يتمكن الدراويش من الاعتناء بحقولهم مما يسبب لهم الخسائر الفادحة .

وعلى ذكر الحقول المزروعة ، يوجد على بعد نصف ساعة من بلدة اسمرة المحطة الزراعية الاولى التي أسسها البارون فرانشيتي (Franchitti) فوق ستة وثلاثين هكتارا من الارض يزرعها ستة مزارعين بيض بمساعدة ستة عشر ثورا والعديد من السكان . وتدل التجارب التي اجريت حتى الآن على انه في هذه المنطقة السهلية ، تجود زراعة القمح والشعير واللوبياء والفول اذا لم تتعرض لغزوات عديدة من الجراد الذي يهاجم اشجار الكرمة وأشجار الفواكه . وعلى رغم العناية الكبيرة بهذه الاشجار فقد رأيت انها ضعيفة النمو ، وهذا يدعو الى الشفقة .

يتلقى العمال الايطاليون ليرتين في اليوم والطعام من الجنود البيض ، ولما سئلوا هل يريد هؤلاء العمال القيام بالاعمال الزراعية هذه لحسابهم اذا ما اتيحت لهم الفرصة واستطاعوا جلب عائلاتهم ؟ اجابوا : نعم ، ولكن من أين نوفر المال للسفر وللسكن ولمعدات العمل والثيران ولمتابعة العيش حتى يأتي وقت المحصول ؟

وهنا يكمن لب المشكلة : فلو فرضنا ان هذه السهول في اسمرة هي الارض الموعودة بالنسبة لزراعة القمح وبعض البقول الاخرى ، فلن يجرؤ أي فرد على القيام بزراعة ارض اعطيها مجانا دون ان يكون لديه بعض الآلاف من الليرات الايطالية لتأمين التجهيزات الزراعية اللازمة .

ـ عدى وقرى وجود وفلاسي ، ١٨ فبراير (شباط) :

يمكن قطع المسافة بين بلدة اسمرة وعدى وقرى وجود وفلاسي في تسع او عشر ساعات ، وذلك حسب سرعة او بطء سير الحيوانات . ويمتد لمسافة خمسة عشر كيلو مترا سهل أجرد . وليس ثمة على طول الطريق سوى بعض بقايا الهياكل العظمية لاناس بيض . ثم نجتاز منطقة متعرجة مغطاة بالنباتات وشجر الصبار وبعض الاشجار الصغيرة من الزيتون والطلح . وخلال نزولنا منحدر شيختي والسهل المرتفع اللذين يمتدان لمسافة ثلاثمائة

كيلو مترا تقريبا كنا نرى بوضوح تام مساحات كبيرة تمتد حتى مديرية سراي .

وتشاهد من بعيد جبال الحبشة المتميزة بقممها المسطحة . ويصادف المرء السكان المحليين في الطريق وهم يضعون قطعة من القماش عريضة حمراء قانية ، وكلهم ذوو مظهر حسن ومعطرون بعطور حادة الرائحة . ان هذه المناطق ، لم تتعرض للغزوات منذ فترة طويلة ، ويعيش سكانها حياة هادئة بفضلنا حيث نصبا من أنفسنا حراسا لهم .

غادرت اسمرة الساعة السابعة والنصف من قبل الظهر . وفي الساعة الثانية عشر كنت أقطع اعالي وادي نهر مأرب الذي كاد أن يجف تماما . وبعد استراحة قصيرة في ظل شجرة حماط عملاقة ترتفع بجانب قرية درساروا تابعنا السير خمس ساعات مارين في منطقة أقل اشجارا من غيرها حتى وصلنا الى بلدة عدى وقرى وجودوفلاسي .

تقع عدى وقرى فوق تل جميل محصن وترتفع ١٩٧٠ مترا فوق سطح البحر ، ويحيط بها من جهة زريبة ومن الجهة الاخرى سور يابس . وتتألف حاميتها من سرية قوات محلية بقيادة النقيب فولكي (Foloki) وبعض أفراد من الشرطة القلائل . كما ان فيها وحدتي مدفعية لتدريب الجنود كي يتمكنوا من استعمال المدافع الثلاثة الموجودة في القلعة .

وتقع على مسافة ثلاثة أرباع الساعة من السير من بلدة عدى وقرى القرية الصغيرة المسماة جودوفلاسي. والى اليمين منها تقع المحطة الزراعية التي انشأها الوزير فرانشيتي ، ومجموعة من الاكواخ واقعة في مكان يدعى زبانو ، حيث تقطن الاسر العشر البيض التي قدمت من ايطاليا لتشكل في ارتيريا القرية الايطالية الاولى .

وكما ذكرنا سابقا فقد اصبح من المعروف ان سهل مديرية سراي ، في جودوفلاسي قد يكون افضل من سهل اسمرة ، نتيجة للعديد من التجارب الزراعية التي اجريت في العامين الاخيرين . لذلك استقدم النائب فرانشيتي في العام المنصرم عشر اسر من منطقتي لومبارديا وماجينتا واسرتان من جزيرة صقلية والعاشرة من منطقة فريولي في ايطاليا. وتتألف كل اسرة من ثلاثة رجال صالحين للعمل وجميعهم تقريبا ارباب اسر ومتزوجون ولهم أولاد .

كانت زيارتي الاولى امس الى قرية زبانو حيث وجدت البيوت الايطالية المتجاورة التي تشكل قرية صغيرة فوق ارض سهلة واسعة ،

لكنها مبنية على الطريقة المحلية ، فجدرانها من الاحجار وسقفها من القش، ولكل اسرة بيتان : الاول للسكن والآخر للتجهيزات بالاضافة الى زريبة صغيرة للحيوانات .

وقد اعلمني رب اسرة صقلي ان كل اسرة من الاسر العشرة قد دفع لها مصاريف السفر واعطيت عشرين هكتارا من الارض الزراعية بالاضافة الى بعض الهيكتارات التي سوف تصبح ملكا لها بعد ان تفي بالتزاماتها العقدية . وفي العام الاول ، وقبل المحصول الاول ، تعيش جميع الاسر العشر على نفقة مكتب المستعمرة . حتى اذا حان موعد المحصول وجب عليها ان تدفع المبالغ التي سلفت لها من اجل النقل والطعام وقيمة المعدات الزرعية والحيوانات . وكانت كل عائلة من العائلات المذكورة قد اعطيت ستة ثيران وبقرتين ومحراثا وبعض المعدات الزراعية الاخرى .

ويتابع الصقلي :

« أما أنا ــ فغير نادم على مجيئي الى هنا ، فالمناخ جيد والارض تعد بالكثير والعمل يستمر طويلا ،لكنه سيكون أقل مستقبلا . أما خصوبة التربة فلا يمكن الحكم عليها الآن لاننا جئنا الى هنا في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) المنصرم ولا بد من انتظار المحصول الاول . الا ان زراعة القمح تجود في المحطة الزراعية المجاورة . ويجب ان نفكر في حجم الخسائر التي سوف يسببها الجراد الذي لا يأتي دائما كما يؤكدون لنا .

وسألت : ما نوعية الطعام الذي يقدمونه لكم ؟ فأجاب : الخبز والبطاطا والخضار والبقول والزيت والسمن والملح . وربما كان ذلك كافيا على رغم نقص اللحم . ولكنه في بعض الاحيان لايكفي ، فمثلا زوجتي قد هبط وزنها منذ اربعة ايام وتحتاج الى شيء من مرقة اللحم .

وقد قال لي رب اسرة اخرى من منطقة لومبارديا الشيء نفسه تقريبا: ان الارض جيدة ويشتغل المستوطنون باخلاص ، رغم عدم توفر وسائل الراحة وحاجتهم الى الدجاج والماعز ، بيد ان الادارة لا ترغب في منحهم كل ذلك الا بعد المحصول الاول . ويختتم القول : ان هذه الاشياء لا قيمة لها الآن ولا بد من الصبر والمعاناة بعض الشيء في العام الاول .

ويشتكي ثالث من أنه لا يستطيع أن يجد البارود والرصاص في الوقت الذي تكثر فيه حوله طيور الدراج والزرزور وأفراخ الحباري . وباختصار ... فقد تعرفت على العديد من المستوطنين ، وسألتهم : على

العموم أأنتم مسرورون ؟ فأجابوا : نعم في الوقت الحاضر ، ولكن قبل موعد المحصول لا يمكن ان نتكهن بشيء حول المستقبل .

ويقول رب اسرة من منطقة فريولي بايطاليا ، يبدو انه اكثر فلسفة وثقة من الجميع : الحرارة معتدلة هنا والارض جيدة ، والقابلية للطعام لا بأس بها فلو هاجمنا الجراد فسوف نعمل على مكافحته واجباره على الفرار .

وهنالك في مركز القرية الصغيرة فرنان ، اما الماء فبعيد تقريبا . بيد ان الادارة وعدت بحفر بئر في مكان قريب . ويعمل المستوطنون الايطاليون كل ايام الاسبوع عدا يوم الاحد ، ويجتمعون عند المساء بعض الوقت ثم تأوى كل عائلة الى بيتها الخاص . وحتى الآن لم يتعرضوا لاي ازعاج من الضباع وبنات آوى ، وهي عديدة في المناطق المجاورة لهم . وعندما سيكون لديهم بعض الدجاج والماعز فان خير مايفعلونه هو اقامة أسوار مناسبة لاكواخهم ، وسوف تقوم كل عائلة بحراثة ستة هكتارات أو سبعة من أصل عشرين هكتارا يمتلكونها . ان هؤلاء لعدم وجود طبيب يلجأوون الى القلعة في عدى وقرى حيث توجد صيدلية صغيرة واحدة للضباط للمعالجة .

وعما قريب ستتزوج فتاة ، هي ابنة احد المستعمرين الصقليين ، من زميل لها يعمل هنا مع ابيه . وسيكون الزواج الاول الذي يحتفل به في المستعمرة . ولمباركة هذا القران سيتم استدعاء الأب جانوني ، وهو أحد الكهنة الايطاليين من مصوع . ويتمتع الايطاليون الموجودون هنا بصحة جسدية جيدة ، باستثناء بعض الاطفال الذين اصيبوا ببعض الالتهابات في العين .

وقد طلبت الاطلاع على العقود التي ابرمت مع حاكم ارتيريا ومع معالي الموفد السينيور فرانشيتي . وعلمت انه يتحتم على كل رب اسرة أن يسكن على الدوام مع ذويه حتى غاية عام ١٨٩٨ في البيوت التي سلمت اليه أو التي سيبنيها فوق العشرين هكتارا المعطاة له ، وان يقوم بزراعة الارض المسلمة اليه هو نفسه وكافة أفراد اسرته القادرين على العمل بالاضافة الى الحيوانات المعطاة له . اما المحصول الذي سيجنيه من الارض فهو له ولاسرته .

وعندما يقوم رب الاسرة بكل هذه الالتزامات يصبح هو المالك النهائي للارض المقتطعة له ، بينما يفقد كل حق له ولا يمكنه المطالبة بأي تعويض

أو مكافأة مقابل ماقام به من أعمال تحسينية في الارض المعطاة له اذا هجر الزراعة ومكان الاقامة قبل ٣١ ديسمبر (كانون الاول) من عام ١٨٩٨ ، بلا عذر او قوة قاهرة معترف بها .

ان أرباب هذه الاسر يشكلون مع زوجاتهم وأولادهم المزارعين الاوائل الذين قدموا الى المستعمرة للاقامة الطويلة . وكل اسرة يمكنها ان تمتلك سكنين من النوع المحلي بالاضافة الى مساحة قدرها مئة متر مربع تلحق بهما بصورة مجانية حتى غاية عام ١٩٠٠ دون أن تتحمل نفقات انشائهما . لكنها تلتزم بالعناية بهما وتسلمهما في ٣١ ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٠٠ في حالة جيدة وقابلة للسكن .

وقبل هذا التاريخ يتوجب على رب العائلة ان يبني على العقار أو الارض المعطاة لهالابنية التي يحتاج اليها . وتسجل جميع السلف المتعلقة بنفقات السفر وثمن الماشية والتجهيزات والاعلاف والبذار وكل مايتعلق بالعناية بالاسرة المستعمرة دينا عليه في كتيب خاص بالمستعمرة ، وتؤخذ على هذه النفقات فائدة سنوية مقدارها ٣ ٪ . ويقوم مكتب الاستعمار (الاستيطان) بقبض السلف المدفوعة على النحو التالي :

آ ــ يسحب ، ابتداء من المحصول الثاني الذي يلي تسليم الارض ، نصف جميع منتجات الارض على أن يكون نصف الانتاج المسلم من المنتوجات الصناعية كالتبغ مثلا .. الخ ثم يقوم مكتب الاستعمار ببيع هذه المنتجات بعقود جاهزة او بالمزاد العلني ان أمكن وفي أقرب مكان يوجد فيه مشتر .

ب ــ ويستطيع هذا المكتب ايضا ان يتسلم منتجات الماشية مثل الصوف والحليب والزبدة والجبنة والجلود .

جـ ــ كما يبيع أو يسحب جميع الحيوانات التي تزيد عن العدد المعطى والتي تعتبر زائدة عن حسابات رب الاسرة المتعاقد .

وحين يسدد رب الاسرة المتعاقد مع مكتب الاستيطان دينه يتوقف أي التزام عليه تجاه المكتب وتصبح ادارة اعماله وزراعاته من شأنه هو . كذلك تعفى الارض المعطاة لرب الاسرة المتعاقد ، لمدة عشر سنوات تبدأ من الاول من شهر يناير (كانون الثاني) ١٨٩٤ ، من ضريبة العقارات والضريبة الاضافية على المزروعات الخاصة والحصر . وحين يصاب رب العائلة او فرد من اسرته بمرض خطير ، تتم معالجة المريض ونقله الى مستوصف اسمرة على نفقة مكتب الاستعمار او الاستيطان .

هذه هي الاحكام العامة للعقد مابين الحاكم والمستوطنين ، وهناك عقد آخر مابين رب الاسرة وكل من العاملين الاثنين الملحقين به (على اعتبار ان كل اسرة يجب ان تكون مؤلفة من ثلاثة عمال على الاقل ، قادرين على العمل) . ويتضمن هذا العقد المواد الرئيسية التالية :

« المادة الثانية : يتوجب على الشخص الملحق برب الاسرة أن يطيعه طاعة تامة ، كما ان لهذا الملحق جميع حقوق وواجبات الابن . وتطبق عليه العناية الصحية الخاصة برب الاسرة في حال مرضه ، وكذلك الحال بالنسبة للطعام وعمل رب الاسرة .

« المادة الرابعة : إن الاموال النقدية الناتجة عن الارض وغير المسددة للدين المستلف او غير المستعملة لسد حاجات أشخاص الاسرة العادية أو للارض ، تقسم الى عدة حصص وفاقا للعدد الذي تتألف منه الاسرة والملحقين بها بغض النظر عن العمر والجنس . وان لكل ملحق الحق في حصة من الحصص الآنفة الذكر » .

« المادة الخامسة : يبقى كل من رب الاسرة وملحقيه المتعاقدين ملتزمين ، حتى تاريخ التسديد الكامل للدين ، تجاه مكتب الاستيطان ، والى أن يصرح بأن الارض قد أصبحت ملكا لرب الاسرة » .

« المادة السادسة : وعندما تنتهي الآجال المبينة في المادة السابقة ، يمكن أن يتم تسريح الملحق او المشترك في الحال . بيد ان رب الاسرة لايستطيع ان يسرح الملحق قبل مضي ثلاث سنوات ، الا اذا تمرد هذا على رب الاسرة أو أظهر تكاسلا واهمالا او سوء تصرف وعدم اخلاص ، وعندها يتوقف رب الاسرة عن تقديم الخدمات اللازمة له . وفي هذه الحالة يجب أن يتم التسريح بحكم تصدره محكمة ايطالية محلية بدائية مدنية » .

« المادة السابعة : وعند استحقاق أو مرور المهل المحددة في المادة الخامسة السابقة ، وفي حال زواج المشترك (او الملحق) زواجا شرعيا من امرأة أوروبية وتسلمه من الدولة أرضا ، يترتب على رب الاسرة تسليفه رأس المال اللازم للتجهيزات الاولى بالفائدة نفسها وضمن الشروط والطرق المحددة في العقد المبرم مابين رب الاسرة ومكتب الاستيطان » .

هذا ويبلغ متوسط نفقات الانتقال لكل اسرة من الاسر العشر من ايطاليا الى هنا مابين ثمانمائة الى تسعماية لير . وتكلف اعاشة العائلة الواحدة حاليا مئة لير في الشهر . وعلى ذلك يبلغ الانفاق على كل اسرة

حتى بدء المحصول ، مابين ثلاثة آلاف الى اربعة آلاف لير ، منها ثمن الماشية ومعدات العمل .

ان هذه النفقات ليست مرتفعة ، لان الاسر ، اذا كانت الغلال جيدة ، تستطيع أن تدفع ديونها في وقت مبكر ويصبح كل شيء ملكا لها . وبذلك تشكل قرية صغيرة ، ثم تأخذ تدعو معارفها من ايطاليا وتزداد بذلك الاسر المستوطنة . لقد قال لي بعض المتشائمين : يستمر هطول الامطار الغزيرة هنا طوال شهرين فتجعل من السهول بحيرة حقيقية ما تلبث أن تجف تاركة مستنقعا من الوحل . واضاف : ولو فرضنا ان القمح نما فسوف يجتاح الجراد القسم الاعظم منه . ولو فرضنا ان المحصول كان جيدا ، فأين سيباع ونحن في منطقة مهجورة واسعة وبلا طرقات . ان أقرب مكان منا هو بلدة أسمرة التي تبعد عنا عشر ساعات سيرا على الاقدام .

أما العاملون في المحطة الزراعية المجاورة فيؤكدون ان الجراد ، استنادا الى التجارب التي اجريت ، لا يأتي دوما ، ولو اتى فيمكن طرده . وان هذه السهول جميعها قابلة لزراعة الشعير والقمح والخضراوات ، ومن الممكن تسويق المنتجات بسهولة ويسر .

وأمام هذه الآراء المتضاربة لا استطيع أن أدلي برأي بل سأنتظر متمنيا محاصيل طيبة لهؤلاء المستوطنين الايطاليين الاوائل . على انه ليس من المستبعد ، على رغم تدمير نصف المحصول ، سواء بحبات البرد المتساقطة من السماء او الجراد ، ان تحقق الاسر العشر بعض الارباح وتحيا حياة حسنة وهي تسدد ديونها .

وعلى ذلك يمكن ، بعد حوالي عامين ، ان تأتي ، مؤكدا ، من ايطاليا مئات ومئات الاسر الجديدة لتستوطن خير الاراضي في ارتيريا وأفضلها . واذا حدث ذلك فهل ستقوم الدولة بدفع السلف لجميع هؤلاء الاسر ؟ هنا يكمن السؤال . ولا أريد أن أشير هنا الى أن العديد من القبائل والاسر في كل مكان في ارتيريا تقريبا تقول ان هذه الاراضي ، التي يراد استثمارها ، هي ملك لها وتطالب بها . ومهما يكن من أمر فان هذه التجربة الاولى في الاستيطان الايطالي في بلدة زبانو شيء ممتاز وتعتبر خير استثمار بالمقارنة مع النفقات الهائلة التي تصرفها الدولة عن طريق السنيور فرانشيتي .

ـ جودوفلاسي ـ ١٩ فبراير (شباط) :

ليست المحطة الزراعية في جودوفلاسي التي أسسها منذ عامين السيد فرانشيتي ، سوى مجموعة من الاسطبلات والاكواخ المغطاة بالقش،

وتحيط بها بعض الهيكتارات من الاراضي التي تقام عليها الاختبارات والتجارب من كل نوع . لقد اعطى بعضها نتائج طيبة بينما لم يعط بعضها الآخر اية نتائج . فشجيرات البن مثلا لم تنبت بسبب الجفاف الكبير . كما غطيت النباتات النامية في المساكب بحواجز من القش لحمايتها من الشمس والعوامل الجوية الاخرى .

وتجدر الاشارة هنا الى ان زراعة التبغ تجود في هذه المناطق الى درجة كبيرة . واذا كانت نوعية أوراقه محببة ومفضلة تجاريا يمكن زراعة مساحات شاسعة منه لان الجراد لا يهاجمه . ومن الاشجار والنباتات غير السنوية التي تنمو نموا رائعا الزيتون والتوت والليمون والبرتقال والسرو والتفاح والكمثرى ، ونمواً مقبولا لاشجار الكرمة . وقد رأينا على بعض الغراس من أشجار الكرمة هذه ، والتي لا يزيد عمرها على عام واحد ، عناقيد العنب البيضاء وهي في طور النضج في هذه الايام .

لكن النباتات التي تنمو اكثر من غيرها هي البقول من كل نوع ، وقد شاهدت هنا مثلا الكرفس والقرنبيط العملاق . وينتج القمح والذرة والشعير والفول أفضل الغلال ، بيد ان قسما منها اتلفته في العام الماضي أسراب الجراد على رغم الجنود الذين ارسلوا من قلعة عدى وقرى لطردها وابادتها .

أما الثيران والابقار المستوردة من ايطاليا فقد اعتادت على المناخ تماما هنا ، وهي تتوالد وتتكاثر . وكذلك الامر بالنسبة لانواع الدجاج والحمام فهي تتكاثر أيضا على خير صورة . وتتخذ الخنازير هنا احجاما غريبة لشدة نموها وكبر حجمها .

ولا بد من القول اخيرا ان الآمال كبيرة في منطقة سراي هذه ، حيث يعتدل المناخ وتتوفر المياه ، ولسوف تزدهر الزراعة فيها اذا لم تتعرض لاسراب الجراد وحبات البرد والصقيع . ان هذه الاخطار لا يعيرها فرانشيتي اي اهتمام ، كما انها لم تفزع حتى أول رائد ، ذهبت اليوم لزيارته ، وقدم من ايطاليا ليقطن مابين قرية جودوفلاسي وقلعة عدى وقرى ، ويدعى الكزيكو من بلدة ليكو (Lecco) . وهو شاب مليء البنية له من العمر أربعة وعشرون عاما ذو طبيعة حازمة محب للمغامرات ، ومن عائلة جيدة وكان موظفا في احدى البيوت التجارية في ميلانو ، كما كان واحدا من أفضل اللاعبين في شركة رياضة تدعى بروباتريا (Pro Patria). وكان قد ترك

في العام الماضي وظيفته وكان يتقاضى منها مرتبا حسنا ليحضر ومعه رأسمال متواضع ليقيم في ارتيريا .

لقد قدم مع شابين ايطاليين آخرين يملكان الآن ثلاثين هكتارا مابين عدى وقرى وجودوفلاسي ، وأخذوا يبنون منزلا لهم من الحجارة وسقفه من القش رغم ان وسائل البناء وأدواته كانت تنقصهم ولم يسبق لهم أن عملوا في العمارة أو النجارة ، فكانوا يحضرون الطين بأيديهم . ثم استطاعوا بذكائهم المتوقد وحيويتهم الشابة ان يفعلوا ما فعله روبنسون كروزو (Robinson) ، فنجحوا في انشاء سكن مقبول مزود حتى بباب ونوافذ صنعت من القضبان التي جمعت مع بعضها .

وقد حدثني الشاب جيلاردي انهم ابتاعوا ثمانية ثيران ، وأخذوا يحرثون الارض التي لم تحرث قط ، فكانت قاسية جدا . وكان عليهم ايضا ، وقبل أي شيء آخر ان يتغلبوا على الثيران ، اذ لم يسبق ان وضع نير في رقابها من قبل . وقال : « وقد أرهقنا ذلك ، وبذلنا جهدا كبيرا لتعليم هذه الثيران الحراثة ، اذ لم ترد في البداية ، أن تجر المحراث ، فكانت تتساقط على الارض ، وقد نجحنا في النهاية وحرثنا الارض » .

وسألته : أأنت واثق ان المحصول سيكون جيدا ؟ فأجابني وهو واثق : « سيكون محصولا وفيرا ، ولكن يبقى خطر قدوم الجراد اللعين الذي لايأتي دوما . بيد اننا ، اذا حضر هذا العام ، سنكافحه ونفزعه بكل الوسائل الممكنة ونطرده بعيدا . وقد هيأت منذ الآن حتى المشاعل والمواقد التي تعمل على الهواء لطرد اسرابه أثناء الليل . ولو حدث وكانت الغلال متواضعة في أحد الاعوام فسنحاول التعويض عن ذلك في أعوام لاحقة » . واضاف :

« انني جئت الى هنا لاعيش حياة حرة لا لاصبح ثريا » . ثم قال متنهدا : وينقصني هنا شيء واحد فقط . فسألته : وما هو ؟ أجابني : هنالك فتاة أحببتها في مدينة ميلانو ، وسأسافر قريبا الى ايطاليا لاتزوج منها ولآتي بها الى هنا ، وذلك بعد أن اهيء مسكنا مريحا اكثر من السكن الحالي . ولسوف ابني هذا المسكن بيدي ، وسأطلي جدرانه بالكلس الابيض . وسألته : هل ستتبعك تلك الفتاة عن طيب خاطر ؟ فأجاب : لقد لقد وعدتني بأن تذهب معي الى آخر الدنيا . وسألته : وماذا عن الرجلين الايطاليين الآخرين اللذين جاؤوا معك ؟ أجاب : انهما جنديان سابقان يدعوان انجلو سيادا ولويجي ريدايلي ، وهما يترددان على اسرتي منذ عدة

سنوات . وهما عاملان عندي لكننا نعيش جميعا كالاخوة . وقد قالا : « اينما ستذهب يا جاني ، وهما يطلقان علي هذا الاسم ، نذهب معك » . آه لو تعرف كم يحب بعضنا بعضا وكم نحن سعداء حين نعمل معا ؟ .

وسألته : اضافة الى القمح ... ماهي أنواع المزروعات الاخرى التي تعتزم زراعتها ؟ فأجاب : التبغ ، لان زراعته ستنجح جيدا ، ولكن قبل كل شيء سنهيء بستانا صغيرا نزرع فيه بعض الخضراوات لنتمكن من تحضير أنواع الحساء . وكيف تتغذون في الوقت الحاضر ؟ فأجاب : علينا أن نجلب من بلدة مصوع الطحين والمواد الغذائية الضرورية الاخرى . كما اننا نمتلك بعض البنادق . وفي جولة صغيرة في الاماكن المجاورة لنا نصطاد بعض أفراخ الحباري والدراج . وقد اصطدنا مؤخرا ماعزا متوحشا بقينا نأكل منه طيلة اسبوع كامل تقريبا . وهكذا فالصيد متوفر لنا على خير وجه ولدينا معدة جيدة للهضم » .

ولم أتمالك نفسي فضحكت ، وقد سألني السنيور جيرالدى عن سبب ضحكي وأضاف : « لقد حدثوكم ، ولا ريب ، في القلعة اننا وضعنا غرابا وصقرا في آنية طبخ . وهم يسخرون ، كما تعلم . فقدحدث ذات يوم أن اصطدنا غرابين كبيرين وحاولنا غليهما للتسلية ، ولكنهما بقيا قاسيين بعد غلي ثلاث ساعات ويستحيل أكلهما . صحيح اننا أكلنا في البداية العديد من الطيور التي لانعرف اسماءها ، ولكن نؤكد لكم انها كانت ذات طعم لذيذ ، وبعضها كان وزنه يزيد على عشرة كيلو غرامات . قلت وأنا مسرور جدا بهذا الحديث مع هذا الشاب : وماذا في ذلك ؟ وهل في الامر ماهو غير مستحب ؟ لقد أكل النقيب بوتيكو في رحلاته حتى كبد الصقر . ولكن ماذا عن الحيوانات الضارية والمفترسة ؟

أجابني الشاب : خلال الشهر الاول ، وعدما كنا ننام تحت الخيام بينما كنا نبني بيوتا ، كانت الضباع تقترب منا كثيرا فتحتك بسياج أكواخنا . وحتى الآن لازالت الضباع والثعالب تتجول حولنا عندما يرخي الليل سدوله . ولكن كما ترى ان نوافذنا قد صنعت من الاخشاب القاسية ، ولو حاولت هذه الحيوانات اللعينة كسرها وازعاجنا فلدينا رصاصات ممتازة لها ، وقد حاولت أن أضع يوما ما مصيدة لالتقاطها بيد أن كلبنا سقط فيها . وتابع ، وأنا أضحك : الا تصدقني ، انني شخص جدي على عكس ما قد يبدو لك . ولم أحضر الى هذه الديار لاغترب فقط وانما لاكون مزارعا . وكما ترى ، فلدي مجموعة جيدة من الكتب التي تتحدث عن الزراعة .

فقلت : « نعم ، نعم ، أيها البطل ، يبدو لي انني امام انسان مستشرق من بلاد الغرب الامريكية » . وصافحته بحرارة . قال باللغة الانكليزية : لقد كنت فعلا في الولايات المتحدة الامريكية ، وأمضيت فيها ثمانية عشر شهرا . فأجبته بالانكليزية أيضا : صحيح ؟ وصافحته ثانية ، وأضفت : الآن بدأت أفهمك ، وحبذا لو كان في ايطاليا شباب كثيرون مثلك . وقال : نحن هنا بألف خير . ونمتلك صندوقا كبيرا مليئا بالادوية . واذا اقتضى الامر نكون أطباء للسكان هنا ، وهم يقولون لنا دائما في جودوفلاسي هل الايطاليون كافة أطباء عظماء ؟

يزورنا أيام الاحاد من بلادنا بعض المستوطنين الموجودين في زبانو المجاورة لنا. ويدور في ذهني انشاء ناد رياضي مشترك معهم بعد المحصول الاول لامارس هوايتي بالرمي . فاذا قام السود بغزونا فعلينا ان نكون مستعدين للدفاع عن انفسنا . قلت : عزيزي جيلاردي ، لقد وجدت السعادة هنا على رغم كفاحك مع هذه الارض القاسية . فأجاب : نعم ، نعم ، ولا ينقصني سوى فتاة أحلامي . وحين هممت بترك هذا الشاب الشجاع اللطيف عانقته وتمنيت له من كل قلبي النجاح في جني محصول جيد ، واعتقد ان القراء كافة يشاركونني عن رغبة في هذه التمنيات .

رحلت من بيت السنيور جيلاردي الى امبا مقليل . وهي قمة تبعد اكثر من ساعة بقليل سيرا على الاقدام عن عدى وقرى ، وهي صورة صادقة عن الجبال الارتيرية . ان هذه القمة أرض مسطحة طولها حوالي مئتي متر وعرضها اربعون ويتم الوصول اليها عن طريق ممر ضيق وعر ، وكل ما حولها وهاد صخرية عمودية الشكل كالجدران الاصطناعية . ومن هناك يمكن للمرء ان يتمتع بمنظر بديع شامل للمكان ، فيرى مأرب وهي منطقة الحدود مع حلفائنا في التجراي ، وتترك جبال عدوة على الافق خيالا يشبه المنشار بأسنانه الحادة غير المنتظمة .

وعند سفح قمة مقليل انقاض قرية دمرتها احدى القبائل .

في احدى غزواتها الاخيرة . وعلى مقربة منها اكواخ تقطنها في الوقت الحاضر حوالي خمس عشرة اشرة يكاد أن يكون جميع أربابها قساوسة أقباطا ، اذ يوجد على هذه القمة كنيسة يؤمها سكان المناطق المجاورة . والكنيسة كوخ كبير نصفه مهدم ، ولها باب من الخشب الخشن المطلي باللون الاسود . وقد خصص نصفها للمصلين والمتعبدين ، بينما اغلق النصف الآخر وخصص للقساوسة . ويغطي سقف الكنيسة شبكة من

القضبان يتخللها شرائط قطنية بيضاء وحمراء وخضراء على شكل سجادة . ويتدلى من أحد زواياها طبلان لدعوة الناس الى العبادة . وقد سألت القسيس الناظر عما في المكان المحجوب فأراني مجلدا من الورق ، مكتوبا بالخط الجعزي ، يبتدىء بحروف حمراء مثل كتبنا في العصور الوسطى ، وهذا الكتاب هو كتاب الكنيسة المقدس للصلاة .

وفي الاماكن المجاورة الصحراوية غير المأهولة بالسكان شيء غريب آخر ، لكنه غير مرئي على رغم كافة حملات البحث التي قامت ، وهو الشقي اللص ابرا الذي كان رئيس عصابة في منطقة اسمرة ، وعاش منذ سنتين في الريف ، ويقال انه هو الذي قتل النقيب بيتيني . ان هذا اللص شاب وسيم يكتب ويقرأ اللغة الايطالية بشكل حسن ، ويعيش الآن على الغزوات على رأس عصابة من اللصوص المسلحين التابعين له .

وقد ذكر الحاكم ، في تقريره السنوي الذي قدمه الى البرلمان في شهر مارس (آذار) الماضي ، وحين تمردت عصابة ابرا ، ان وحدات من القوات المسلحة النظامية قامت بتمشيط المكان لمفاجأة اللصوص الذين يقومون بعمليات قرصنة وسلب باستمرار . على أن خطرهم يكمن في عمليات الانتقام التي ينفذونها ، فشلت حركة السكان وامتنعوا عن مساعدة القوات النظامية ، على رغم الاضرار التي يلحقها بهم هؤلاء اللصوص .

وقد قتل في احدى هذه الحملات النقيب بيتيني ، فنظمت حملة متحركة يقودها المقدم بيزي (Pessé) ، الذي نجح في اكتشاف مكان ابرا والمتمردين الآخرين .

ان حملات متابعة هؤلاء اللصوص والهزائم التي منوا بها في بعض المعارك ، ودعم السكان الذين أخلصوا للجنود ، قد سببت جميعها تمزق أتباع هذا اللص وتفرقهم ، وقد تمكن بصعوبة كبيرة من انقاذ نفسه مع بعض اتباعه واجتاز الحدود .

لكن وبعد أن حلت مصيبة بالرأس منقشا عاد اللص ابرا من جديد الى حدودها . ويؤكد لي بعضهم وأنا أكتب هذه المذكرات ان هذا اللص يتجول على بعد أربع أو خمس ساعات سير من عدى وقرى . وهكذا يوجد (أزماتش أبرا) في هذه المناطق ، وفتوراري جبرو مابين دمبزين ومنسع ، وهما لصان من أشهر اللصوص في مستعمرة ارتيريا ، ولدى كل منهما عصابة مسلحة ببعض البنادق الجيدة .

المكتبة الارترية

الفصل التاسع

قرع ـ حلايب ـ ماهيو ـ حرقيقو

ـ قرع ، ٢١ فبراير (شباط) :

قبيل السابعة من هذا الصباح غادرت عدى وقرى وجودوفلاسي الى قرع . فاجتزنا أولا سهلا مرتفعا مغطى بنباتات يابسة عالية . ثم مررنا بممر وعر ، وكنا نقطع بين الحين والآخر بعض القمم التي تبدو وكأنها مطلية بالمواد البركانية الجامدة .

وفي الحادية عشرة ظهرا ، سرنا على ضفة وعرة ، فكان علينا أن نترجل لنصل الى قاع نهر مأرب . وقد توقفنا ساعة واحدة لتناول طعام الافطار . ثم سرنا ثلاث ساعات ، فوصلنا الى قرع ، وهي قرية كبيرة كانت مشارفها مسرحا للمعارك الشهيرة في شهر مارس (آذار) من عام ١٨٧٦ ، حيث تكبد فيها المصريون خسائر فادحة . ولا يزال فيها حتى الآن بعض بقايا الهياكل العظمية البشرية .

تقع المحطة الزراعية التي اقامها السنيور فرانشيتي منذ سنتين على بعد نصف ساعة سير من هذه القرية . وتتألف من عدة اكواخ مستديرة محاطة بأسوار وسقوفها من القش . ويلحق بهذه المحطة قطعة من الارض مساحتها ثمانية عشر هيكتارا خصصت للتجارب . وترتفع هذه المنطقة نحو الفي متر عن مستوى سطح البحر ، لذا فالمناخ فيها لطيف ، وقلما تهبط درجة الحرارة فالى الصفر في الليل .

لقد دلت التجارب التي اجريت حتى الآن ان القمح الحبشي وجميع أنواع القمح الطرية عادة تجود زراعتها هنا . ويبقى الخطر على الزراعة من اجتياح الجراد ، ولكن المحصول الاخير قد تضرر اذ أكل الجراد نصفه . كذلك انتجت غلالا وافرة بعض النباتات النسيجية المحلية مثل نبتة الحمص

الايطالية والشمندر والبازاليا والخضراوات . اما البطاطا فتنجح زراعتها أيضا اذا سلمت من الخنازير وبعض الحيوانات الاخرى التي تحفر الارض بحثا عنها . وتجود زراعة البقول والخضراوات الايطالية على أن تزرع البذور الايطالية في كل عام ، لان البذور التي يتم تحضيرها هنا لا تعطي سوى غلال ومحاصيل من صنف ادنى .

وتجود في هذه المناطق أيضا ، زراعة الحمضيات وأشجار الزيتون والخرنوب والتين والتفاح والكمثرى . ويتم بواسطة أشجار الزيتون الايطالية المنشأ التي نمت هنا تطعيم أشجار الزيتون البرية . ويبدو ان أشجار الكرمة تعطي ثمرا حسنا ، على حين لم تنجح زراعة بعض النباتات الاخرى مثل الكستناء وشجيرات البن ، وقد فشلت كافة التجارب التي اجريت لزراعة شجيراتها . وهنا بعض الامل في نمو بعض أنواع الاقطان المصرية والامريكية .

أما الطقس فهو ، كما قلت ، معتدل ومتوسط درجات الحرارة حوالي ٢٣ درجة مئوية . أما الرياح فتبدأ تهب في كل يوم تقريبا بعد الظهر قادمة من الجهة الشمالية الغربية ، فتزيد من شدة الجفاف الطبيعي للسهول المرتفعة . ويمكن استخدام النواعير لاستخراج كميات مياه وفيرة من الآبار لري الاراضي .

وقد جمعت الغلة الاخيرة من القمح والبقول ، بعد تجفيفها ، في كوخين كبيرين . لكنها تعرضت هذه الغلة للتلف بسبب الفئران رغم كافة الاحتياطات التي اتخذت .

ان من غير المفيد حفظ هذه المحاصيل في أكياس ورفعها عن الارض ، لان الجرذان والفئران التي لاتحصى هنا في جميع الاراضي الارتيرية تقفز عليها من السقوف وتأخذ تثقبها ، وبمقدورها ثقب ستة أكياس كل يوم . غير أن القمح ينمو جيدا في هذه المناطق ، وعلى رغم كافة هذه المصاعب . ولو اختيرت قرية قرع هذه ، مثل قرية جودوفلاسي ، لزراعة القمح ، لكانت هذه الاماكن جميعها اراض مختارة لاستيطان البيض .

لقد ذكرت ، عند الحديث عن الاسر العشر الايطالية في قرية زبانو ، ان من المحتمل إذا لم تكن الاضرار التي يسببها الجراد والبرد فادحة ، أن تأتي أسر عديدة أخرى وتحيا حياة حسنة في مديرية سراي، وتعيد أو تفي الاربعة آلاف لير المعطاة لكل اسرة منها خلال سنوات معدودة .

وأعتقد أن الشيء نفسه ينطبق على قرية قرع في اكلي قوزاي . لكن ينبغي الا نخدع أنفسنا بالقول ، كما يؤكد بعضهم بأننا وجدنا في ارتيريا مكانا للهجرة الايطالية الواسعة .

فلو فرضنا ان المحاصيل كانت جيدة وان الدولة والمصارف أخذت تمنح السلف المالية اللازمة من أجل السفر والتجهيزات والانفاق على المعيشة وقيمة الثيران والمعدات الضرورية للعمل في العام الاول . فليس ثمة سوى مئات قليلة من الافدنة تصلح للزراعة في منطقة سراي وفي منطقة اكلي قوزاي .

ولنفترض أيضا ان عدد الاسر التي يمكنها أن تعمل في الزراعة هنا تزيد على تلك المئات القليلة المذكورة ، اي ان عددها بلغ بضعة آلاف ، فما هي أهمية ثلاثة او اربعة آلاف اسرة ايطالية تأتي من مختلف المحافظات الايطالية الى ارتيريا اذا قورنت بعدد الاسر المرتفع التي تترك ايطاليا سنويا وتهاجر الى خارجها .

انني أود أن أخدع نفسي ، ولكن ليس ثمة أمل كبير في أن تكون ارتيريا سببا في تحسين الشروط المعيشية لعمالنا . نعم ! تكمن هنا بعض الامكانات في هذا السبيل ، لكنها امكانات متواضعة غير جديرة بكل هذه الضجة . لاسيما ان هذه المنطقة المحيطة بالعاصمة ، ومساحتها عشرة كيلو مترات مربعة ، لا تزال رغم قانون عام ١٨٨٢ ، بدون زراعة . وليس من المستحسن ان ندفع للفلاحين مصاريف الانتقال الى ما وراء البحار .

ـ سقنتيني ، ٢٢ فبراير (شباط) :

في السابعة من صباح هذا اليوم انطلقت من قرية قرع ، فدخلت في منطقة اكلي قوزاي التي هي بالفعل احدى المناطق الافضل في ارتيريا ، ويزرعها كلها تقريبا بالشعير والذرة السكان المحليون وفيرو العدد . وتغلب أشجار الغربيون القنديلية وأشجار الطلح والزيتون الوحشي على غيرها من الاشجار في سفوح جبال هذه المنطقة .

ان بيوت القرى هنا غير دائرية ، وسقوف بيوتها غير مخروطية ، فهي مربعة وسطحها مستو وواسع . وهي علامة على أن حال السكان جيدة ، وعندهم بعض الماشية والاشياء الاخرى . ويتميز بيت الرئيس في كل قرية . فهو ذو طابقين يعلوهما برج صغير ، أما الجدران فهي مبنية من جذوع الاشجار التي يلحم بينها نوع من القرميد القاسي كالكلس .

وثمة ميزة اخرى لمنطقة اكلي قوازي ، هي أن غالبية السكان من الكاثوليك . بسبب ما قامت به البعثات التبشيرية في العديد من القرى ، ولانتشار الكنائس بجدرانها البيضاء .

ويقيم في بلدة سقنتيني ، التي هي المركز الرئيسي لمنطقة اكلي قوزاي ، بهتا حقوس الذي استدعي الى بلدة كرن مع وحدته كما ذكرنا من قبل . ويقيم هنا ايضا ضابط ايطالي هو الملازم سانغوينتي وله صفة المقيم ويمثل هنا حكومة المقاطعة . كما يوجد مكتب صغير للتلغراف مع عاملين مختصين .

ان الملازم سانغوينتي هو الآن وبهتاحقوس مع القوات المحتشدة في كرن ، حيث بعث ببرقية منحني فيها المنزل الذي يقطنه لامضي فيه فترة اقامتي . وهو منزل مستدير وجيد بناه الاهالي له ، وله بهو واسع وساحة وغرفة نوم جميلة ونظيفة في الطابق العلوي .

وهنا لابد لي من أن أعلن شكري لجميع ضباط الحامية الذين أتاحوا لي فرصة المرور من هنا . وقد كنت في كل مكان استقبل استقبالا لطيفا وأحظى بضيافة الكرماء ، وهذا أمر لن أنساه ، وسوف يبقى ذكرى محببة لنفسي . وأدين لهم أيضا لانني استطعت أن أتمم رحلتي القصيرة في المستعمرة بمزاج حسن . لقد امتدت هذه الرحلة حوالي سبعة أسابيع قطعت فيها الفا وخمسمائة كيلو متر على ظهور البغال وفي ممرات وعرة . وحينما كنت أصل الى مركز حامية من تلك القوات كانت استقبالات هؤلاء الضباط اللطيفة تنسيني كل الضجر والتعب الذي عانيته في مسيراتي الطويلة .

وبينما كان أحد خدم الملازم سانغوينتي يهيىء طعام الفطور لنا ، قدم لتحيتي ابن بهتاحقوس وأخوه . وهما رجلان وسيمان . وقد قدما لي الطج ، ثم قاداني لزيارة الكنيسة الكاثوليكية التي اقيمت بشكل جيد ، وفيها صورة كبيرة على الهيكل الاعظم للقديس ميشيل الذي تغلب على لوشيفيرو . وكان راعي الكنيسة من الاهلين ويجيد الحديث باللغة الفرنسية . وقد حدث شيء كان غريبا ، فعندما قدم قريبا الزعيم كأس شراب الطج لي أعطيا خادمهما الشاب جرعة واحدة منه للتدليل على أن الشراب غير مسم ، وهي عادة قديمة في البلاد . وتعتبر اسرة بهتاحقوس من أثرى الاسر في اكلي قوزاي ، وتمتلك ارضا وماشية قيمتها مئتان أو ثلاثمائة الف لير .

ويقطن الرئيس في كوخ كبير ، خصصت زاوية منه لبغلته المفضلة ، بيد انه عندما يجلس مع ذويه يشغل عنقريبا أعلى بكثير من الذي يشغله ابنه وأخوه . وهم يأكلون وينامون في اسطبلات حقيقية . بيد أن هؤلاء الرؤساء يحتفظون لانفسهم بهيئات الارستقراطيين كما كان بارونات ايطاليا يفعلون في العصور الوسطى . وتقع قرية سقنيتي في مكان جميل تحيط بها حقول تزرع على مدار فصول السنة الاربعة لوجود مجرى مائي دائم يمر بالقرب منها .

ـ حلايب ، ٢٣ فبراير (شباط) :

غادرت قرية سقنيتي بعد تناول طعام الافطار ، فصعدت الجبال ، التي كانت تزداد ارتفاعا كلما تقدمت الى الامام . واتجهت نحو قرية حلايب ، حيث تتمركز حامية يقودها النقيب اسبرفيكو . وقد اخترت من أجل العودة الى بلدة مصوع ، طريق : (حلايب ـ ماهيو) ـ (حرقيقو) عوضا عن الطريق القديمة (اسمرة ـ قندع ـ سحاتي) . وذلك لاتمكن من رؤية اطلال أقدم منطقة في ارتيريا وهي منطقة قبائل الاساورتا (Assaorta) . وهي جبال جرداء عالية جدا ، لايستطيع سكانها القيام بالاعمال الزراعية ، فعاشوا من ثمة دائما قطاع طرق ، يهاجمون القوافل والمارة ،أو يقومون بالغزوات على البلدان المجاورة . وهذه الطريق غير آمنة حتى الآن ، رغم اعدام رئيسي عصابة قطاع طرق مؤخرا ، كانا مسؤولين عن سرقة كبيرة . ولكن اذا سافر المرء يحرسه خمسة جنود مثلا في هذه الايام ، كما أفعل أنا الآن ، فلا خوف عليه من المفاجآت .

تبدأ الطريق من سقنيتي ، وهي طريق مخصصة للبغال ، فتجتاز أولا منطقة زرعت ذرة في الوديان المليئة بأشجار الزيتون البري وغيرها على قاع النهر . ويستطيع المرء أن يرى من النقاط الاكثر ارتفاعا منظرا شاملا ممتازا للجبال الحادة في التجراي وعقامي (Agamé)

وسرنا ساعتين ، فكنا نرى أشجار الصنوبر وأنواعا من شجر السرو ، ثم وصلنا الى ارتفاع يزيد على الارتفاع الذي قبله ، وبلغ ألفي متر فوق مستوى سطح البحر . وهنا يسود سكون هادىء وصمت عميق .

وفي الساعة الرابعة ، وبعد أن لمع البرق وقصف الرعد ، هبت عاصفة وهطلت الامطار . فكانت المرة الاولى التي أرى فيها المطر منذ أن انطلقت من بلدة مصوع في أوائل شهر يناير (كانون الثاني) الماضي . وقد

استقبلت أنا أيضا هذا الطقس بالترحاب والرضى . وبعد أن هطلت بعض الامطار بدأ البرد يتساقط بغزارة ، فاضطررت أنا والمترجم والجنود أن نحمي رؤوسنا ببعض التروس المصنوعة من الجلد الحبشي ، التي تلقيتها هدية خلال الرحلات الاخيرة .

لقد غطى البرد الطريق بضع دقائق ، ثم أشرقت الشمس ثانية ، وكانت أغصان الاشجار التي تغطيها قطرات المطر تلمع ، بينما عبق الهواء برائحة طيبة تنبعث من أشجار الراتنج والصنوبر . لقد خيل لي انني فوق الجبال الصخرية التي تشرف على مناظر كنت قد وصفتها في كتابي : « ايطالي في أمريكا » .

كانت الساعة تشير الى السادسة مساء حين وصلت الى قرية حلايب ، التي ترتفع ٢٥٦٥ مترا فوق سطح البحر . وكان النقيب اسبرفيكو (Gino Penazzi) غائبا في بركة ، ويقوم مقامه الملازم جينو بنازي وهو شقيق لينكولن (Lincoln) الذي قتل في بلدة اغردات ، ويساعده في عمله الملازم ميركريلي (Mercurelli) . وتعيش سريتهم المحلية هذه في وحدة وعزلة لا يعكرها سوى أصوات الضباع والنمور أثناء الليل .

وتتألف البلدة الصغيرة من بضع مئات من الاهلين ، نصفهم من الاقباط والنصف الآخر من الكاثوليك . وقد زرت صباحا ثلاثة قبور غريبة جدا منحوتة من حجر الغرانيت الاحمر تقع على بعد ساعة سير تقريبا . وهذه القبور مستطيلة الشكل طول الواحد منها متران وعمقها متر واحد وعرضها ثمانون سنتيمترا . ولا ريب ان الشعوب التي نحتتها كانت على درجة من الحضارة أرفع من حضارة السكان في الوقت الحاضر .

ـ ماهيو ، ٢٤ فبراير (شباط) :

أمضيت يوم أمس برفقة الضباط البواسل لحامية قرية حلايب المنعزلة . وانطلقت في السابعة من هذا الصباح باتجاه قرية ماهيو ، وهي مركز جمركي يقع في مضيق عميق تمر فيه القوافل التي تتنقل مابين الحبشة وبلدة مصوع . وكانت الطريق الضيقة طريقا نازلة وعرة على امتداد جوانب الجبال العالية . ويغطي الجزء الاول منها أشجار الصنوبر ثم تأتي أشجار الطلح ، الى أن تصبح في نهايتها جرداء . وكان علينا أن نترجل في بعض أجزائها بسبب وعورتها . وخلال أقل من ثلاث ساعات هبطنا من ارتفاع ٢٥٨٥ مترا في حلايب الى ١٠٦٩ متر . أي وصلنا الى

قاع وادي حداث الجاف المؤلف من شعاب جبال أساورتا الجرداء المنعزلة. وعندما تركت قرية حلايب كانت درجة الحرارة ١٥ درجة مئوية . ولما وصلنا الى قرية ماهيو كانت درجة الحرارة ٢٥ مئوية .

تتألف قرية ماهيو من عشرة الى اثني عشر كوخا فقط ، بيد انه في كل اسبوع تقيم القوافل فيها سوقا ناشطة . وقد حدثني أحد الموظفين ، ويدعى شيكاريللي بان الرسم أو الضريبة المفروضة على القوافل المذكورة التي تحمل الجلود والقهوة والاقطان وغيرها ، تبلغ كل اسبوع ١٥٥ ليرا . ان هذا المبلغ ليس بالكبير ، لكنه يدل على مرور بضائع حقيقية في هـذا المكان . في حين لاتستفيد دوائر المالية في الطرف المقابل للسودان شيئا بسبب المهدية . ولا ريب ان أية قافلة لم تشاهد منذ سنوات عديدة وهي قادمة من السودان .

أما القوافل السودانية التي قد نشاهدها هنا فما هي الا وحدات تجسس لاغير . لكن بعض المسؤولين في حكومة المستعمرة لايزال عبـدا للفكرة القائلة بان مستقبل ارتيريا يعتمد على التجارة من السودان . بينما لانجد أية قوافل في المناطق المذكورة .

وبعد أن قاربت رحلتي على نهايتها ، لابد لي أن أثير مسألة خطيرة وهي : الى أين تسير سياستنا في هذه المستعمرة ؟ هل هي تتجه الى السودان أو الى الحبشة ؟ وأي الاتجاهين خير لنا ؟

سألت الضباط الذين يعرفون ارتيريا جيدا اكثر من غيرهم ، فقالوا آسفين انه لم يسبق أن بحث أحد معهم هذا الموضوع ، ويبدو انه ليس ثمة من أفكار أو نوايا موحدة بهذا الصدد . وقد قال العديد منهم : لم يكن السودان في يوم ما بلدا منتجاً ، وحتى عندما كان كذلك فان مصالحنا كانت تصطدم مع مصالح الانكليز وكنا نحن الخاسرين . ان كل ما في السودان الشرقي من تجارة ليس اكثر من تجارة ترانزيت سواء في كسلا أو عضارف .

ويضيف ضابط آخر كان قد سافر الى السودان : ولو أقيم خط تجاري مع السودان فلا ينبغي ان يكون خط كسلا أبدا . وأنا مع خط تمنـات (Tumanat) الذي يتفرع عن ادريا مارا في منطقة كوناسا الى أن يصعد بعد ذلك الى سهل دقي تسفاي ودمبلاس ليصل أسمرة بالحماسين وبالتالي بميناء بلدة مصوع .

وقال ضباط آخرون : لكن لو اتجهنا نحو الحبشة ، رغم أن ذلك يعتبر بعيد المنال ويمكن الوصول اليه بالطرق الدبلوماسية لا عن طريق الاحتلال ، لامكننا أن نجعل التجارة كلها في اسمرة وغوجام تتجه نحو مينائنا . انها مناطق منتجة بالاضافة الى قبائل الغالا ، اذ ان جميع القوافل المحملة بالقهوة والعاج تمر عن طريق ماهيو مجتازة عقامي ، وبطريق اسمرة مجتازة بلاد سراي .

ان هذا الاتجاه في التجارة لم يتطور بعد تطورا يذكر بسبب نقص الطرق ولان التيجراي منهمكة دائما بالحروب . ومهما يكن من أمر فان المركز الجمركي في بلدة ماهيو يتسلم حاليا مبلغا من المال لا بأس به . ولو تم الاتفاق مع ايطاليا لامكن ان توجه مقاطعة شوا (Scioa) جميع قوافلها التجارية الى ماهيو .

فقاطعت المتحدثين قائلا : اذن فالمشروع الذي تقدم به معالي السنيور انطونيللي المتضمن انسحابا من حدود معاهدة اوتشيالي (Vaccialli) مشروع مناسب ومعقول .

فصرخ الجميع : لا ، لان الارض التي تتألف منها أرتيريا اليوم هي من مكتسباتنا ، ويمكن عوضا عن ذلك تقليص النفقات بالغاء جميع الوظائف المدنية غير المفيدة في مصوع ، وحل فرقتي الفرسان ، والاكتفاء ببطارية للجبال عوضا عن بطاريتين والغاء مكاتب التسجيل العقاري وتقليص مكاتب التلغراف ، والغاء سكة حديد مصوع ـ سحاتي ، وارسال بعض الضباط من ذوي الرتب العالية الى ايطاليا ، وانقاص عدد العاملين في الاشغال العامة ، والغاء الالقاب الممتازة وما شابه والتي تكلف نفقات باهظة مثل طلقات المدافع التي تطلق لتحية هؤلاء كما لو أننا كنا في مستعمرة مزدهرة وفسيحة لامنطقة تعيسة رفضها الجميع ، وانشاء الطرقات بضوابط غير الضوابط الحالية لان الطرقات التي هي في طور الانشاء حاليا لن تكون صالحة للتجارة ، بل قد تصلح لبعض الاغراض العسكرية . فطريق مالدى طريق داخلي . ولو فرضنا قيام علاقات تجارية مع السودان ، وهذا ما لم يحدث حتى الآن ، فلن تكون هذه الطريق الداخلية هي التي تفضلها القوافل التي اعتادت ، كما يحدث حاليا ، ان تسير في طريق لبكت القديم الازلي غير الآمن لوجود بعض اللصوص الذين يجوبونه ، بيد ان من السهل القضاء عليهم بوضع وحدات عسكرية على تلك الطريق .

كنت قد قررت أن أتوقف في بلدة ماهيو بعض الوقت اللازم لتناول

طعام الافطار فقط . بيد أن اللواء في هذه البلدة قد حملني على المكوث فيها حتى المساء للخروج الى صيد الضباع والنمور . وقد قال لي ان المكان القريب من الماء هو الوحيد في هذه المناطق الذي يأتي اليه في كل مساء العديد من الحيوانات المفترسة لتروي ظمأها . وقد أقمت على بعد مرمى طلقة بندقية ستارا من الحجارة ، قتلت منه يوم أمس ضبعة كبيرة .

وهكذا فقد جذبتني فكرة الصيد المرتقبة ، ومضيت لانام بعد طعام الافطار في عنقريب عندما جاءت برقية من حلايب الى اللواء تبلغه حدوث عملية قطع طريق كبيرة على طريق ماهيو ـ حرقيقو ، وهو الطريق الذي كنت سأسلكه لولا توقفي في ماهيو . وجاء في البرقية أيضا ان ثلة من الحرس قوامها عشرة جنود قد توجهت الآن من حلايب لتفتيش الطريق .

وهكذا فقد تخليت عن رحلة الصيد التي كنت أنوي القيام بها منتظرا ثلة الحرس ، وعزّيت نفسي بانني ، لو خرجت لهذا الصيد ، كنت سأمر في طرقات ضيقة ومعتمة كالافران .

ـ حرقيقو ، ٢٥ فبراير (شباط) :

قبيل الساعة السادسة من صباح أمس غادرت بلدة ماهيو مع الخمسة عشر جنديا محليا ، ودخلت في الطريق العميق الذي يقود الى البحر . وكانت حادثة القرصنة التي تكلمت عنها قد حدثت في مكان يدعى شليخي يقع على مسيرة أربع أو خمس ساعات من حرقيقو ومسيرة أربعة عشر أو خمسة عشر ساعة من ماهيو .

كانت الاوامر معطاة لفصيلة التفتيش الليلية بتوقيف كل مسلح تصادفه ، لان أحد الذين اعتدي عليهم جرح جرحا بليغا برصاصة بندقية . وكان الطريق الذي أسير فيه متعرجا ، يتراوح عرضه مابين عشرين الى أربعين مترا ، وهو قاع نهر حداث المليء بأكوام الحجارة كبيرة الحجم وتنمو بعض الاشجار القليلة فيه .

أما على جوانبه فترتفع جبال أساورتا مئات الامتار . وهي جرداء تماما خالية من أية نباتات ، تتكون تارة من صخور هائلة من الغرانيت ، وتارة من طبقات رقيقة من الاحجار البركانية المتوضعة بصورة متوازية على شكل أوراق كتاب هائلة الحجم . انها سمراء اللون حينا وتميل الى اللون الاخضر حينا ولون الحديد حينا آخر ، وليس ثمة اية حيوانات على الصخور ماعدا بعض الجرابيع التي تشبه الفئران الكبيرة .

وعندما أخذ الظلام يخيم شيئا فشيئا ، وفي الساعة السابعة الا ربعا تقريبا ، بدأت الصراصير ترفع أصواتها كما تفعل صراصير الليل لدينا في ايطاليا . أما درجة الحرارة فلم تهبط على رغم حلول الظلام وظلت حوالي ٢٦ درجة مئوية .

وفي الساعة السابعة كان الظلام دامسا ، وكنا نسير في صف واحد بعد آخر حتى لايسقط أحد منا على الارض متعثرا بشيء ما . وكنا لا نرى سوى شريط من السماء فيه بعض النجوم وكاننا في حفرة . وفي الساعة الثامنة اشرت الى رئيس الحرس أن نارا قد اضيئت من بعيد واطفئت ، وهنا اسرع بعض الجنود ليروا من يكون الفاعل ، بيد انهم لم يجدوا سوى سبعة حمالي ملح لايحملون أية اسلحة .

توقف الجنود في الساعة الثامنة حتى التاسعة ليتناولوا طعام عشائهم . ثم تابعنا السير ثلاث ساعات اخرى دون أن نلتقي بأي كائن حي. وعند منتصف الليل توقفنا للاستراحة وألقينا أنفسنا على الارض ونمنا بين الحجارة دون حاجة الى أي غطاء ، وبينما كانت ثلة من الحرس تقوم بدورها بالحراسة طلع القمر .

استقيظنا صباحا في الساعة السادسة الا ربعا لمرور قافلة صغيرة من الجمال . واستأنفنا السير في الساعة السادسة في نفس قاع الوادي الذي كنا نسير فيه . وفي الساعة السابعة صباحا كانت الحرارة ٢٧ درجة مئوية ، وبدأ الحر يشتد كلما هبطنا في طريقنا . وقد وجدت سلحفاة بالقرب من نبع ماء ، بينما كنا نسمع على الاعشاب المحيطة بنا زقزقة بعض الطيور صغيرة الحجم رائعة الجمال . أما الاشجار ، فكان اكثرها شجر عوبل (Obel) ذو الاوراق الخضراء .

وتوقفنا في الثامنة والنصف لتناول طعام الافطار في حمامو (Hammamo) في مكان مغطى بالاعشاب على ارتفاع حوالي (٤٠٠) مترا عن مستوى سطح البحر ، وكانت درجة الحرارة ٢٧ . ومن هذا المكان بدأ الطريق الذي سلكناه يتسع عرضا ، وبعد مسيرة ساعة واحدة تركنا وادي حداث الى يميننا ، ودخلنا سهلا حجريا تغطيه شجيرات الطلح دون ان تحدث أية ظلال فيه . وكان ميزان الحرارة عند منتصف النهار يشير الى ٣٤ درجة مئوية .

وفي الساعة الثانية ، او في الساعة الرابعة عشرة كما يجب ان يقال

دخلنا في طريق بلدة شليخي . واخيرا وصلنا الى السهل في الساعة الثالثة والنصف حيث رأينا أن هناك البحر . وكانت على يسارنا مجموعات من الاكواخ هي قرية حرقيقو على الساحل ، والى الامام ظهرت منازل بيضاء اللون وكأنها ترتفع من مياه البحر الزرقاء ، انها مدينة مصوع .

يا لها من فرحة كبيرة ان نرى ثانية المياه الممتدة التي لا نهاية لها بعد ان قضينا عدة اسابيع بين الصخور الوعرة والسهول العالية المحرقة . وكدت أن أشارك في صلاة كان يقيمها رجل مسلم وقف قبيل غروب الشمس وسط أرض قفر واتجه نحو مكة . وكان بلباسه الغريب التقليدي ووسط سهل فسيح تجاه البحر يشكل بالفعل لوحة حقيقية .

كانت الساعة تشير الى مابعد الثامنة عشرة بقليل عندما وصلت منهكا الى بلدة حرقيقو . وكانت درجة الحرارة ٣٠ مئوية . انها بلدة كبيرة زادتها جمالا بعض الحدائق المليئة بأشجار النخيل . ونزلت ضيفا على ضباطنا الاكارم . وبقي أمامي فقط ساعة ونصف الساعة من المسير مابين حرقيقو ومصوع على امتداد الساحل .

المكتبة الأدبية

المحتويات

	صفحة
تمهيد	٩
مقدمة الناطق الرسمي باسم البعثة	١٣
الفصل الاول ـ الوصول الى مصوع : لقاء المشتركين في اغردات	٢٦
الفصل الثاني ـ رحلة الى اغردات : من مصوع الى سحاتي وقندع واسمرة وكرن	٣٨
الفصل الثالث ـ من كرن الى اغردات : ميدان المعركة وجثث القتلى	٥٨
الفصل الرابع ـ كرن وحوضها	٧٨
الفصل الخامس ـ رحلات في الماريا والمنسع	٨٩
الفصل السادس ـ رحلة في منطقة المطرى قليلة الشهرة	١٠٧
الفصل السابع ـ المسيرة مع القوات	١١٧
الفصل الثامن ـ تجارب فرانشيتي في منطقة اسمرة	١٢٦
الفصل التاسع ـ قرع ـ حلاى ـ ماهيو ـ حرقيقو	١٤٠

المكتبة الأدبية

أرتريا في سطور

تشكل سكان ارتريـا من الهجرات والتزاوجات التاريخية بين العناصر الحامية أو الكوشية التي أتت من جنوب مصر وشمال السودان والعناصر السامية التي جاءت من جنوب الجزيرة العربية والعناصر الزنجية التي جاءت من غرب وجنوب السودان منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

وبحكم موقعها الجغرافي على الشاطىء الغربي للبحر الاحمر والمطل على باب المندب فقد مرت عليها موجات عديدة من الغزاة بدءا من أسطول ملكة مصر (حتشبسوت ١٥٢٠-١٤٨٤ ق.م) مرورا بسفن سليمان الحكيم وممالك سبأ فالصراع الفارسي الروماني للسيطرة على طرق التجارة التي تربط الشرق بالغرب والذي أدى في النهاية الى تدمير ميناء عدوليس الذي أسسته الجاليات اليونانية والعربية والمصرية ايام البطالسة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ووصفها صاحب كتاب (بربلوس ارثريان) أي (الطواف حول البحر الاحمر) في القرن الاول الميلادي بأنها مدينة كبيرة ذات مبان جميلة تأتيها السفن بالخناجر والرماح والزجاج وتقلع تحمل العاج وقرون الخرتيت وجلود السلحفاة . وعنـدما احتل الخلفاء الامويون العرب ارخبيل دهلك وشواطىء مصوع اثر غارة القراصنة على جـدة في عام ٧٠٢ م كانت ميناء عدوليس قد تحولت الى خرائب بفعل الزلزال وبفعل هجرات قبائل بدوية من شمال السودان . وتحولت منطقة الشريط الساحلي الى الاسلام في القرن الثامن الميلادي بينما ظلت المرتفعات الارترية على دين المسيحية منذ أن نشرها قرمنتيوس في القرن الرابـع الميلادي . ولا يزال سكان ارتريا يدينون بالاسلام والمسيحية كديانتين اساسيتين للشعب .

ومع ان البلاد تعرضت الى صراع بين البرتغاليين والاتراك العثمانيين في القرن السادس عشر انتهى بغلبة الاتراك وبقاء حامية لهم تحت اشراف الحاكم المحلي حتى الغزو الايطالي (١٨٦٩ ـ ١٩٠٦) الا أن معظم الاجزاء الارترية ظلت تحت سيطرة حكامها المحليين (كنتيباي في الشمال دقلل في الغرب مع وجود ظل من نفوذ سلطنة سنار في السودان ، ورؤوس في أقاليم الهضبة الثلاثية ، وسلطان في منطقة دنكاليا ونائب في مصوع) مما ينفي وجود حكم اثيوبي لارتريا تاريخيا .

وقد اطلق الطليان اسم ارتريا على الاقليم ني ١٨٩٠/١/١ تجديدا للتسمية اليونانية القديمة للبحر الاحمر وهو الاسم الذي كان يطلق على

المكتبة الارترية

جزء من ارتريا بالتسمية المحلية (مدري بحري أي ارض الساحل) .

ويعتمد الاقتصاد الارتري على الزراعة وتبلغ المساحة القابلة للزراعة نحو خمسة ملايين هكتار ولا تزيد نسبة المزروعة منها ١٠٪ . ويمكن الزراعة عن طريق الري على ضفاف أنهار القاش والبركة وسيتيت الذي يطلق عليه في السودان نهر عطبرة ويشكل رافدا مهما للنيل . ومساحة ارتريا ١١٩ الف كيلومتر مربع وعدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة . ومعظم اراضيها جبلية باستثناء الشريط الساحلي الضيق الشديد الحرارة صيفا والمعتدل شتاء كما هناك سهول واسعة في الغرب . اما الهضبة الممتدة من الشمال الى الجنوب والتي تقع فيها مدن نقفة وكرن وعدي وقري وعدي قيح وأسمرا (العاصمة) فتتمتع بطقس ربيعي دائم ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم . وتسقط الامطار بنسبة (٢٠ ــ ٤٥ بوصة سنويا) في فصل الصيف (يونية ــ حزيران الى سبتمبر ــ ايلول) في كل انحاء ارتريا باستثناء الشريط الساحلي .

وتتبع ارتريا ١٢٦ جزيرة منتشرة امام الف كيلومتر من شواطئها وبخاصة في ارخبيل دهلك المواجه لميناء مصوع وهو الميناء الآخر لارتريا بعد عصب القريب من باب المندب .

وتصدر ارتريا الى السعودية وايطاليا كميات كبيرة من الموز والفواكه المدارية والخضراوات واللحوم والاجبان والسمسم والفول السوداني . وتملك ثروة حيوانية تزيد عن عشرة ملايين رأس من الابقار والاغنام والجمال .

وتمتلك ارتريا طرقا معبدة تبلغ ٣٠١٦ كيلومترا ومصانع للصناعات الخفيفة تبلغ نحو ٤٠٠ مصنع تشغل نحو مائة الف عامل معظمها في اسمرا . كما تمتلك عددا من المعادن من بينها النحاس والحديد والذهب والميكا والبوتاس والمرمر والبترول . وقد توقف استغلالها نتيجة الصراع التحريري الدائر هناك بين ارتريا واثيوبيا اثر الاحتلال الاثيوبي في ١٩٦٢/١١/١٤ وكانت الجمعية العامة للامم المتحدة قد ربطت ارتريا في اتحاد فدرالي مع اثيوبيا بموجب قرارها رقم ٣٩٠ (أ ــ ٥) الصادر في ١٩٥٠/١٢/٢ رغم معارضة حزب الكتلة الاستقلالية الذي كان يمثل معظم رغبات السكان في الاستقلال الوطني الكامل بعد ان احيلت اليها القضية الارترية ضمن قضايا مستعمرات ايطاليا السابقة في افريقيا بموجب اتفاقية الصلح المعقودة بين دول الحلفاء الاربع المنتصرة وايطاليا في باريس عام ١٩٤٧ . وقد تأسست جبهة التحرير الارترية في عام ١٩٦٠ ولا تزال تقود الكفاح المسلح من اجل الاستقلال الوطني الكامل مسيطرة على أكثر من ٨٠٪ من الاراضي الارترية .